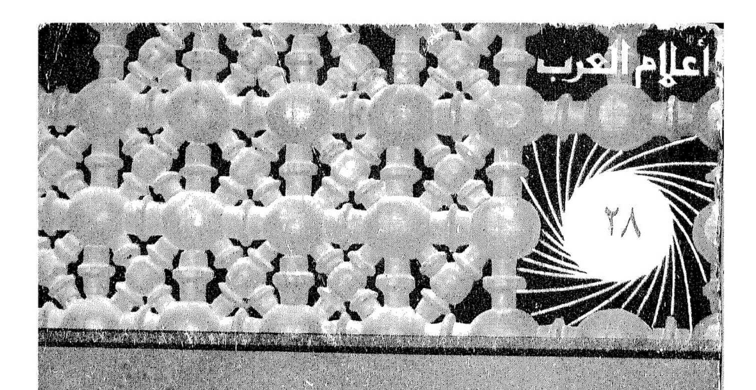


الناصر محمد بن قلاوون

بقلم

الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

أعلام العرب
٢٨

الناصر محمد بن قلاوون

بقلم
الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول علماء الاجتماع ان آراء المرء وتصرفاته ، وأفكاره ومشاعره انما تؤثر فيها ، وتوجهها النظم ، والتقاليد ، والعادات السائدة فى المجتمع ، فى العصر الذى نشأ فيه .

ومن هنا كان لا يستقيم لنا فهم الشخصية التى نترجم لها فى هذا الكتاب دون أن نقف على العصر الذى ولدت فيه ودرجت ، فنلم بتقاليد هذا العصر واتجاهاته ، ونقف على ذوقه ومنطقه حتى يسهل علينا ، بعد ذلك ، تقدير أعمالها تقديرا صحيحا ، والحكم عليها حكما تتحقق فيه النزاهة وعدم الانحياز ، لأنه من الخطأ البين أن نحكم على رجال الماضى بمقاييس الحاضر ، وأن نزن أعمالهم وتصرفاتهم بنفس الميزان الذى نزن به اليوم أعمال وتصرفات المعاصرين لنا ، فالمفاهيم تتطور ، وما كان مقبولا فى عصر قد يكون مرفوضا فى عصر آخر .

فلكى نكون منصفين فى أحكامنا واستنتاجاتنا ، أو على الأقل أقرب ما يكون الى الانصاف فى الحكم على هذا العصر الذى ولد وعاش فيه « الناصر محمد بن قلاوون » فلابد لنا من أن نعود الى الوراء ستة قرون أو تزيد ، ونحاول أن نعيش فى هذا الماضى البعيد بعقلية أبنائه ومنطقهم ، وهذا هو ما حاولناه فى

القسم الأول وفى الفصول الثلاثة الأولى من القسم الثانى من هذا الكتاب .

وقد اتجهنا بعد ذلك الى تتبع حياة هذه الشخصية من يوم أن فتحت عينيها على هذه الحياة الى يوم أن انطفأ النور فى هاتين العينين ، وعشنا معها هذه الحياة التى امتدت الى ما يقرب من ثمانية وخمسين عاما ، خطوة خطوة على قدر ما سمحت به الوثائق والمراجع التى بين أيدينا .

والله أسأل أن أكون قد وفقت فى هذه المحاولة المتواضعة الى رسم صورة صادقة ، واضحة المعالم لهذه الشخصية العربية العظيمة يتحقق بها الهدف المرجو من سلسلة « أعلام العرب » ، والا فحسبى أن أكون قد وجهت النظر اليها .

محمد عبد العزيز مرزوق

القسم الأول

العصر الذي ولد فيه الناصر محمد بن قلاوون

صور اجتماعية ما زالت موجودة حتى الآن

قطاعات الشعب

قطاع الفلاحين

قطاع الصناع والعمال

قطاع التجار

قطاع المثقفين

أعـــداء الشعب

الصليبيون

المغـــول

احياء الخلافة العباسية فى مصر

صور اجتماعية مازالت موجودة حتى الآن

لا يختلف العصر الذى ولد وعاش فيه محمد بن قلاوون « القرنان السابع والثامن بعد الهجرة » فى جوهره عن عصرنا الحاضر وان تباين فى كثير من مظاهره . فالتقدم العظيم الذى وصلنا اليه خلال القرون السبعة التى تفصلنا عن هذا العصر نلمسه واضحا فى كثير من نواحى حياتنا المادية ، بل لا أكاد أخطىء اذا قلت فى كل حياتنا المادية من ملبس ، ومسكن ، ومأكل ، ووسائل ننتقل بها داخل مدننا أو فى خارجها ، وطرق نتعرف بها على ما يجرى فى بيئتنا أو فى البيئات المجاورة لنا .

وليس هناك من شك فى أن هذا التقدم الملموس فى تلك الجوانب من حياتنا لم يستأصل من أعماق نفوسنا ما استقر فيها من تقاليد وعادات ، أو رسب فيها من عقائد .

فقد كنا ، وما زلنا ، نعيش فى كنف حكومة اسلامية ، نستروح فى ظلها عبير الاسلام ، ونهتدى بهديه فى كثير من شئوننا الاجتماعية والدينية : نسمع صوت المؤذن يتردد فى الآفاق داعيا الناس للصلاة فى أوقاتها الخمسة ، ونؤم المساجد للصلاة لا سيما فى يوم الجمعة ، ونصوم رمضان ، ونخرج الزكاة ، ويذهب من يستطيع منا الى بيت الله الحرام فى مكة لأداء فريضة الحج ، ونبعث بالكسوة الى الكعبة كل عام فى احتفال كان فى

الماضى أعظم ما هو عليه الآن ، وقد كانت كسوة الكعبة تخرج فى موسم الحج داخل « المحمل » وهو الهودج المحمول على جمل ، وقد كان له عرضان : الأول فى شهر رجب والقصد منه هو اعلان الناس باقتراب موسم الحج ، وبث الحماسة الدينية فى نفوسهم ، وقد كان موكبا عظيما يسير فيه الجند بملابسهم المزركشة وأسلحتهم المنمقة ، وألويتهم الملونة ، فيخترقون به وسط القاهرة متجهين الى القلعة ، وهناك يشرف السلطان هو وأمراؤه ورجال دولته على الموكب ، ويقوم حملة الرماح بألعاب عسكرية تتجلى فيها المهارة .

وكان الناس يسعون الى رؤية هذا الموكب ، ويبالغون فى تزيين منازلهم فيعلقون القناديل أمامها ، ومنهم من يخرج الى أماكن اللهو حيث يسمرون ويرقصون ، وينشدون قائلين :

بيع اللحاف والطراحة حتى أرى ذى الرماحة
بيع لى لحاف ذى المخمل حتى أرى شكل المحمل

والعرض الثانى للمحمل كان فى شهر شوال ، ويخرج فيه ركب الحجاج ومعهم السبيل المسبل للفقراء والضعفاء ، والمنقطعين بالماء والزاد والأشربة ، والأدوية والعقاقير والأطباء والكحالين ، والمجبرين والأدلاء والأئمة والمؤذنين ، والأمراء والجند ، والقاضى والشهود ، ومغسل الموتى — وهم جميعا فى أكمل زى وأتم أبهة . ويخرج هذا المحمل بين حفاوة الناس الذين يأتون لوداعه من كل حدب وصوب .

* * *

والى جانب أصوات المؤذنين التى كانت تجلجل فى السماء كانت تسمع أصوات أجراس الكنائس تتردد فى الآفاق ، ويؤم المسيحيون كنائسهم للصلاة لا سيما فى أيام الآحاد فى المناسبات المختلفة .

ونحن لا نزال نحتفل بالأعياد التى كان يحتفل بها أجدادنا من مسلمين وأقباط منـــذ سبعمائة عام : لا نزال نحتفل بيوم عاشوراء فيوسع الناس فيه على عيالهم ، ويتبسطون فى طعامهم ، ويصنعون فيه الحلوى . ونزور المقابر فى رجب ، ونحيى ليـــلة النصف من شعبان ، ونحتفى بغرة رمضان ، وبالسابع والعشرين منه ، ونبلغ فى هذا الشهر منتهى الكرم فى المآكل والمشارب ، ونحتفل بعيد الفطر ونعد له فى بيوتنا الكعك وما اليه ، ونحتفل بعيد الأضحى ويذبح الكثيرون منا الذبائح ، وتشارك الحكومة الشعب فى هذه الأعياد فتطلق مدافعها فى عيدى الفطر والأضحى ويسعى الناس بعضهم الى بعض بالتهنئة .

ولا يزال لعيد القيامة ، وحد السعف ، وخميس العهد ، وعيد الغطاس شـــأن بيننا ، ويشارك المسلمون المسيحيين فى بعض هذه الأعياد .

ولا جدال فى أن الحفاوة بكثير من هذه الأعياد قد قلت عن ذى قبل ، فعلى سبيل المثال « عيد الغطاس » كان له فى العصر الذى ولد فيه محمد بن قلاوون أى فى القرن السابع الهجـرى (الثالث عشر الميلادى) شأن أعظم مما له الآن ، وهو يستمد اسمه هذا من تلك العادة التى كانت جارية فى ذلك الوقت والتى

تقضى بأن يغطس كثير من الأقباط فى النيل عند السحر ، وكانوا يخرجون من كنيسة قصر الشمع (ولا تزال موجودة فى مصر القديمة حتى اليـوم) الى شاطىء النيل فى جمـع غفير يرددن الصلوات بنغمات ملحنة ويحملون الصلبان المشهورة ، ويخطب فيهم باللغة العربية الأسقف المرأس عليهم ، ويدعو للسلطان . وكان الناس فى هذا العيد لا ينامون الا قليلا : يخرجون نصارى ومسلمين على السواء الى النيل فى زوارق وعليهم أجمل ملابسهم ، ويظهرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشرب ويستمتعون بالملاهى والموسيقى والرقص ، وكان يقصد الناس فى هذا العيد « سوق الشماعين » التى تظل حوانيتها مفتوحة الى منتصف الليل ، لشراء ما يلزمهم من شموع .

* * *

ولا شك اننا كنا فى ذلك العصر أى منذ سبعة قرون أكثر تدينا منا الآن ، كان الدين يلعب فى حياتنا دورا هاما : كنا اذا أقدمنا على عمل شىء استخرنا ثم بسملنا واذا وقعت بنا أو بغيرنا كارثة حوقلنا ، ولم نكن نهمّ بشىء الا باذن الله ، ولا نعد بشىء الا « ان شاء الله » . أما الآن فالأمر جـد مختلف ، فالدين لم يذهب من حياتنا كلية بل رسب الى أعماق نفوسنا ، فاذا تصرفنا فى أمر من الأمور كانت العلوم الدنيوية هى التى نستمد منها تفكيرنا ، تتصرف بتفكير نستوحيه من علم النفس ، وعـلم التربية الحديثة ، وعلم الاقتصاد ، وعلم الاجتماع ، وغيرها من العلوم التى تتحكم فى منطقنا اليوم .

وخروجنا عن الجادة التى كان يسير عليها أجدادنا ليس مبعثه أن الدين يحول دون تطورنا أو يقف حجر عثرة فى سبيل تقدمنا ، كلا فالدين الاسلامى فى حقيقته يدعو الى أن يعمل الانسان للدنيا كأنه يعيش أبدا ، ويدعو الانسان للآخرة كأنه يموت غدا — ولكن مصيبتنا جاءت من الاستعمار والمستعمرين الذين نجحوا فى حجب الدين الصحيح عن عيوننا وأذهاننا ، وقدموا لنا شيئا آخر ليس من الدين الصحيح فى شىء ، صوروا لنا ان الدين يدعو الى احتقار الدنيا والتعلق بالآخرة ، ويدعو الى روح التواكل والاستسلام . وعملوا على تقوية هذه المعانى فى النفوس وقد آمن بها فريق منا دون بحث ، وسر المستعمرون بهذا الايمان لأنه غاية ما يطمعون فيه من شعب غلبوه على أمره ، وشجعوا كل من يشجع هذا النهج من المواطنين ، فظل التفكير الدينى عندنا جامدا الا من محاولات متفرقة مثل محاولات المغفور له الأستاذ محمد عبده ، التى لم تخل من أشخاص تصدوا لمحاربتها ، واتهموا الامام زورا بالانحراف والمروق . ولا يزال معظم أهل الريف عندنا متأثرين بتلك الآراء المخطئة عن الدين ، ولا يزال أمام المثقفين منا — سواء أكانوا من أهل الثقافة الدينية أم أهل الثقافة الدنيوية — عمل شاق هو هدم ما بناه المستعمرون ، والتقريب بين مفاهيم الدين الصحيح ومفاهيم العلوم الدنيوية حتى يزول هذا الانفصال بين نوعى التفكير ، فليس هناك تعارض قط بين العقيدة الدينية الصحيحة وبين العلوم الدنيوية . وفى الحق ان أدوات الاعلام لا سيما

التليفزيون تعمل فى الوقت الحاضر على تحقيق هـذه الغاية بما تعقده من ندوات أخص بالذكر منها ندوة « نور على نور » .

ولعل من المناسب هنا أن نذكر أن المصريين ، حتى فى ذلك العصر الذى كانت فيه النعرة الدينية قوية ومسيطرة على العقول — كانوا يعيشون فى سلام ووئام ، أقباطا ومسلمين ، ليس لروح التعصب أثر واضح بينهم كما كان الحال فى أوربا حيث كانت المذاهب الدينية المختلفة التى تفرعت اليها الديانة المسيحية تتطاحن معا ، ويقتل أصحابها بعضهم بعضا ، ويمثل بعضهم ببعض تمثيلا تقشعر له الأبدان وتشهد بذلك حوادث الاضطهادات الدينية .

وفى الحق لقد نعم أجدادنا من الأقباط ، فى ظل العرب بما لم ينعموا به قط فى ظل الحكومات المسيحية السابقة ، ولقد تمتعوا فى أيامهم بحرية دينية لم يتمتعوا بها قط من قبل .

على أننا لا نستطيع أن ننكر ما وقع ، فى بعض الأحيان ، من أمور عكرت صفو هـذا الوئام بين أجـدادنا من المسلمين والأقباط ، ذلك لأن كثيرين من الأقباط كانوا قابضين على أعنة الشئون الاقتصادية فى البلاد ، وكلما وقعت الحكومة فى أزمة مالية ، اتجهت اليهم وأوقعت بهم الكثير من العنت حتى يبادروا بدفع الأموال ليتخلصوا من هذا العنت . وكثيرا ما كان يتهرب الأقباط من دفع الضرائب للحكومة أو الاقلال من قيمتها — كما كان يفعل المسلمون فى بعض الأحيان — بأن يحبسوا أملاكهم الكثيرة على الكنائس والأديرة فيثير تصرفهم هذا غضب أولى الأمر فيتولد النفور والكراهية :

ومما يؤكد أن هذه الثورات الداخلية التى وقعت فى هـذا العصر بين الأقباط والمسلمين لا تمت الى الاضطهاد الدينى بأية صلة اننا كنا فى حرب ضـد الصليبيين أو بعبارة أوضح ضـد مسيحى أوربا الذين اتخذوا الصليب شعارا لهم ، والدين المسيحى ستارا استتروا به فى اندفاعهم الى الشرق لتخليص « بيت المقدس » من أيدى المسلمين . فى هذه الحرب التى كان ظاهرها الدين وباطنها الدنيا والرغبة فى السيطرة ، لم يتحرك من أجلها الأقباط فى مصر لنصرة أبناء دينهم ، ربما لأنهم تذكروا فى تلك الساعة ما نعموا به من هدوء وتسامح فى ظل المسلمين ، وأدركوا أن حياتهم كانت هانئة وحريتهم فى تأدية فرائض دينهم وفى اتباع المذهب الذى يريدونه كانت مكفولة أكثر مما كانت تحت ظل أبناء دينهم من المسيحيين .

قطاعات الشعب - قطاع الفلاحين

لم تكن قطاعات الشعب فى ذلك الوقت أى فى القرن السابع الهجرى — الثالث عشر الميلادى تختلف كثيرا عن القطاعات الحالية ، فكان هناك الفلاحون ، وهناك العمال ، وهناك كبار التجار وصغارهم ، وهناك المثقفون من قضاة وفقهاء وكتاب ، وهناك الجيش بضباطه وجنوده .

وقد مرت القرون متتابعة بهذه القطاعات ، ومرت الأحداث التى أثرت فى مجرى التاريخ ، والفلاح هو الفلاح ، لم يطرأ على حياته من التغيير شىء كثير يعيش حتى اليوم فى بيوته المبنية باللبن ينام فيها مع بهائمه ، ويأكل من نفس التربة ونفس الحبوب التى عاش عليها آجداده ، ويزرع نفس الحاصلات التى كانوا يزرعونها ، وانصافا للحق نقول انه قد أضاف الى هذه الحاصلات بعض المزروعات الجديدة بتوجيه من أولى الأمر ، وظلت مزروعاته القديمة كما هى : يزرع فى الشتاء القمح والشعير والعدس والحمص والكتان والبرسيم والبصل والترمس ، ويزرع فى الصيف اللوبيا والسمسم ، وقصب السكر والقلقاس والباذنجان والخيار والفجل واللفت والخس والكرنب والبطيخ والعنب والتين والتفاح والموز والنبق والمشمش . وهو ما زال يستعمل من آلات الزراعة ما كان يستعمله فى ذلك العصر الذى نتحدث عنه بل ما كان

يستعمله قبل ذلك العصر بآلاف السنين — فى العصر الفرعونى —
على أن أجدادنا من الفلاحين لم ينعموا فى عصر المماليك بما ينعم به فلاحونا اليوم من ملكية الأرض التى يزرعونها ، بل كانوا فى الحقيقة أجراء ، يزرعونها للحكام ، ورجال الجيش ، نظير أجر ضئيل يقيمون به أودهم ، فقد كان النظام السائد فى البلاد حينئذ هو المعروف بنظام الاقطاع أى تقسيم الأراضى الزراعية الى اقطاعات موزعة بين السلاطين والأمراء والمماليك وأوقافهم ، أما الشعب فقد كان محروما من ملكية الأرض ليس له الا العمل والسخرة ودفع المال .

وليس هناك من شك فى أن لكل دولة الحق فى أن تفرض على رعاياها الضرائب المختلفة لتكون وسيلتها الى الانفاق على المشروعات العامة التى تعود بالخير على الشعب عامة ، ولكن ينبغى على الدولة أن تعمل على توفير العدالة والمساواة فى هذه الضرائب فتراعى الظروف التى تحيط بدافعى الضرائب وتغير وتبدل فى قيمتها حسب مقتضيات الحال . ولكن حكومة المماليك قد نسيت أو تناست ذلك فجعلت أجدادنا من الفلاحين يئنون تحت عبء ثقيل من الضرائب ، وكانوا يرون أن هذه الضرائب انما كانت تجبى ليصرفها السلطان ورجاله على مصالحهم الشخصية ، ومن هنا كان احساسهم بالظلم عميقا ويزداد هذا الاحساس عنفا بتأثير عاملين آخرين هما : خوض نظام المسئولية المشتركة ، فيساهم الفلاح — مهما كان فقيرا — فى دفع كل ما يطلب من قريته من نفقات ، موظفى الدولة الذين يفدون الى القرية بل وقد

تلتزم أسرته بالدفع اذا هو هرب والقرية . والعامل الآخر هو امعان جباة الضرائب فى استعمال العنف والاستبداد فى تحصيل هذه الضرائب .

ومما زاد فى شقاء الفلاح فى ذلك الوقت أنه كان واقعا تحت رحمة « النيل » فكان بذلك معرضـــا فى بعض الأحيان لأخطار الفيضانات العالية التى تغرق الحرث والنسل ، كما كان معرضا فى أوقات أخرى الى أخطار الشرق والجدب وما كان يتلو ذلك من مجاعات وأوبئة .

ولقد حاول أجدادنا فى العصر الفرعونى أن يقفوا على مصادر هذا النهر العظيم ، وتوصلوا فى العصر اليونانى الى معرفة انه ينبع من بحيرتين عظيمتين ، وعندما أصبحت بلادنا جـزءا من الامبراطورية العربية لم تقل العناية بدراسة هذا النهر فنجد ان العرب بدورهم أخذوا يواصلون الدراسة ويتتبعون أخبار النيل فى دقة مدهشة فلا نكاد نجد كتابا من كتب مؤرخيهم وجغرافييهم لا تقع العين فيه على اشارة للنيل أو وصف له أو اشادة بمكانته أو ذكر لزيادته ونقصانه . فعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر هنا ما قاله المسعودى عن النيل من « انه ليست فى أنهار الدنيا نهر يسمى بحرا غير نهر النيل لكبره واستبحاره » . وابن عبد الحكم يقول ان « نيل مصر سيد الأنهار ، سخر الله كل نهر بين الشرق والغرب ، فاذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده ، فتمده الأنهار بمائها » . وابن تغربردى كان يحرص فى « نجومه الزاهرة » على أن يشير الى فيضان هذا النهر ونقصانه .

وليس هناك من شك فى أن النيل هو واهب الحياة لمصر ، واليه يرجع فضل استقرار الحياة وازدهارها فيها ، وقيام تلك الحضارة العظيمة التى أخرجت العالم من ظلمات الحيوانية الى أضواء الانسانية ، ولولاه لكانت هذه البلاد صحراء جرداء ، تصعب فيها الحياة . ولكن انطلاقه فى العصور السابقة من غير قيد ينظم جريانه ، أو محاولة للتحكم فى مياهه والانتفاع بهذه المياه الى أقصى حد ممكن (الأمر الذى حاولناه وما زلنا نحاوله فى عصرنا الحديث) — هذا الانطلاق الحر كانت تكمن فيه أخطار فادحة أشقت أجدادنا من الفلاحين شقاء مريرا ، فكانوا منذ فجر الحضارة يرقبون فيضانه بعين الحيطة والحذر ، وكانوا — فى العصر الذى نتحدث عنه — يعينون من يلاحظ ارتفاع الماء عند مقياس الروضة ، حتى اذا حان الفيضان بشر الناس بكل زيادة ، وكان للنداء بزيادة الماء أثر هام فى حياة الشعب والحكومة معا لأن هذه الأخيرة كان من حقها عندئذ جباية الخراج اذا ما بلغ الفيضان حدا معينا . واذا ما زاد على معتاده خشى الناس الغرق والبوار ، وخافوا انتشار الأوبئة ، وعندئذ يصدر السلطان أمره الى الأمراء والأعوان أن يتعاونوا فى ملافاة ذلك ، فتقام السدود والحواجز ، وتقوى الجسور ، ويسير بازائها الحراس والرقباء .

أما اذا تأخر الفيضان عن موعده ، أرجف الناس ، وخافوا الشرق والجدب والغلاء ، وأمسك التجار ما فى أيديهم من الحبوب ، وأصدر السلطان أمره الى القضاة بالخروج للاستسقاء

مع الناس ، وقراءة القرآن والحديث ، والدعاء طلبا للوفاء .

ولقد كان طبيعيا ، وهذه حالة النيل ، أن يفكر أجدادنا فى التحكم فى مياهه ، وبالفعل نجدهم فى العصر الفرعونى قد حاولوا انشاء ما يشبه الخزان بجوار الفيوم ، ونجدهم فى العصر العربى يعودون الى التفكير من جديد فى هذه المشكلة ، فيقول أحد العلماء العرب وهو الحسن بن الهيثم — « لو كنت فى مصر لعملت فى نيلها عملا يصلح به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقصان » ويسمع الخليفة الفاطمى الذى كان على عرش مصر فى ذلك الوقت — وهو الحاكم بأمر الله — بهذا الخبر ، فيسارع فى طلب هذا العالم ، ويكلفه باخراج مشروعه الى حيز التنفيذ ، ويسافر ابن الهيثم ومعه الصناع الى أسوان ثم الى الشلال ، الى البقعة التى كان يعتقد أنها صالحة لاقامة هذا « العمل الذى يصلح به أمر الانتفاع بالنيل » ولكنه لأمر ما يعدل فى اللحظة الأخيرة عن القيام بهذا العمل ، ولعله خشى الفشل ، وخشى عقاب الحاكم اذا هو فشل ، فتظاهر بالجنون تفاديا من عقاب الخليفة .

ولم يأل الخلفاء والسلاطين جهدا فى سبيل الاستفادة من مياه النيل على قدر ما وصل اليه علمهم فى ذلك الوقت فشقوا الترع والمصارف ، وأقاموا القناطر ، وأنشأوا الجسور سواء ما كان منها « سلطانيا » أى يعود نفعه على البلاد عامة وتتولى الحكومة صيانتها من الأموال العامة ، أو ما كان منها « بلديا » أى ينحصر نفعها على احدى النواحى وينفق على صيانتها من مال الناحية التى هى فيها .

والواقع أن ذلك القلق الذى كان يعيش فيه أجدادنا لم يعد له اليوم وجود بفضل التحكم فى مياه هذا النهر العظيم . وبعد أن كنا تحت رحمة النيل أصبح النيل — الى حد كبير — تحت رحمتنا ، نمد مياهه الى أماكن ما كان ليصل اليها من قبل ، ونقلل أخطار فيضاناته العالية ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، ونحاول أن نستفيد بما كان يضيع من مياهه هباء منثورا أو يبتلعه البحر المتوسط ويسرب بين أمواجه .. ولعل مشروع « السد العالى » هو قمة المشروعات التى اتخذت لتنظيم مياه هذا النهر ، وهو من أعظم حسنات عهدنا الحاضر — عهد الثورة المباركة — ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ — وسوف يجنى ثماره أبناؤنا وأحفادنا ، وسوف ينعمون بما يأتى به من خير عميم .

وبعد فلا عجب اذا رأينا أجدادنا الفراعنة قد عبدوا النيل وقدسوه وقدموا له القرابين خوفا من بطشه وجلبا لرضائه ونعمه ، ولعله من الطريف أن نذكر هنا أسطورة فيضانه كما كان يعتقدها هؤلاء الأجداد فقد كانوا يظنون أن الفيضان هو دموع آلهتهم المقدسة « ايزيس » ولكى يواسوها فى حزنها على زوجها « أوزوريس » فلا تبكى عليه بكاء شديدا بفيض من الدمع الغزير كانوا يلقون فى النيل بقطعة من ورق البردى يواسون فيها الالهة ويحملون العزاء فى زوجها ، ويلقون بعجل أبيض ينتقونه من خير العجول ثم ثلاث أوزات .

وكان القدماء أيضا يعتقدون أن مصدر الفيضان نقط تسقط من فوق جبال الحبشة فى ليلة ١٧ يونيو (١١ بؤونة) من كل عام

وبعدها يبدأ منسوب الماء فى النيل فى الارتفاع ايذانا بالفيضان .
وكانت « ليلة النقطة » هذه من المواسم التى يهرع فيها أهل مصر الى ضفاف النيل ليقضوا الليـــل فى العراء يتسامرون ويلعبون ويرقصون ، وكانت النساء فى تلك الليلة ، يضعن فوق أسطح منازلهن أقراصا من العجين بعدد أفراد الأسرة فاذا جاء الفجـــر ووجدت هذه الأقراص قد تشققت استبشرن خيرا بذلك واعتقدن أن الفيضان سيكون وفيا هذا العام .

وأسطورة « عروس النيـــل » اختـــرعها المؤرخ بلوتارك اذ يقول ان المصريين القدماء كانوا يشكرون « النيل » اذا مر فيضانه بسلام باختيار أجمل فتاة عذراء عندهم ثم يلبسونها أفخر الثياب ويزينونها بأغلى الحلى ثم يسيرون بها فى موكب بحرى عظيم على صفحة النيل ، ثم يلقونها بعد ذلك فى المـــاء لكى يتزوجها .

وأجدادنا من العرب كانوا يخرجون الى النيـــل للاستسقاء وقراءة القرآن والأحاديث اذا بخـــل بمائه ، ويتهللون فرحا ، ويرقصون طربا اذا ما وفى لهم بمائه ، وكان السلطان وقت الفيضان ينزل من قصره بالقلعة فى موكب حافل ، ويسير الى المقيـــاس (الذى لا يزال قائما حتى اليوم) فيغسله بالطيب والعطـــور أو يجعل القائم على المقياس يفعل ذلك ، ثم يخرج الى خارج المقياس ، ويأمر بفتح السد ، فتنطلق المياه ، ويعم الفرح أنحاء البـــلاد .

وما زلنا حتى اليوم نحتفل بهذه المناسبة ، وما زلنا نرى

لذلك الحفل العظيم الذى كان يقيمه أجدادنا فى العصر الذى نشأ فيه الناصر محمد صورة باهتة تتجلى لنا اليوم فى خــروج سفينة « العقبة » من بولاق (الترسانة) بعد تزيينها بالورود والرياحين ، والأعلام ، وتسير فى النيل حتى جزيرة الروضة ، فتطوف بها ، وتمضى ليلتها فى رحابها ، ويقام سرادق عظيم ، يدعى اليه كبار رجال الدولة ، وتطلق الألعاب النارية ، وتكتب الحجة الشرعية بوفاء النيل وأحقية الدولة فى جباية الضرائب .

واذا ما أصبح الصباح ، عادت « العقبة » الى مرساها انتظارا للعام التالى .

واذا تركنا القرية الى المدينة ، وتركنا قطاع الفلاحين الى قطاع العمال ، وجدنا بونا شاسعا بين قرانا المتأخرة غاية التأخر ، ومدننا المتقدمة غاية التقدم كما هو الحال الآن [1] ، فبيوت الفلاحين المبنية باللبن (الطوب النيىء) فى القرية والتى كان يستقل فيها كل فلاح بأسرته ومواشيه ، قد حل محلها بيوت كبيرة مشيدة بالحجر والطوب المحروق تتسع لعدة أسر وهى ما كان يعرف باسم « الرّبع » وكان يعيش فيها الصناع والعمال وصغار التجار ، والى جانبها بيوت صغيرة أشبه ما تكون بالفيلات مبنية كذلك بالحجر والطوب المحروق يسكنها أغنياء الصناع وكبار التجار وكانت هذه الفيلات تنتظم حدائق صغيرة جميلة ، كما كان يوجد فى بعض أنحاء المدينة حدائق عامة ترفه على الشعب حياته وتؤدى — الى حد ما — بعض ما تؤديه الحقول الخضراء فى الريف .

ومن الطريف أن نذكر أنه كانت عندنا — فى ذلك الوقت فى القرن السابع الهجرى — القرن الثالث عشر الميلادى — مشاتل

---

(١) مع ملاحظة النهضة التى احدثتها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى القطاع الريفى بالعناية بشأنه ، ولا سيما تطوره فى ضوء الميثاق الوطنى والحكم المحلى .

أى أماكن تباع فيها الأشجار والزهور والرياحين ، ويشترى الناس هذه النباتات فى داخل اصص من الفخار لكى يزرعوها فى حدائق منازلهم أو يضعوها فوق أسطح هذه المنازل أو يزينوا بها مساكنهم .

* * *

ولقد كان العمـــال يزاولون صناعاتهم اليدوية فى قاعات صغيرة أو كبيرة حسب قدرتهم وحسب حاجة الصناعة ، وكانت تدار فيها الآلات باليد لا بالبخار أو الكهرباء فلم يكن الانسان قد اهتدى بعد الى هذه القوى .

وقد كانوا ينتظمون فى طوائف مختــلفة أو نقابات تحمى حقوقهم ، وتشرف على تأدية واجباتهم على الوجه الأكمل .

ولقد كان للنقابات تقاليد ، ونظم يحترمها الجميع ، وتؤيدها الدولة بنفوذها ، فدخول أى فرد جديد فى حرفة من الحــرف لم يكن أمرا هينا ، لأنه كان يحمل معنى المنافسة لأصــحاب المهنة الأصليين ، لذلك كانوا لا يسمحون لأى شخص بمشاركتهم الا أن يكون أتى ليحل محل أحدهم ، وفى هــذه الحالة يقبل بشروط خاصة ..

وكان رجال الحرفة لا يمرنون أحدا على طرق صــناعتهم الا أن يكون من أبنائهم ، وعندئذ لابد للصبى — قبل أن يصبح صانعا ماهرا — أن يسلك عدة خطوات ثم يحصل بعد ذلك من شيخ الصنعة على شهادة بأنه حذق الصنعة ، وينادى به الشيخ معلما فى صنعته ويصبح بعد ذلك عضوا فى نقابة حرفته .

وعند دخول عضو جديد فى احدى النقابات كان يقام حفل كبير ، قد وصف لنا المؤرخ الانجليزى لين Lane فى كتابه القيم : Manners and Customs of Modern Fgyptians حفلا من هذا القبيل ، وليس هناك من شك فى أنه لا يختلف كثيرا عن الحفل الذى كان يقام فى العصر الذى نتحدث عنه بهذه المناسبة ، فالتطور فى مثل هذه الشئون بطىء .

ويتلخص هذا الحفل — كما وصفه لين — فى أنه عندما يصبح الصبى شابا قد حذق الصنعة ، ويريد أن يدخل فى زمرة الصناع ، يأخذه والده الى « شيخ الصنعة » حيث يبدى له رغبته فى أن يصبح ولده عضوا بالنقابة ، فيرسل الشيخ الى النقيب لكى يدعو رؤساء الحرفة وبعض أصدقاء المرشح .

ويأخذ النقيب فى يده باقة من أى عشب أخضر أو من الأزهار ويذهب الى كل واحد من رؤساء الحرفة وأصدقاء المرشح ويقدم له عشبا أو زهرة أو ورقة خضراء ويطلب اليه قراءة الفاتحة للنبى . وبعد قراءتها يقول له النقيب فى يوم كذا فى ساعة كذا تحضر الى منزل فلان لكى تشرب فنجانا من القهوة . . . .

وهؤلاء المدعوون يحضرون فى الموعد المحدد والمكان المعين ويشربون القهوة ثم يتناولون طعام العشاء وبعد ذلك يقود النقيب الشاب الى مكان شيخ الصنعة ويقفان أمامه ويعدد النقيب صفات الشاب ، ثم يطلب الى الحاضرين قراءة الفاتحة للنبى ، وعقب الانتهاء من قراءتها يحزم الشاب بشال فوق ملابسه ويعقد الشال حوله عقدة واحدة ، ثم يطلب قراءة الفاتحة لأحد الأولياء الكبار

ويعقد الشال بعقدة ثانية ثم يطلب قراءة الفاتحة للمرة الثالثة ، ويعقد الشاب للمرة الثالثة . ويصبح الشاب عندئذ من أعضاء النقابة ويقبل على شيخ الصنعة فيقبل يده كما يقبل أيادى زملائه فى الصناعة ثم يعطى النقيب جعلا صغيرا وبذلك ينتهى الحفل .

وقد ازدهر نظام النقـابات فى ظل الاسلام ازدهارا عظيما ، وساهم بأوفر نصيب فى تقدم الصناعة ، اذ كان شيخ الصنعة هو المهيمن على أفراد نقابته ، والموجه لهم فى فنهم ، ويليه النقيب ثم الأستاذ ثم الأسطوات ثم المبتدئون أو الصبيان .

وكانت أسرار الصناعة تدرس عمليا وتلقن شفويا بين جدران المصانع ، وكان للنقابات قانون يستمد سلطته من الحكومة ، ويدور هذا القانون حول حماية العامل والمستهلك على السواء فيحقق للأول سهولة الحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة ، ويمنع الاحتكار الذى يضر بالعمل ، ويسعى لرفع مستوى العامل الاجتماعى ، كما يضمن للثانى جودة المصنوع واتقان الصناعة ، واتباع الأساليب المقررة فيها (أى التى يقرها شيوخ الصناعة) ، ويضرب بيد من حديد على الغش والتدليس .

واذا كانت هذه النقابات قد اختفت من حياتنا الاقتصادية ، وأصبح لها اليوم صورة جديدة تخالف تلك التى قدمناها الا أننا نستطيع أن نرى لها صورة باهتة ، غير واضحة المعالم فى مجتمعنا الحديث تتمثل فى جلوس أبناء كل حرفة فى « قهوة معينة » يلجأ اليها من يريد « نجارا » أو « منجدا » أو « نقاشا » ، وتتمثل لنا أيضا فى « موكب الرؤية » الذى يسير فى بعض بلاد الريف

ايذانا ببدء الصوم ، ففى هذا الموكب يسير ممثلون للحرف المختلفة ، ويعلن كل فريق منهم عن حرفته التى يزاولها .

* * *

واذا كانت النقابات هى السلطة الأهلية التى تحمى المستهلك والعامل على السواء ، فقد كان فى العصر الذى نشأ فيه محمد ابن قلاوون (القرن السابع الهجرى — والثالث عشر الميلادى) موظف حكومى كبير ، له الاشراف المطلق على هذه النقابات بل وعلى كل ما يتصل بحياة الناس الاجتماعية والدينية من حيث الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . هذا الموظف هو « المحتسب » ووظيفته كانت تسمى « الحسبة » ، وهى وظيفة أوجدها الاسلام عندما رأى ان الانسان لا غنى له فى حياته عن التعاون مع غيره ، وأدرك أنه لكى يستقيم أمر الجماعة لابد من ايجاد سلطة تلزم كل انسان حده ، ولا تترك مجالا عمن تحدثه نفسه بالشر أن يعبث بمصالح الناس ، ارضاء لشهوة جامحة ، أو نزوة طارئة .

وأول من أوجد هذه الوظيفة فى الاسلام هو الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، المحتسب الأول الذى كان أول من أشرف بنفسه على الأسواق ، وعاين المكاييل والموازين ، وأمر باماطة الأذى عن الطريق .

على أن أعمال المحتسب لم تقف عند الحد الذى وقف عنده « عمر » بل اتسعت دائرتها حتى شملت جميع ما يتصل بحياة الناس الدنيوية والدينية ، فصار يفصل فى المسائل ذات الصبغة التجارية متى كانت واضحة لا تعقيد فيها ، أما المسائل التى

تحتاج الى تحقيق من سماع شهود ، وتحليف يمين وغير ذلك مما تتطلبه القضايا الغامضة فكانت ترفع عادة الى القاضى .

وكان ينبه أولى الأمر الى الأبنية العامة الآيلة للسقوط بسبب اهمال اصلاحها حتى يعملوا على دفع أخطار سقوطها على الناس .

وكان يطوف الأسواق بين وقت وآخر ، ويسبقه فى طوافه موظف يحمل ميزانا كبيرا ويتبعه الجلادون وبعض الخدم والأتباع ، فيعاين الموازين والمكاييل التى يستعملها التجار حتى يتحقق من صحتها ، ويسأل عن أسعار السلع ليتأكد من أنها مناسبة ليس فيها استغلال للمستهلكين ، وقد يصادفه فى الطريق أحد المارة حاملا سلعة اشتراها من أحد الباعة فيستوقفه ، ويسأله عن الوزن وعن الثمن الذى دفعه ، واذا وجد بائعا لم يوف الكيل أو الوزن ، أو باع بسعر يزيد على السعر المناسب السائد فى السوق ، أو احتال بطريقة ما على استغلال الشارى ، وقع عليه العقوبة فى الحال ، وقد كانت فى العادة الضرب أو الجلد . وقد كانت هناك طرق أخرى للعقاب نذكر منها على سبيل المثال واحدة عاقب بها المحتسب بائعا للخبز فى مصر فى عصر متأخر عن العصر الذى نتحدث عنه ولكن ليس من المستبعد أن تكون قد استعملت أيضا فى هذا العصر ، ذلك أن رجلا كان يبيع الخبز ناقصا عن الوزن المقرر فعاقبه المحتسب بأن ثقب أنفه ، ثم علق فى الثقب رغيفا من الخبز بخيط ، ثم جرد الرجل من ثيابه الا ما يستر عورته ، وأوثقت يداه من خلفه ، وشد الوثاق الى قضبان نافذة جامع الأشرفية الذى يقع فى الشارع الرئيسى

بالعاصمة حينئذ (شارع المعز لدين الله حاليا ، ومسجد الأشرفية بالقرب من الصاغة) ، واستقرت قدما الرجل فوق قاعدة نافذة المسجد ، وظل واقفا هكذا ، عاريا من ثيابه ، مشدود الوثاق ما يقرب من ثلاث ساعات يئن تحت وطأة نظرات المارة ، ويتلظى بحرارة الشمس المحرقة ، ومثل هذه العقوبات على ما فيها من قسوة الا أنها كانت رادعة من غير شك مما جعل حوادث استغلال الصناع أو التجار لأفراد الشعب قليلة أو معدومة .

وكان المحتسب يشرف على أرباب الصناعات جميعا من نساجين ونجارين ، ووراقين وخزافين وغير هؤلاء من الصناع أو ممن تتصل أعمالهم بالناس فى أية صورة من الصور مثل معلمى الكتاتيب والسقايين وغيرهما .

وكان يرسم للصناع طريق العمل بارشاد شيوخ الصناعة ، ويحدد لهم الهدف الأسمى الذى ينبغى أن يتجهوا اليه فى صناعاتهم وهو اتقان العمل والاخلاص فيه . فالخزاف مثلا عليه أن ينتقى من الطين أحسنه ، ومن الوقود أفضله وأنظمه « فلا يستعمل روث الآدمى ، ولا شيئا من الأزبال فانها نجسة ، بل يستعمل الحلفا ، وقشر الأرز وما أشبهه .. وعليه أن يحرص على جعل الأوانى معتدلة ، تامة الشىء حتى لا تتفتت اذا ما وضع الطعام فيها ، وتكون كاملة الدهان ، ولا يستعمل فى الصبغة الا أحسن المواد مثلى القلى الأزرق والنفتيز ولا يستبدل ذلك بالنيلة والشوكس» .

وهكذا كان لنظام النقابات والحسبة أثر لا ينكر فى تحسين المنتجات الصناعية والعمل على رفع مستواها والعناية باخراجها

فى أحسن صورة ممكنة ، فبلغت فى ظل هذا النظام وتحت اشراف المحتسب الغاية القصوى من الرقى ، وسمت فى بعض الأحيان ، عن دائرة الصناعة المألوفة الى مستوى الفن الجميل ، وأصبحت تحفا تقتنى لجمالها .

ولكى يكون هذا التطور واضحا فى الأذهان نضرب له مثلا بالآنية التى تصنع من الطين لتمسك الطعام أو الشراب ، فهى تظل وسيلة تستخدم فى هذا الأمر مالم يتقن الانسان صنعها ، ويتفنن فى زخرفتها ، ويبذل الوسع فى تجميل شكلها وتنسيق ألوانها ، فاذا ما وصلت الى الكمال فى ذلك أو قاربته ، غادرت موائد الطعام لكى تتصدر قاعات الاستقبال أو جدران المتاحف متخذة مكانها بين التحف الجميلة ، وعندئذ تتغير نظرتنا اليها ، وننسى وظيفتها الأولى ، ولا نذكر منها الا أنها شىء جميل يحبونا التأمل فى محاسنه نشوة لا تعدلها نشوة . وفى الحق ان التأمل فى مظاهر الجمال من شأنه أن يرهف الحس ، ويهذب الذوق ، ويبعث فى النفس حب الجمال ، واذا ما تكوّن الذوق السليم ، وارتقى مستواه ، ومرن الناس على تقدير مظاهر الجمال ارتقت الأمة فى حياتها الخاصة وفى حياتها العامة ، فلا يقبل أفرادها الا على استعمال ما هو جميل ، ولا ترتاح نفوسهم الا الى رؤية الجمال ممثلا فى كل ما يحيط بهم ، تؤذيهم الفوضى فى الحياة المادية وفى الحياة المعنوية ، ويؤلمهم عدم التوازن والانسجام فيما بين الأشياء بعضها وبعض فى داخل منازلهم وخارجها .

واذا نحن تركنا جانبا تلك الصناعات التى يصعب أن ترتقى

الى مرتبة التحف الفنية مثل صناعة الخبز ، والسكر ، والحلوى ، وعصر الزيوت وغيرها ، وقصرنا الكلام على المصنوعات الأخرى من تحف زجاجية ، ومعدنية ، وخشبية ، وخزفية ، ومن أقمشة وطنافس وجدنا أن هذه المصنوعات قد بلغت ، فى ذلك العصر ، مكانة ممتازة لم تبلغها من قبل ، وكانت موضع التقدير لا فى مصر والشرق فحسب بل فى أوربا أيضا حيث كانت تنتزع اعجاب الأوربيين المعاصرين كما تنتزعه الآن ، ونستطيع أن نشاهد أمثلة رائعة من هذه المصنوعات فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، وفى متحف اندرسون (بجوار مسجد ابن طولون) وفى متحف الجزيرة ، وفى متحف المنيل بل وفى الأقسام المخصصة للفن الاسلامى فى متاحف أوربا وأمريكا . وفى الحق ان زيارة واحدة لهذه المتاحف كلها أو بعضها تغنينا عن الاسهاب فى هذه النقطة ، ويكفى أن نذكر هنا ان هذه المصنوعات المصرية المختلفة قد استوحاها صناع أوربا فى ذلك الوقت ، واتخذوا منها نماذج يعملون على تقليدها .

ولقد أقبلوا على تقليد مصنوعاتنا الخزفية ، ومصنوعاتنا الزجاجية ، ولا تزال حتى اليوم فى قرية « مورانو » (من ضواحى مدينة البندقية) فى ايطاليا مصانع للزجاج تسير على نفس المنهج الذى كانت تسير عليه مصانعنا فى العصور الوسطى ، ويؤمها السياح ليشاهدوا هذه الصناعة اليدوية لكى يشتروا من التحف الزجاجية الجميلة ما يزينون به مساكنهم .

وقد اتخذ الأوربيون أيضا من الأوانى النحاسية المطعمة

بالفضة أو الذهب أو بهما معا التى حذق أجدادنا صناعتها فى العصور الوسطى (ولا تزال قائمة فى خان الخليلى بالقاهرة) — نماذج قلدوها ، واستعانوا فى هذا التقليد بصناع من العرب استقدموهم من الشرق العربى لكى يكشفوا لصناع البندقية أسرار هذه الصناعة ، ومن البندقية انتشرت هذه الصناعة فى باقى أنحاء أوربا .

وكانت صناعة الأقمشة مزدهرة على أيدى أجدادنا ازدهارا منقطع النظير وابتكروا فيها أنواعا لم تكن معروفة من قبل . ولقد وجدت هذه المنسوجات طريقها الى أسواق أوربا ، وأثارت فى نفوس القوم هناك دهشة عظيمة عندما تأملوها ، وقارنوا بينها وبين ما كانت تخرجه مناسجهم فى ذلك الوقت ، وأقبلوا على شرائها اقبالا شديدا ، وأخذوا فى تقليدها ، ونجحوا فى عمل أقمشة قريبة الشبه مما كان ينتجه أجدادنا حتى لقد يصعب علينا اليوم فى بعض الأحيان أن نفرق — فى المتاحف — بين الأصلى والمقلد .

والطنافس — وهى الأبسطة ذات الخمل — كنا ننتجها فى ذلك الوقت وكنا ننافس فى انتاجها بلاد العجم — أعرق البلاد فى صناعة الطنافس — وكانت طنافسنا فى الواقع تحفا فنية بكل ما يحمله هذا التعبير من معنى : كانت تحمل الفكرة الكامنة ، وفيها التوازن والانسجام ، وفيها التنوع بين الألوان ، وفيها اليد الصانعة الماهرة ، وفيها كل ما يمتع الحواس ويغذيها . كانت رؤيتها تسحر العين ، وملمسها ترتاح اليه النفس ، وتصميمها وزخارفها

تثير التفكير وتبعث على التأمل . ولقد أدرك الأوربيون ما فيها من جمال وفن ، وقدروا هذا الجمال الفنى حق التقدير ، فأقبل الأغنياء منهم على اقتنائها . ليزينوا بها قصورهم ، وكنائسهم . وقد انعكس هذا التقدير بأجلى صورة فى لوحات فنانيهم ، فاذا هؤلاء الفنانون يرسمونها فى صورهم ، فبدت الطنافس القاهرية مصورة فوق العروش أو مفروشة على الأرض ، أو منشورة من النوافذ والشرفات ، أو مبسوطة فوق الموائد والمذابح فى الكنائس ، واذا بصناعهم يقلدون هذه الطنافس ويحاولون اتقان هـذا التقليد ما استطاعوا .

ولعله من المفيد فى هذه النقطة أن نشير الى أن معظم المواد الخام التى كانت تصنع منها هذه المصنوعات كانت — ولا تزال — متوافرة فى بلادنا . ولقد نجح الاستعمار التركى فى أن يقضى على الكثير من صناعاتنا المختلفة عندما نقل الى القسطنطينية ألوف العمال والصناع مع عائلاتهم لكى يؤسسوا فيها هذه الصناعات ويساهموا بأوفر نصيب فى تكوين الفن التركى العثمانى .

وجاء الاستعمار الأوربى فبث فى نفوسنا فكرة خاطئة هى أننا بلد زراعى فحسب ، فاضمحلت هـذه الصناعات بالتدريج وأخذنا نعتمد على أوربا فى كل ما نحتاج اليه من مصـنوعات ، واستقر فى نفوس الشعب — بفعل دعايات المستعمرين ومن يواليهم — ان كل ما صنع فى أوربا متقن متقدم جدير بالتقدير وكل ما ننتجه بأيدينا متأخر ، تعوزه اللمسة الصادقة فى الاخراج ليسمو الى مستوى منتجات أوربا . وقد يكون فى هذا القـول

شيء من الصحة بسبب ما وقع لنا — بفعل الاستعمار — من تأخر وتدهور ، ويسبب ما كان يلجأ اليه المستعمرون فى بعض الأحيان من وضع القبعات وتثبيط الهمم لنظل دائما عالة عليهم .
ولكن هذا الظلام الذى خيم على الصناعات عندنا قد آذن بالزوال أو قد زال فعلا فى كثير من الصـناعات ، واستيقظنا من غفلتنا بفضل ثورتنا المباركة ، وتنبهنا الى خداع المستعمرين وتضليلهم ، وأخذنا نعيد مجد الآباء فى هـذه الناحية ، ونحيى صـناعاتنا ونستفيد بموادنا الخام فى هذه الأحيان ، وبلغنا بالفعل فى صناعة المنسوجات درجة أصبحنا ننافس فيها أوربا وأمريكا ، وفى صناعة الخزف والزجاج حتى أصبحنا فيها عـلى قـدم المساواة مـع تشيكوسلوفاكيا وردت الينا سمعتنا فى الصناعة وسوف نسـير قدما فى هذا الطريق بفضل أولئك الذين خلصونا من الاستعمار وفتحوا عيوننا على خيرات بلادنا ومواردها .

واذا كانت حياة الفلاح فى القرية قد ظلت كما هى ، لم يدخل عليها جديد ، وكانت حياة العامل فى المدينة أقرب ما تكون الى حياة الفلاح فى القرية من حيث البساطة والمحافظة على القديم ، فان حياة تجار المدن كان لها شأن آخر .

لقد كان التجار بحكم مهنتهم أكثر اتصالا بغيرهم ، بل لعلهم كانوا القطاع الوحيد من قطاعات الشعب الذى يتعامل مع الغير ، ويسافر الى البلاد المختلفة داخل مصر وخارجها ، ويرى عن كثب ألوانا من المعيشة غير مألوفة فى بلاده . ولا جدال فى أنهم قد تأثروا بهذه السياحة وذلك الاختلاط ، ولكنهم مع ذلك لم يخرجوا على مألوف عاداتهم وتقاليدهم الا قليلا . وليس من الصعب علينا أن نرى اليوم صورة صادقة لبعض تجار العصور الوسطى اذا نحن ذهبنا الى « حى التربيعة والفحامين والغورية » فلا يزال يعيش فى هذه الأحياء بعض التجار الذين لم يتطوروا كثيرا مع الزمن ، لا يزال الواحد منهم قابعا فى حانوته الصغير ، حيث تنعدم النوافذ المخصصة لعرض البضائع — كما هو الحال فى الحوانيت الحديثة — ولكن هذا الحانوت على صغر مساحته قد اتسع لسلع كثيرة نسقت فيه بصورة جميلة ، ورتبت بحيث

تترك للتاجر وزبائنه مكانا يجلسون فيه يشربون الشاى أو القهوة وهم يساومون فى ثمن البضاعة .

وينبغى أن لا ننسى الفرق بين صغار التجار وكبارهم ، أما الصغار فقد كانت حياتهم أقرب الى حياة العمال ، وأما الكبار فقد كانت حياتهم أقرب فى ترفها ورفاهيتها الى حياة الحكام والأمراء .

والواقع أن نشاط مصر فى التجارة الخارجية والداخلية فى العصر الذى نتحدث عنه (القرن السابع بعد الهجرة — الثالث عشر بعد الميلاد) كان كبيرا ، فقد كانت التجارة مصدرا هاما من مصادر الثروة ، والغنى ، الأمر الذى ترتب عليه أن أصبح كبار التجار طبقة ممتازة لها القصور الفخمة ولها المركز المرموق .

ولقد أحس سلاطين المماليك وأمراؤهم بذلك ، فقربوا كبار التجار اليهم ، واصطفوا منهم الأصدقاء حتى يكونوا عونا لهم فى ساعات الأزمات الاقتصادية ، وكثيرا ما كانت تقع فى تلك الأزمنة .

وقصور كبار التجار ، ومنازلهم العظيمة تستحق منا أن نقف عندها قليلا ، فلقد ذكر المقريزى انه عند بناء منزل من هذه المنازل كان يستحضر المهندس ، ويفوض اليه العمل ، وكانت الفكرة الأساسية التى يحرص عليها الناس عندئذ فى هندسة بيوتهم هى عدم تمكين أى فرد بالخارج من أن يرى شيئا داخل المنزل ، ولذلك كان معظم المداخل الرئيسية ملتوية لتحجب عن أنظار المارة ما يجرى فى صحن المنزل ، كما سدت النوافذ بشبابيك من الخشب المخروط (مشربيات) .

والواقع أن مهنــدس ذلك العصر قد أدرك حــق الادراك ما تقتضيه الحياة فى بلد حار مثل بلدنا ، فجعل الشوارع ضيقة تسمح لوسائل الانتقال المستعملة حينئذ وهى الدواب من خيول وحمير وجمال وبغال من أن تمر فى يسر ، كما تسمح أيضا بتوفير الظل وحماية المارة من وهج الشمس المحرقة لا سيما فى فصل الصيف ، وصمم المنازل بحيث جعل لكل منزل فناء متسعا تتوسطه حديقة تكسبه جمالا رائعا بما ينمو فيها من أشجار وأزهار ، وفى أحد أركان هذا الفناء حفر بئرا تستعمل مياهه فى شتى الأغراض ما عدا الشرب فقد كانت تحمل من أجله المياه من النيل على ظهور الدواب أو ظهور الآدميين (السقايين) .

وحول هذا الفناء كانت تقوم غرف المنزل ، والغرف العليا كانت تطل عليه أو تطل على الطريق بنوافذ تغطيها مشبكات من الخشب المخروط (المشربيات) ، تسمح للطيور اللطيفة ، والهواء العليل بالنفاذ الى داخل الحجــرات فتوفر لها جوا مناســبا ، ولا تسمح لأحد فى الخارج برؤية ما يجرى فى الداخل من ورائها .

وقد كانت غرف المنزل فسيحة ، وأجملها كانت غرفة الاستقبال حيث كانت توجد عادة نافورة فى الوسط ، تمج الماء من أفواهها فترطب الجو ، وتضفى على المكان جمالا وسحرا ، وقد تنقلب هذه الغرفة الى غرفة للطعام ، وغرفة للنــوم اذا نزل فى المنزل ضيوف . والواقع أنه لم يكن بالمنزل غرف متنوعة كما هو الحال الآن ، فلم يكن لكل غرفة غرض محدد تقف عنده بل جميع الغرف منفصل بعضها عن بعض لتصلح فى الليل للنوم ، وفى النهار

للجلوس وتناول الطعام . وكل ما كان يلزم للنوم مرتبة واحـدة أو مراتب عدة ومخدات كثيرة ، وأغطية فى الشتاء ، وناموسية فى الصيف وهذه الأشياء كانت تطوى فى الصباح ، وتوضـع فى خزائن خاصة فى غرف صغيرة كانت تلحق عادة بالغرف الكبيرة .

والأثاث فى ذلك العصر لم يكن بالكثرة التى هو عليها الآن ، وأهم ما كان فيه : طنافس جميلة تفرش على الأرض ، وزرابى (شلت) مبثوثة هنا وهنـاك ، ومسـاند توفر للجالس الراحة والاطمئنان فى جلسته ، وأوانى شتى من النحاس والخـزف والزجاج وصناديق من الخشب لحفظ الملابس وغيرها مما تمس اليه الحاجة .

هذا ولقد كانت أسواق القاهرة فى ذلك العصر عامرة بالبضائع المختلفة ، وكانت حركة البيـع والشراء نشطة نشاطا ملحوظا . والحوانيت حافلة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة تبهج رؤيتها الناظرين ، ويعجز الانسان عن احصاء ما فيها من الأنواع .

وللمقريزى وصف طريف يدل على مدى نشاط الأسـواق فى هذا العصر اذ يقول : « وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ، ويقولون يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهبا الى الكيمان والمزابل ، يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون ، والجبانون ، والطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن ، والتى يوضع فيها الجبن ، والتى تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطبـاخين ، وما يسـتعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر .. وما يستعمله العطارون من القراطيس والخيوط التى

تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبــوب والأفاويه وغيرها ، فان هذه الأصناف المذكورة اذا حملت من الأسواق ، وأخذ ما فيها ، ألقيت الى المزابل .. » .

ولقد كانت الدولة تساهم فى هذه التجارة الداخلية بنصيب واضح ، اذ كانت بعض الضرائب تجبى عينــا ، وكانت الدولة تتصرف فى هذه المحصولات بنفسها ، وفى بعض الأحيان تبيع حق احتكارها لبعض التجار ، وقد يرفع هؤلاء المحتكرون الأسعار ، فتعلوا صيحات الشعب من الغلاء ، فتعود الحكومة الى الضرب على أيدى التجار المستغلين جميعا .

بقى لنا من قطاعات الشعب قطاع « أصحاب العمامة » ، أو بعبارة أخرى قطاع المثقفين بقضاته وفقهائه وكتابه .

ولقد كان موقف هذا القطاع من القطاعات السابقة — موقف الرأس من الجسد ، فقد كان لرجاله نفوذ كبير على أفراد الشعب ، كما كانوا أيضا محل التكريم والتقدير من السلاطين والحكام ، وكانوا هم الزعماء والمصلحين ، يساعدون هذه القطاعات المختلفة على فهم حقوقها وواجباتها ، ويستعين بهم أولو الأمر من الحكام والسلاطين على اذكاء الروح المعنوية فى النفوس كلما هدد الأعداء البلاد ، أو نزلت بالشعب كارثة عظيمة .

وقوام هذا القطاع أبناء الشعب الذين التمسوا الثقافة فى أماكن وجودها ، التمسوها فى المساجد ، والتمسوها فى بيوت العلماء ، وأخيرا فى المدارس . فقد كانت مجالس العلم فى أوائل العصر الاسلامى فى المساجد ، وظلت كذلك فترة طويلة حتى اذا ما اتسعت دائرة المعرفة ، وتشعبت مواد الدراسة ، أحس الناس أن المناظرة والجدل — وهما من أسس الدراسة فى تلك العصور — قد يخرجان بالطلاب والأساتذة أحيانا عن الهدوء الواجب توفره فى أماكن العبادة حيث يحرص الانسان على أن يخلو لنفسه ، ويتفرغ لمناجاة ربه ، وهنا تبرز لنا الخطوة الثانية

فى سبيل نشأة المدارس فى الاسلام عندما خصص الأساتذة فى منازلهم قاعة يلتقون فيها بطلابهم ، يحاضرونهم ويناقشونهم .

ولما كثر عدد الطلاب وضاقت بهم تلك القاعات الخاصة فى منازل الأساتذة والعلماء ، أنشئت أماكن مستقلة للدراسة هى التى عرفت منذ العصور الوسطى بالمدارس ، وقد دخلت عندنا مع صلاح الدين الأيوبى ولم يقض ظهور « المدارس » المستقلة على حلقات العلم فى المساجد أو فى بيوت العلماء ، بل ظلت جميعا تؤدى وظيفتها جنبا الى جنب .

وقد انصرف هــذا الفريق من الشعب الى تحصيل العلم بحسب ظروف حياته ، فلم تكن موارد الثقافة فى ذلك الوقت معقدة كما هى الآن ، ولم يكن يشترط فى طالب الثقافة شروط قد تتوفر فى البعض ولا تتوفر فى البعض الآخر ، فلا « توجيهية » ولا « مجموع درجات » ولا « تنسيق » ولا « تفاضل » بين دراسة ودراسة ، جميع موارد المعرفة مفتوحة للجميع ، يغترف منها من يشاء بالقدر الذى يشاء ، دون أن يتكلف شيئا ، بل على العكس كانت الدولة ، فضلا عن أهل الخير من الأغنياء ، تعين على التفــرغ للتحصيل فتــوفر للطالب السكن ، والمأكل والمشرب والملبس ، وتفيض عليه بالخير فى المناسبات المختلفة فتصل اليه الهدايا بين ملبس ومأكل ، فتدخل عليه السرور ، وتزيد من رغبته فى التوفر على الدراسة والتفانى فى تحصيل الثقافة .

وفى الحق لقد تسابق الأمراء والسلاطين فى هذا العصر الى حبس الأعيان الكثيرة ، ورصد الأموال على التعليم ، وبســواء

كانوا فى ذلك مدفوعين بعامل من الايمان الصحيح ، والرغبة الخالصة فى عمل الخير ، أو كانوا مدفوعين بحب الظهور والمباهاة وحسن السمعة ، أو كانوا مدفوعين بالرغبة فى ستر مساوئهم وتغطية مظالمهم ، أو كانوا مدفوعين بكل هذه العوامل مجتمعة ، فقد أخذوا بيد طلبة العلم ، ووفروا لهم الحياة الكريمة ، وأفاضوا عليهم فى شتى المناسبات الخير والبركة .

وكانت الدراسات الأولية التى يتلقاها الطلبة فى ذلك الحين — القرن السابع بعد الهجرة — الثالث عشر الميلادى — تدور حول القرآن الكريم ، والدين الاسلامى ، واللغة العربية ، والخط ، والحساب . فاذا ما أتموا ذلك فى الكتاتيب التى كانت ملحقة بالمساجد ، وكانت جذوة التحصيل لا تزال متقدة فى نفوسهم ، انصرفوا الى دراسة الفقه ، وتخصصوا فى مذهب من مذاهبه الأربعة المعروفة (الحنفى — المالكى — الشافعى — الحنبلى) ، أو انصرفوا الى دراسة الطب ، أو الفلك ، أو التاريخ أو الهندسة أو الرياضة . وكان الأستاذ اذا ما ألقى درسه وانصرف أعاد « المعيد » للطلبة ما ألقاه الأستاذ حتى يحسنوا فهمه ويستوعبوه .

ولقد كانت فى مصر فى هذا العصر حركة علمية لا بأس بها ، ولكنها لا تسمو الى ما سمت اليه الحركة العلمية فى العصر الفاطمى فى مصر ، أو فى العصر العباسى الأول والعصر العباسى الثانى فى العراق ، وانما كانت تسير فى العصر الذى نتحدث عنه سيرا هينا ، لينا ، يعوزها الابتكار والعمق . فقد آثر الباحثون

حينئذ النقل والتعليق على ما أبدعه من جاء قبلهم من العلماء ، على أن ذلك لم يمنع من ظهور بعض الشخصيات العظيمة فى الفقه وفى الطب وفى البيطرة ، والأدب والجغرافيا والتاريخ نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : أبى الحسن على بن النفيس ، عميد مستشفى قلاوون ، الذى كشف عن نبض الدورة الدموية فى كتابه « شرح تشريح القانون » . ولكى ندرك مدى تقدمنا فى الطب فى ذلك الحين يكفى أن نذكر ان الأوربيين لم يكشفوا ذلك الذى توصل اليه ابن النفيس الا بعده بثلاثة قرون .

وشمس الدين بن خلكان المؤرخ المشهور ، صاحب « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان » . وهذا الكتاب ، كما نرى ، له عنوان مسجوع طويل ، وهو النمط الذى كان يحرص عليه مؤلفو ذلك العصر تمشيا مع الأسلوب الأدبى المتبع فى أيامهم . ويعد كتاب ابن خلكان هذا من أنفع المراجع التاريخية التى عنيت بالتراجم ، ولعل من أخص ما يمتاز به أن المؤلف قد قرأ كل ما كتبه المتقدمون فى الشخصية التى يحاول أن يؤرخ لها ، ثم هضم ما قرأ وتمثله جيدا ، ثم بدأ يكتبها بأسلوب رائع دقيق ، وكثيرا ما كان يدعم بحثه بذكر الروايات المختلفة فى الموضوع الواحد ، ثم يرجح من هذه الروايات ما يطمئن الى ترجيحه .

وقد انصرف معظم طلبة العلم فى ذلك العصر الى الدراسات الدينية ، فقد كانت هذه الدراسات هى الطريق الى وظائف الوزارة والقضاء والافتاء والحسبة وغيرها من الوظائف المدنية

الرئيسية فى الدولة ، وكانت الدولة تدر على من يشغلها الخير العميم ، وتجعله فى سعة من العيش . والواقع أن المماليك كانوا دائما فى حاجة الى سند يطمئنون اليه فى حكمهم ، ويستعينون به على الوصول الى قلوب الناس واستدرار محبتهم ، ولم يجدوا أفضل من العلماء وسيلة لذلك بحكم ما كان للدين ورجاله من قوة فى ذلك الزمن ، فأقبلوا على ارضاء العلماء وتيسير سبل العيش لهم ، وان كان المقريزى يحاول أن يفسر اقبال المماليك على العلماء واحترامهم لهم واغداق الخير عليهم ، بأن ذلك انما يرجع الى أن المماليك بواسطة العلماء قد « عرفوا دين الاسلام وفى بركتهم يعيشون » .

ولقد لقيت وظيفة القضاء دورا هاما فى حياة أجدادنا فى ذلك العصر ، فقد كان تعيينهم فيها أو عزلهم منها منوطا بارادة السلطان وحده ، وكان الشخص الذى يقع عليه الاختيار ليكون قاضيا يمثل بين يدى السلطان بالقلعة ، ويكتب له كاتب الانشاء أمرا (أو تقليدا) بتوليته القضاء ، يذكر فيه عادة الأسباب التى أدت الى اختياره ، والصفات الممتازة التى يتحلى بها ، وأهليته لهذا المنصب ، ثم يلى ذلك بعض الوصايا والنصائح التى يجب على هذا المرشح لوظيفة القضاء أن يتبعها حتى تتحقق على يديه العدالة والانصاف بين الناس . ويخلع عليه السلطان خلعة هذا المنصب (التشريف) وينزل بهذه الخلعة من القلعة فى موكب حافل .

ويختار القاضى لنفسه مكانا يجلس فيه للفصل فى الخصومات ،

وعادة يكون هـذا المكان المسـجد أو المدرسة فى الحى الذى يختاره . وكان له جند وأعوان يجلسون ببابه ويعاونونه على أداء وظيفته . وقد كان هو المتصرف الوحيد فى دائرته فى شئون القضاء ، فتعرض عليه جميع القضايا على اختلاف أنواعها سواء أكانت جنائية أم مدنية أم زوجية ، فكان ينظر فى عقود الزواج وما يتصل بها ، وفى البيع والاجارة ، وفى الوصية والوقف . وكان يقضى فيها بأحد المذاهب الأربعة . ولا ننسى أنه كان فى العصر الأيوبى (أى العصر الذى يسبق العصر الذى نتحدث عنه) يقضى بالمذهب الشافعى فقط ، أما الآن فقد كان يجلس للقضاء أربعة قضاة واحد من كل مذهب ، على أن القاضى الشافعى ظل له فى هذا العصر مكانة ممتازة عن زملائه ، اذ كان يقدم عليهم فى الخطابة والمبايعات والمحاكمات المختصة ببيت المال .

وليس هناك من شك فى أن التعدد فى القضاء فى هذا العصر الذى نتحدث عنه ، قد أفاد أجدادنا لأن الاقتصار على أحكام مذهب واحد كان فيه تضييق وتصعيب لحل ما يطرأ للناس من مشاكل ، ولكن هذا التعدد من جهة أخرى مهد طريق التحايل أمام المتقاضين ، وسوّف فى الفصل فى الخصومات بالانتقال من قاض الى قاض آخر .

ولقد كان للتقاضى فى ذلك الوقت أجور لا يحدد مقدارها قانون خاص — كما هو الحال الآن — بل يترك ذلك للقاضى نفسه ومعه أعوانه ، فهم الذين كانوا يحددون هذه الأجور وفق مشيئتهم . ولم تكن تلك الأجور أو الرسوم بلغتنا الحديثة تدفع

لخزانة الدولة ، بل كانت تذهب الى جيوب القضاة وأعوانهم .

بقيت كلمة موجزة عن المرأة ، فأين كان مركزها فى مجتمعنا فى ذلك الحين ؟؟ أما فى الريف فقد كانت — كما هى الآن — خير معين لزوجها فى حياته ، تحمل معه أعباء المعيشة ، وتقاسمه حلوها ومرها .

وأما فى المدن فكان الأمر جد مختلف ، اذ كان الرجل يرى فى ذلك الوقت انها انما خلقت لكى تظل فى بيتها يستفيد بها ويستمتع : تنجب له الأطفال ، وترعى مصالح الأسرة ، وتوفر لأفرادها الحياة الهانئة .

على أن ذلك لم يمنع من أن يكون هناك بعض من نساء المدن كن يقمن بالاشتغال بالعلم وبالأدب ، فكان منهن من تناظر الأدباء ومن تروى الشعر ومن اتجهت الى التصوف . وقد خصص المؤرخ « السخاوى » الجزء الثانى عشر من كتابه « الضوء اللامع » لتراجم نساء القرن التاسع الهجرى ، حيث ترجم لأكثر من ألف سيدة . ولئن كان استشهادنا هذا يبدو قلقا فى موضعه لأنه من عصر لاحق للعصر الذى نتحدث عنه ، الا أنه لا يبعد كثيرا عن هذا العصر وليس هناك من شك فى أن المرأة فى القرن التاسع لم تتغير عما كانت عليه فى القرن السابع والثامن .

أعداء الشعب
الصليبيّون

وبعد فان هذا الشعب الذى قدمنا له هذا العرض الموجز الذى نرجو أن يكون على ايجازه واضح المعالم ، كان مشغول البال فى ذلك العصر بخطرين عظيمين كانا يهددان أمنه وسلامته : خطر « الصليبيين » الذين كانوا لا يزالون رابضين فى بعض مدن الشام ، وخطر « المغول » الذين ذاع صيتهم فى الآفاق ، واشتهر عنهم ما كانوا يقومون به من تدمير ، وهدم ، ونهب ، وقتـــل فى شرق العالم الاسلامى ، بل وفى بلاد الشام نفسها عندما استولوا على بعض المدن هنالك .

ولم يكن خطر « الصليبيين » يؤرق شعبنا بنفس القدر الذى كان يؤرقهم به خطر المغول ، فلقد كان صلاح الدين الأيوبى قد نجح فى كسر شوكتهم ، وكانت « شجر الدر » آخـــر حكام بنى أيوب أو أول حكام المماليك قد نجحت بواسطة مماليـــك زوجها السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى أسر الملك « لويس التاسع » أو القديس لويس كما كان يسمى ، وكان الظاهر بيبرس قد استطاع أن يقلم أظفارهم . أما المغول فقد كانت الفرائص ترتعد عند ذكر اسمهم ، لا فى مصر وحدها بل فى العالم أجمع ،

من هول ما ارتكبوه فى حق الانسانية من جرائم منكرة تشيب، من هولها الولدان كما يقولون .

ترى من هم هؤلاء الصليبيون ، وهؤلاء المغول ؟؟

أما الصليبيون فهم أولئك المسيحيون الأوربيون الذين ستروا أطماعهم السياسية فى غزو الشرق تحت رداء زينوه بصورة الصليب ، ومن هنا عرفوا بالصليبيين ، وستروا هذه الأطماع كذلك تحت فيض من الحماس الدينى المفتعل الذى انبعث من أفواههم ، وتردد صداه فى أجواء أوربا ، « أن انقذوا بيت المقدس من أيدى المسلمين حتى نوفر لأهلنا ، وأبناء ديننا ، الأمن والطمأنينة ، عندما يحجون الى هذه المدينة المقدسة لزيارة قبر المسيح » .

وقد جاءت هذه الدعوة فى وقت ذاعت فيه فى أوربا شائعة تقول بأن السيد المسيح سوف يظهر فى بيت المقدس على رأس سنة ألف من التاريخ الميلادى ، الأمر الذى كان من نتائجه ازدياد عدد الحجاج الى بيت المقدس زيادة غير مألوفة .

وقد كان زعيم هذه الدعوة ، ومثيرها ، الراهب « بطرس » ، وأكبر معضد لها البابا « اوربان » الذى وعد كل من يشترك فى الحملة لانقاذ بيت المقدس بدخول الجنة ، وأذاع أن فى المساهمة فى هذه الحملة تكفير عن كل الذنوب ، وهكذا التهبت المواقف الدينية لمسيحى أوربا — وقد كان الدين يلعب فى حياتهم دورا هاما كما كان الحال فى الشرق تماما — واشتعلت حماستهم ، فخرجوا الى الشرق رجالا ونساء وأطفالا ، مدفوعين بالرغبة فى

الدخول فى الجنة وفى التكفير عن سالف ذنوبهم كما وعدهم البـــابا .

ولكن سرعان ما انكشفت النيات ، وأصبح الكثيرون من المتحمسين للدين عبيدا للشهوات والميول الدنيوية ، وارتكبوا من الشرور والآثام ما أثار عليهم المسيحيين أنفسهم فى البـــلاد التى مروا بها فى طريقهم الى بيت المقدس . ودب الحسد والبغضاء بين زعماء الصليبيين ، واقتتلوا فيما بينهم حتى قيل انهم فقدوا ثلاثمائة ألف نسمة قبل أن يخلصوا مدينة واحـــدة من أيدى المسلمين . ولقد كانت هذه المأساة سببا فى قيام حملات منظمة من مسيحى أوربا الى الشرق ، استطاعت أن تستولى على انطاكية ، الرها ، وبيت المقدس . وقد سالت الدماء أنهارا فى هذه المدينة المقدسة بفعلهم ، ولجأ اليهود الى معبدهم فأحرق عليهم فماتوا وسط اللهب ، وقتل من المسلمين ما يزيد عـــلى ســـبعين ألف لم تراع فيهم حرمة الشيوخ أو ضعف النساء والأطفال . ومن الغريب حقا انه بعد أن أشبع هؤلاء الصليبيون شهواتهم الوحشية ، تقدموا الى الحجر الذى يقال انه قد غطى به قبر المسيح يقبلونه ويتبركون به .

وقد ظل بيت المقدس فى يد الصليبيين مدة تقرب من ثمانيـــة وثمانين عام ، ثم استخلصه البطل صلاح الدين ، وشتان بين معاملة هذا الفاتح الشرقى عندما كتب الله له النصر ، وبين معاملة أولئك الغزاة الأوربيين عندما استولوا على المدينة .

وطبيعى أن يكون لعودة بيت المقدس الى أيدى المسلمين

صدى فى أوربا ، اذ وقع على الأوربيين وقوع الصاعقة ، فقام « بابا » آخر يبشر الناس بملكوت السموات ، ان هم ساهموا فى استعادة بيت المقدس كما بشر سلفه من قبل .

وهكذا استؤنفت الحروب الصليبية من جديد ، ونجح الصليبيون فى الاستيلاء على بعض المدن فى بلاد الشام ومصر (دمياط) ، لمدد اختلفت طولا وقصرا ، وعادت اليهم بيت المقدس لمدة خمسة عشر عاما فقط ، ثم أخرجوا منها وهم صاغرون ، كما جلوا عن المدن التى استولوا عليها فيما عدا « عكا » التى كانت آخر معقل لهم فى بلاد الشام ، وقد كانت مدينة كبيرة ، حصينة ، هرع اليها الفرنجة ، واتخذوا منها معقلا لهم يتحصنون منه ضد غزوات العرب ويستميتون فى الدفاع عنه ، وسوف نرى بعد قليل انها سقطت فى يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون — أخ محمد الذى نترجم له فى هذا الكتاب ، وبسقوط « عكا » انتهى خطر الصليبيين .

وقبل أن نمضى فى الحديث عن المغول ، مبعث القلق الرئيسى فى ذلك العصر ، نحب أن نقول ان هذه الحروب الصليبية التى أجملناها هنا اجمالا ، تكون فصلا من أهم الفصول فى التاريخ الانسانى ، فقد أيقظت أوربا من سباتها العميق ، وفتحت أعين أهلها على الشرق وحضارته وثروته ، وفتقت الأذهان هناك الى المعرفة فانصرفت الى البحث فى العلوم والآداب .

ولقد كان من نتائجها أن غيرت نظرة الأوربيين الى العرب ، فبعد أن كانوا يعتقدون أن هؤلاء العرب برابرة متأخرون ، رأوا

بأعينهم انهم أكثر حضارة منهم ، وأعلى قدرا فى سلم الرقى . لقد شاهدوا مدى خدمتهم فى الصناعة ، ورقيهم فى الفنون ، ورفاهيتهم فى المعيشة ، وعرفوا مقدار تقدمهم فى ميدان العلوم والآداب ، ولمسوا فى ميادين القتـال — حيث ينقلب الناس الى وحوش ضارية — سموا فى الخلق ، وترفعا عن الدنايا ، وشهامة تكاد تكون منعدمة النظير لديهم . ومن هنا بدأت غيرتهم من الشرق ، وظهر اهتمامهم بأمره ، وتربصوا به حتى اذا آنسوا منه ضعفا فى قيادته انقضوا عليه واستعمروه .

أعداء الشعب

المـــغول

وأما المغول أو التتار فقد كانوا قبائل تنزل فى هضبة منغوليا شمالا صحراء جوبى ، وتمتد بلادهم فى المنطقة الواقعة فى أواسط آسيا ، جنوبى سيبيريا ، وشمالى التبت ، وغربى منشوريا ؛ وشرقى التركستان .

وقد كانت حياتهم تقوم — أكثر ما تقوم — على الرعى ؛ فيتنقلون من مكان الى مكان سعيا وراء المراعى والأعشاب ، ويقضون أيامهم فى سلسلة لا تنتهى من الحـروب والغارات ، والمنازعات .

وعندما كانت تقسو عليهم الطبيعة فى أرضهم ، كانوا يغيرون على جيرانهم : على بلاد الصين ، وبلاد ايران وغيرهما من البلاد الغنية المحيطة بهم . ولقد وجدوا فى هذه الغارات متنفسا لنزعتهم الحربية ، وموردا لرزقهم عنـدما كانت تضيق عليهم سـبل العيش .

ولقد ظهرت فيهم شخصية فرضت شهرتها على التاريخ هى شخصية « جنكيزخان » الذى استطاع أن يجمع شـتاتهم ، ويلزمهم الطاعة له ، والخضوع لأمره . ولقد هز هـذا الزعيم

بفتوحاته أركان الأرض فيما بين الصين شرقا وبحر الادرياتيك غربا خلال القرن الثالث عشر بعد الميلاد . ولا حاجة بنا هنا الى أن نفصل القول فى هذا الرجل ، انما يكفينا أن نذكر أنه فى عهد حفيده « هولاكو » اتجه المغول الى القضاء على الخلافة العباسية فى بغداد ، بعد أن دانت لهم ايران التى كانت من أهم الدول التى تمثل العالم الاسلامى فى تلك المنطقة فى ذلك الوقت .

والواقع أن الخلافة العباسية كانت فى تلك الآونة قد وصلت الى حالة من الضعف يرثى لها ، وكان الخليفة الجالس على العرش « المستعصم بالله » رجلا لين العريكة ، ضعيف الشخصية ، قليل الخبرة بشئون مملكته ، ليست له فى النفوس تلك الهيبة التى كانت لأسلافه من قبل ، ويكفى لكى نتصور هذا الرجل أن نذكر أنه عندما عرف باقتراب المغول من ملكه لم يحرك ساكنا ، ولم يحاول أن يعمل لصدهم ، بل قال : « أنا ، بغداد تكفينى ، ولا يستكثرونها (أى المغول) علىّ اذا ما نزلت لهم عن باقى البلاد » .

لذلك لم يجد المغول مقاومة كبيرة عندما قدموا الى بغداد ، فسرعان ما وقعت فى أيديهم ، وسلم الخليفة نفسه وعاصمته بلا قيد ولا شرط ، وأمر « هولاكو » بهدم أسوار المدينة ، واستباحها لجنوده ، فأتوا على كل ما كان فيها من مساجد وقصور ، وقتلوا ، ونهبوا ، واستعملوا النارفى أحيائها المختلفة فضاعت بأعمالهم هذه ، بغداد ألف ليلة وليلة ، ولم يبق منها الا أطلال هنا وهناك .

وسقطت الخلافة العباسية التى عاشت أكثر من خمسة قرون ، ولعله من الطريف — لكى تتضح أكثر فى ذهن القارىء صورة هذا الخليفة ان نذكر هنا حادثة وقعت بين هذا الخليفة و « هولاكو » ، ذلك ان « هولاكو » أمر بسجن الخليفة بعد سقوط بغداد ، ومنع عنه الطعام ، فلما اشتد عليه ألم الجوع ، وكاد أن يهلك ، أخذ يتوسل الى حراسه أن يمدوه بما يسد رمقه ، فأمر « هولاكو » أن يحمل اليه صحفة مملوءة بالذهب وطلب اليه أن يأكل ما فيها ، ولكنه تعجب من ذلك وقال « لهولاكو » : كيف يمكن أكل الذهب ؟ فرد عليه « هولاكو » : اذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل فلماذا احتفظت به ، ولم توزعه على شعبك ، حتى يصونوا لك ملكك ؟

ومات هذا الخليفة غير مأسوف عليه ، وقد اختلف المؤرخون فى الطريقة التى انتهت بها حياته ، ولا تعنينا هنا هذه الطريقة فى كثير أو قليل .

وسقوط الخلافة العباسية على هذه الصورة التى أسلفنا عليها كان له أسوأ الأثر فى نفوس المسلمين جميعا ، اهتز له وجدانهم ، وانفعلت به مشاعرهم وأصابهم بسببه ذهول لأنه كان أبعد ما يكون عن خاطرهم ، وسرعان ما انقلب هذا الذهول الى حزن عميق ، يعتلج فى كل نفس ، ويأس قاتل يتردد فى كل قلب ، وكانت تأخذهم قشعريرة حين يذكرون هذه الحادثة ، يقول ابن الأثير المؤرخ العظيم فى تاريخه : « ولقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة ، استعظاما لها ، كارها لذكرها ،

فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ؟ ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمى لم تلدنى ، ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ! الى أن حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا ، فنقول : هذا الفعل يتضمن ذكرى الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها ، وعمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم والى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقابلها ولا ما يدانيها . ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببنى اسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس ، وما البيت المقدس بالنسبة الى ما خرّب هؤلاء الملاعين (أى المغول) من البلاد التى كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس ؟ وما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا ؟ فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى اسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة » .

وهكذا ذهب الناس يتحدثون فى هذا الخطب الجسيم فى كل مكان مرددين أن هؤلاء المغـول بلاء قد سـلطه الله عليهم ، ولن تستطيع قوة فى الأرض أن تهزمهم . ثم أخذوا يتساءلون ترى ماذا يكون مصير العالم الاسلامى بعد أن ذهبت عنـه الخلافة التى ظنوا انها باقية أبد الدهر ؟ وأين تكون الضربة القادمة التى سيضربها هذا العدو الغاشم بعد أن استولى على بغداد ؟ ان دور دمشق والقاهرة لاشك آت لا ريب فيه ، فهل

فى وسع هاتين العاصمتين أن يصدا هذا التيار الجارف ؟ أم ترى سيجرى عليهما ما جرى على أختهما بغداد من قبل ؟ أسئلة كانت تتردد على الألسنة ، يتناقش فيها الناس فى شتى بقاع العالم الاسلامى ، ويشتد فيها الأخذ والرد ، ولكنها لا تجد جوابا تطمئن اليه النفوس أو تسكن به الأفئدة .

وتقدم المغول بعد هذا النصر الذى أحرزوه فى العراق الى بلاد الشام ، وكان لقائدهم « هولاكو » زوجة مسيحية ، سهلت عليه سبيل التحالف مع ملك أرمينيه المسيحى ، وملك أنطاكية الصليبى . واستطاع « هولاكو » بمعاونة الأرمن والصليبيين أن يتقدم نحو حلب ، وأن يستولى عليها بعد مقاومة عنيفة ، ثم اندفع الى دمشق ، وقبل أن يصل الى أبوابها كانت أخبار انتصاره فى حلب ، وأخبار ما ارتكبه جنوده فيها من منكرات قد وصلت الى أهالى دمشق فرأوا من الحكمة أن يخرجوا للقاء « هولاكو »، وأن يحملوا اليه الهدايا المختلفة كما يحملوا أيضا مفاتيح دمشق ، فدخلها دخول الظافر دون اراقة دماء .

وأتمّ المغول بعد ذلك فتح معظم بلاد الشام حتى وصلوا الى مدينة « غزة » دون أن يلقوا مقاومة تذكر ، وبالقرب من هذه المدينة كانت المعجزة فى انتظارهم ، معجزة هزيمتهم على أيدى أجدادنا من المصريين . نعم لقد كانت حقا معجزة ، كانت هزيمتهم أمرا خارقا للمألوف فى ذلك الوقت ، فهم لم يذوقوا طعم الهزيمة بعد ، ولم يكن هناك أحد يتصور ان هذه القبائل المتوحشة التى دوخت العالم سوف تنهزم يوما ما ، ولكن هكذا شاءت الأقدار

أن ينتصر عليهم جيش مصر عند « غزة » بقيادة بيبرس البندقدارى الذى عرف فيما بعد « بالظاهر بيبرس » والذى يحمل « حى الظاهر » فى القاهرة اسمه .

ولم يسكر المصريون بخمر هذا النصر المبين ، بل أخـذوا يتقدمون الى عكا ، وهنا يتدخل القدر فى جانبهم اذ انحل التحالف الذى كان معقودا بين المغول من جهة وبين الأرمن والصليبيين من جهة أخرى ، وانقلبت تلك الصداقة التى كانت قائمة بينهم الى عداوة مريرة ، الأمر الذى سهّل على المصريين أن يتقـدموا بجيوشهم الى عكا بحذاء الشاطىء بفضل معاونة الصليبيين لهم . ويتدخل القدر مرة أخرى فى جانب مصر اذ اضطر « هولاكو » أن يعود الى بلاده بسبب حوادث وقعت بها تطلبت وجوده هناك ، وقد حل محله قائده العـام ، والتقى جيش المغول وعلى رأسه « كتبغا » بجيش المصريين وعلى رأسـه « الظـاهر بيبرس » عند موضع واقع بين مدينتى بيسان ونابلس يسمى « عين جالوت » . وكتب النصر لمصر ، وكانت هزيمة المغول أقسى وأمر من هزيمتهم عند « غزة » اذ أسر قائدهم « كتبغا » وسيق مكبلا بالأغلال الى « قطز » سلطان مصر فى ذلك الوقت ، وقد أمر بقطع رأسه والطواف بها فى البلاد .

وموقعة « عين جالوت » تعد فى الواقع من أهم وقائع تاريخ العالم الاسلامى كله ، لأنها كانت بمثابة سد منيع حال دون تقدم المغول الى مصر وما وراءها من بلاد العالم الاسلامى ، فبقيت معالم

الحضارة الاسلامية فى هذه البلاد تشهد العالم على ما كان لنا من مجد .

ولقد ارتفعت أهمية مصر بين بلاد العالم الاسلامى جميعا ، وتبوأت بحق مركز الزعامة بين هذه البلاد ، اذ كان ينظر اليها حينئذ على انها الدولة الوحيدة التى استطاعت أن تنقذ العالم الاسلامى من خطرين عظيمين ، هما خطر الصليبيين وخطر المغول . ومن هنا كانت أهميتها لكل من يتصدى لدراسة الحضارة الاسلامية لا سيما جانبها المادى الذى يتمثل فى الآثار والتحف ، فلدينا هنا سلسلة متصلة الحلقات من تراث العرب ، تنتظم كل العصور من عهد الراشدين حتى اليوم .

ولم يستطع المغول الصبر طويلا على هذه الهزيمة ، بل سرعان ما صمم « هولاكو » على أن ينتقم من مصر ويغسل عار هزيمة « عين جالوت » ، ويعيد الى الأذهان سمعة المغول فى الحرب ، تلك السمعة التى اهتزت اهتزازا شديدا على أيدى المصريين . ولكنه مات قبل أن يحقق هذه الآمال . وقد جاء بعده أخوه « تكودار » وهو أول من أسلم من المغول ، وكان قد شب على المسيحية تحت اسم نيقولا ، وتعمد فى صباه ، ثم دخل فى الاسلام عندما بلغ سن الرشد ، واتخذ لنفسه اسم « أحمد خان » وبذل جهده فى ادخال المغول فى الاسلام ، فأسلم الكثيرون منهم بالفعل ، وبعث هو الى السلطان قلاوون — والد محمد صاحب الترجمة — بنبأ اسلامه .

ومن الحق علينا هنا أن نقول ان الفضل فى دخول المغول

فى الاسلام يرجع الى الايرانيين الذين تحملوا وطأة الغزو المغولى وهو بعد فى عنفوانه ، ولاقوا على أيديهم الذل والهوان ، وعندما انتصر المسلمون على المغول فى واقعة « عين جالوت » ، وانتعشت بذلك النصر نفوس كل المسلمين فى الشرق وفى الغرب ، أقبل الايرانيون على حكامهم من المغول يشرحون لهم مزايا الاسلام وتعاليمه ، ويرغبونهم فى اعتناقه ، وقد كللت مساعيهم بالنجاح وأصبح الاسلام فيما بعد هو الدين الرسمى للمغول .

وقد وفدت طوائف كثيرة من المغول المسلمين الى بلادنا فى عصر الظاهر بيبرس بعد أن أصبح سلطانا على مصر لكى تعيش فيها فى كنفه ، وقد كانوا ينزلون فى حى الحسينية ، وقد أقبل أمراء المماليك على التزوج من بناتهم لما امتازوا به من جمال الخلقة ، وكان قلاوون — والد صاحب هذه الترجمة — من بين أولئك المماليك الذين تزوجوا من احدى بنات المغول .

إحياء الخلافة العباسيّة في مصر

هذه الصورة المصغرة لما كنا عليه أثناء العصر الذى نشأ فيه محمد بن قلاوون ، والتى نرجو أن تكون على صغرها ، واضحة المعالم ، لا غموض فيها ، فى هذه الصورة لا تزال هناك زاويتان لم نشر اليهما بعد ، ونحب الآن أن نكشف عنهما فى الصفحات الباقية من هذا القسم من الكتاب حتى تكون بذلك جميع نواحى حياتنا ماثلة فى أذهاننا ونحن مقبلون على استعراض حياة الناصر محمد بن قلاوون التى استطاعت أن تترك فى تاريخنا صفحات تنبعث من بين سطورها آيات العظمة .

أما الزاوية الأولى فهى ذلك الركن الذى كان يقبع فيه الخليفة العباسى فى بلدنا مصر ، فلقد عرفنا فيما قدمنا من صفحات قصة هذه الخلافة ، ورأينا كيف أسقط المغول الخليفة العباسى عن عرشه ثم أذاقوه الموت ، وقد سقطت بسقوطه وموته الخلافة العباسية ، سقطت ولكنها لم تمت فقد كان حرص المسلمين على احيائها عظيما ، ولم يكن بين أمرائهم وملوكهم — عند سقوطها — من يستطيع أن يقوم بهذا العبء الا مصر ، فقد كانت كما ذكرنا ، أقوى الدول الاسلامية جميعا ، وأعظمها شأنا ، وأعلاها قدرا ، لذلك نجد ان سلطانها « الظاهر بيبرس » قد أقدم على احياء الخلافة العباسية .

وقصة هذا الاحياء انما نستشفها من وراء نص منقوش على لوح من الرخام مثبت فوق المدخل الرئيسى لأثر عظيم خلّفه لنا هذا السلطان . هذا الأثر هو مسجد « الظاهر بيبرس » الذى يتوسط حى الظاهر ، ويطلق العامة عليه عادة اسم «مذبح الانجليز» اشارة الى أنه استعمل فى الحرب العالمية الأولى « مجزرا » للحيوانات التى كانت تقدم لجيش الاحتلال . ولكن رد اليه اعتباره الآن فأصلحته مصلحة الآثار وعلى الأصح أصلحت جانبا منه تؤدى فيه الشعائر الدينية أما الجزء الباقى فقد أصبح حديقة عامة .

وقد جاء فى هذا النص الطويل عبارات ثلاث هى بيت القصيد فيما نحن بصدده ، العبارة الأولى هى : « سلطان الاسلام والمسلمين » وهو لقب يشعر باعتقاد المسلمين — بعد أن هوت الخلافة العباسية فى بغداد على يد المغول — بضرورة وجود رئيس لهم ، يرعى شئونهم ، ويرجع اليه الفصل فى أمورهم ، وقد اتخذ بيبرس هذا اللقب عن جدارة فقد كان فعلا أقوى حكام عصره من المسلمين .

والعبارة الثانية هى : « الأمر بين الخليفتين » وهى تصور لنا أن قضاء المغول على الخلافة العباسية لم يكن بالأمر الهين الذى يسكت عليه المسلمون طويلا أو يسلمون فيه بالأمر الواقع ، فنفوسهم كانت متعلقة بأهداب الخلافة ، وكانوا يرون أن تنصيب الخليفة واجب ، اذا تركوه أثموا فى حق الدين . ولعل احساس الحكام بفقدان الخلافة كان أقوى من احساس المحكومين به ،

ذلك لأن الحكام قد فقدوا بفقدها قوة أدبية عظيمة ، كانوا يستمدون منها العون الأدبى على تثبيت أقدامهم على العروش التى اغتصبوها ، وكانت أيضا مظهرا خداعا بذلوا جهدهم فى الحصول عليه ذرا للرماد فى العيون ، حتى يقضوا على الطامعين فى ملك مصر ، وبددوا السحب التى كانت تحوم حول شرعية ملكهم ، لذلك كانوا يفكرون فى احيائها ، وقد خطا بيبرس الخطوة الأولى فى سبيل ذلك عندما استقدم الى مصر أحد فلول العباسيين ، واستقبله استقبالا شعبيا حافلا ، ومشى هو فى ركابه مع أمراء مملكته ، وبايعه بالخلافة وأمر رجاله أن يبايعوه ، وأحيا له عرش الخلافة الاسلامية من جديد ، وأجلسه عليه باسم « المستنصر » أول الخلفاء العباسيين فى مصر .

ولكن ما كاد يمضى على ذلك ثلاثة أشهر حتى أحس بيبرس بتدخل هذا الخليفة فى شئون الدولة ، فأوجس منه خيفة على عرشه ، وخشى من هذه الشخصية الدينية على نفوذه فى البلاد ، فعمل على التخلص منه بلباقة ، اذ جهز له جيشا يسترد به عرش الخلافة فى بغداد ، ولكن هذا الجيش تخلى عنه فى الطريق ، وخرج المغول على هذا الخليفة وحاشيته ، وقتلوهم عن آخرهم .

وعاودت فكرة احياء الخلافة العباسية ، الظاهر بيبرس من جديد ، فقد كان فى أمس الحاجة اليها لأنها ستجعل له مركزا ممتازا على ملوك العالم الاسلامى جميعا ، باعتباره حامى حمى الخلافة ، ولأنها أيضا تساعد على تثبيت قواعد عرشه ، فاستحضر شخصا آخر من فلول العباسيين ، وبايعه كما بايعه الأمراء بعد أن

اشترط عليه ألا يتدخل فى شئون الحكم فقبل ، ولم يعد الخليفة العباسى منذ ذلك الوقت الا دمية يحركها السلطان كيف شاء .

والعبارة الثالثة « قسيم أمير المؤمنين » تنطوى فى الحقيقة على خداع لجأ اليه بيبرس ، لأنه خشى أن يواجه الشعب بحقيقة مركز الخليفة فتسوء العاقبة ، فستر هذا المركز بتلك العبارة التى ليس فيها ظل من الحقيقة ، فلم يكن الخليفة قسيما للسلطان فى الحكم ولكنه كان مقيما فى القلعة كالسجين ، يمضى وقته فى العبادة أو فى زيارة العلماء ، ولا يظهر للشعب الا بأمر السلطان ، ويكون هذا عادة فى الأعياد والحفلات الرسمية .

ولكن ينبغى ألا ننسى انه مع كل ذلك كان هو الذى يمنح السلطان تفويضا يجعل حكمه شرعيا فى البلاد ، فهو من حيث المظهر أعلى من السلطان منزلة لأنه هو الذى يعينه ، ولكنه فى الحقيقة لم يكن الا واحدا من رعايا السلطان ، ان رضى عنه السلطان بقى فى مركزه وان غضب عليه عزل أو نفى .

وأما الزاوية الثانية التى لم نشر اليها بعد فى الصورة التى صورناها للعصر الذى نشأ فيه الناصر محمد بن قلاوون فهى الركن الذى كان يقوم فيه « المماليك » .

والواقع أن هـذه الزاوية ليس من اليسير أن نقدم لها

صورة صغيرة واضحة فى بضعة سطور ، ولذلك آثرنا أن نرسمها بوضوح فى الفصل الثالث ، وليس هذا الايثار ، فى الحقيقة ، بغير سبب ، فالسلطان قلاوون — والد الشخصية التى نترجم لها — كان من المماليك قبل أن يتربع على عرش مصر ، وقبل أن يرزق بولده محمد .

القسم الثانى

الناصر محمد بن قلاوون قبل السلطنة

١ — الرق وأثر الاسلام فيه .

٢ — المماليك .

٣ — قلاوون .

٤ — طفولة محمد بن قلاوون .

الرق وأثر الإسلام فيه

كان معظم رجال الحكومة ، ورجال الجيش فى العصر الذى ولد فيه الناصر محمد بن قلاوون من المماليك .

والمماليك هم العبيد الأرقاء الذين كانوا يشترون بالمال من أسواق الرقيق .

وتجارة الانسان فى الانسان كانت أمـرا مألوفا فى ذلك الزمان ، وكانت سبة فى جبين الحضارات جميعا ، وقد حاولت الحضارة الأوربية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن تمحو هذا العار ولكنها لم تنجح النجاح التام ، فلا يزال فى بعض البلاد أثر من الرق ، بل ان هذه الحضارة الراهنة التى يقال انها أسمى الحضارات الانسانية وأرقاها ، والتى نجحت الى حد كبير — كما ذكرنا — فى تحرير الانسان من الرق ، وردت اليه كرامته فى معظم بقاع العالم ، لم تستطع فى الواقع أن تتخلص الا من كلمة « الرق » أما حقيقته فلا تزال قائمة فى صور شتى . فاذا كانت هذه الحضارة الحديثة قد حرمت رسميا استرقاق الأفراد ، واتجار الانسان فى الانسان ، فقـد أباحت استرقاق الأمم للأمـم ، والاستعمار الذى هو الاسم الجديد للرق أو الصورة الصادقة له ، والذى لا يزال جاثما على أمم كثيرة خير شاهد على ذلك .

على أنه من الحق علينا فى هذا المجال أن نسجل لأجدادنا من

العرب بعد أن أشرق عليهم نور الاسلام موقفهم المشرف من الرق ومن الرقيق فى ذلك الوقت الذى سبقنا به الأمم جميعا فى محاولة القضاء على استعباد الانسان لأخيه الانسان ، واسترقاق الأقوياء للضعفاء . ذلك أن الرق قديم قدم الانسان على ظهر هـذه الأرض ، وجـد منـذ أن وجد القوى والضعيف من بنى الانسان ، فاسترق القـوى الضعيف ، وأخضعه لسلطانه لكى يحمل عنه عبء العمل المضنى فى سبيل لقمة العيش ، كما أنه استعمله فى مآربه الشخصية الأخرى .

واتسع نطاق الاسترقاق باتساع الحروب بين القبائل ، فقد أدرك المنتصرون أن الابقاء على الأسرى أفضل بكثير من قتلهم كما جرت العادة بذلك من قبل ، لأنهم اذا لم يقتلوا قاموا عند آسريهم بالخدمات المختلفة ، سـواء منها ما استلزمتها حاجات القبيلة ، أو تطلبتها حاجات الأفراد .

ولم تكن الحروب وحدها هى مصدر الرق ، بل كانت الفاقة أيضا من أسباب الاسترقاق ، فقد دفعت الفقراء من الناس — فى بعض البلاد — الى بيع أولادهم ، بل والى بيع أنفسهم فى بعض الأحيان ، تخلصا من الفقر ، وضمانا للحصول على لقمة العيش التى تقيم أودهم .

وقد فطن فريق من الناس الى ما للاسترقاق من قيمة اقتصادية فأقبلوا على خطف الصغار والكبار من بنى الانسان رجالا كانوا أو نساء ، ثم باعوهم بيع السلع فى الأسواق .

والأمم القديمة جميعا قد عرفت الرق ، وكانت له فيها أسواق

عامرة تباع فيها الجوارى والعبيد . وعندما جاء الاسلام كان الرق موجودا ، كما ذكرنا ، شائعا بين الأمم ، غربيها وشرقيها ، لا يرى الناس فيه بأسا ولا يستشعرون نحوه ألما ، بل كان منهم من عده نظاما طبيعيا وضروريا للمجتمع .

وقد كان معاملة الرقيق فى العصور القديمة غاية فى القسوة ، فالمشرع الرومانى كان يعرض للرقيق كما يعرض لسلعة من السلع ، اذا هفا هفوة صغيرة أنزل به أشد العقوبات ، هذا الى أنه اعتبر المولود من أمَة يتبع حالة أمه من حيث الرق .

والمشرع الاسرائيلى قد أباح لليهودى أن يستعبد يهوديا مثله لمدة لا تزيد على ست سنوات اذ جاء فى سفر الخروج : « اذا ابتعت عبدا عبرانيا فليخدمك ست سنين ، وفى السابعة يخرج حرا مجانا ، وان دخل وحده فليخرج وحده ، وان كان ذا زوج فليخرج زوجه معه ، وان زوجه مولاه بامرأة فولدت له بنين وبنات فالمرأة وأولادها يكونون لمولاه وهو يخرج وحده ، وان قال العبد قد أحببت مولاى وزوجى وبنى لا أخرج حرا ، يقدمه مولاه الى الله أو الى مصراع الباب أو قاعته ويثقب أذنه ، فيخدمه الى الأبد » .

ولقد حاولت الكنيسة المسيحية أن تحارب تجارة الرقيق ففرضت على من يشتغل بها عقوبة الحرمان ولكنها كانت تعتبر اقتراب الرجل من أمته زنى صريحا ، واذا أنجبت الأمة ولدا نشأ رقيقا يحمل عار والده الزانى ، وللزوجة الشرعية أن تبيع الأمَة أو تقصيها عن منزلها .

ولم ير الاسلام من الحكمة أن يلغى نظاما ألفته البشرية أجيالا طويلة ، واعتاده الناس فى حياتهم حتى امتزج بطباعهم ، ورسخ فى نفوسهم ، فلم يحرمه صراحة ، ولم ينه عنه فى وضوح ، لأنه أدرك بطبيعة النفس الانسانية التى لا تستجيب الى النهى فى يسر وسهولة ، ولا سيما اذا كان النهى عنه أمرا متصلا بنظام درجت عليه ، ووجدته ضروريا لها فى الحياة .

لذلك نرى الاسلام يعمل على أن ينفذ فى رفق الى أعماق النفس البشرية ، محاولا أن ينتزع منها جذور هذا الداء ، فبدأ بالحرب التى كانت أكبر مصادر الرقيق ، وخيّر الناس ، اذا ما وقع لهم عدد من الأسرى ، بين أن يمنوا على هؤلاء الأسرى بالحرية أو أن يقبلوا فيهم الفدية ، وضرب النبى الكريم محمد صلوات الله عليه المثل العملى لذلك عندما اتفق مع أسرى موقعة « بدر » على أن يشترى الأسير منهم حريته اذا هو قام بتعليم القراءة والكتابة لعشرة من المسلمين .

ولفت القرآن الكريم نظر الانسان الى ما أنعم الله به عليه من نعم عظيمة : عينان يبصر بهما ، ولسان يترجم به عن ضميره ، وشفتان يستعين بهما على النطق وعلى الأكل والشرب ، ثم هداه بعد ذلك الى طريقى الخير والشر . وأقل ما ينبغى على هـذا الانسان أمام هذه النعم هو أن يتقدم الى الله بالشكر عليها ، وأقصر طريق لهذا الشكر هو أن يحمل نفسه على أن يتخلص من الأثرة ، وحب الذات ، فيقبل على عتق الرقيق ، وعى اطعام اليتامى والمساكين .

وقد جعل الاسلام عتق الرقيق كفارة عن القتـــل الخطأ ، وكفارة عن الحنث فى اليمين ، وكفارة عن الافطار عمدا فى شهر رمضان . وهذه الأخطاء جميعا كثيرا ما يتورط فيها الانسان ، وجعل عتق الأرقاء كفارة لها من شأنه أن يزيد من الأحرار ويقلل من العبيد ، ويرد الى الانسان كرامته كانسان .

وأجاز الاسلام للأرقاء آن يشتروا حرياتهم من سادتهم نظير قدر من المال يدفعونه لهم ، ومن هنا كانت الدول الاسلامية فى العصور الوسطى ترصد فى ميزانيتها جانبا من مال الزكاة لمساعدة الرقيق على استرداد حرياتهم .

ولقد حث الاسلام على رعاية الرقيق ، وأوجب النبى محمد صلوات الله عليه حسن معاملتهم اذ يقول : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، اطعموهـــم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فما أحببتم فامسكوا ، وما كرهتم فبيعوا ، فان الله ملككم اياهم ، ولو شاء لملكهم اياكم» .

والى كل ما تقدم نجد أن الاسلام قد يسر على السادة عتق عبيدهم تيسيرا ليس بعده زيادة لمستزيد ، اذ يكفى للعتق أن ينطق به السيد ولو كان مازحا ، أو مكرها أو مخمورا .

والأمَة التى تنجب من سيدها ولدا تنتفى عنها صفة الرق وتصبح حرة لا يجوز لسيدها أن يبيعها أو يهبها ولا تورث لغيره بعد وفاته ، كما أن مولودها منه يصبح حرا كذلك ولا تجرى عليه قواعد الرق .

وهكذا حاول الاسلام أن يقضى على الرق ، ويكرّه الناس

فيه وفى تجارة الرقيق اذ يروى عن النبى الكريم انه قال : « شر الناس من باع الناس » ، وعمل على أن يقــلل من مساوئه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ولكن هل استجاب الناس لما ندبهم اليه الاسلام ؟

لا شك أن حدة الاسترقاق قد خفت عما كانت عليه قبل الاسلام ، ومساوئه قد قلت عن ذى قبل ، ولكنه ظل موجودا بين الناس ، ينعم بعضهم باسترقاق بعض ، وينسون قول عمر ابن الخطاب المعروف : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » .

المماليك

ولقد كان الخلفاء العباسيون أول من أكثر من شراء الرقيق من الجوارى والعبيد ، واتخذوا منهم خدما لهم وجندا ، أما الجوارى ، فكن يعملن فى القصـــور وكانت منهن المثقفــات والمغنيات والراقصات ، والخادمات ومنهن من اصطفاهن الخلفاء لأنفسهم فأنجبن لهم البنين والبنات . وأما العبيد فكانوا حرسا خاصا لهم يدفعون عنهم أذى أعدائهم من العرب وغير العرب ، كما كانوا جندا للدولة يذودون عن حوزتها .

ولقد كان الخليفة هرون الرشيد أول من غالى من الخلفاء العباسيين فى العناية بالجوارى عناية ملحوظة ، وكان ابنه الخليفة المعتصم أول من استكثر من شراء المماليك كثرة تستلفت النظر .

أما الرشيد فقد كان معظم أولاده أبناء اماء ، فعلى سبيل المثال نجد أن المأمون كانت أمه جارية فارسية ، ونجد أن المعتصم كانت أمه جارية تركية .

وأما المعتصم وكان يميل الى الأتراك بتأثير أمـــه التركية ، فقد أكثر من شرائهم من أسواق النخاسة كثرة حملته على أن ينشىء لهم مدينة خاصة هى « سر من رأى » أو سامرا (الى الشمال من بغداد) بعد أن ضايقوا الناس فى بغداد . ولقد استطاع هؤلاء المماليك الأتراك أن يضفوا النفوذ العربى والنفوذ الفارسى ، بل

وأن ينزعوا السلطة من أيدى الخلفاء أنفسهم ، وقد عاشت « سامرا » مدة خمسين عامـا أو تزيد قليلا عاصمة للخلافة العباسية ثم هجرها الخلفاء الى بغداد عاصمتهم الأولى .

وقد كان أحمـد بن طولون ، وهو ابن واحد من هؤلاء المماليك الأتراك — أول من جلب المماليك الى مصر واستخدمهم فى عسكرها .

وسار الفاطميون من بعده على نهجه ، فأكثروا بدورهم من استخدام المماليك ، كما سار الأيوبيون على نفس هذا النهج فاستعانوا بالمماليك فى حروبهم ضد أعدائهم من أقاربهم أو من الفرنجة الذين أصبحوا على مقربة منهم فى بلاد الشام ، وقد كان « الصالح نجم الدين أيوب » — آخر سلاطين الأيوبيين — أكثر سلاطين هذه الأسرة جميعا فى شراء المماليك وفى استخدامهم.

وكان أغلب هؤلاء المماليك يجلب الى مصر من شبه جزيرة القرم ، ومن بلاد القوقاز ومن فارس والتركستان ، ومن بلاد ما وراء النهر ، بل كان بعضهم أصلا من ضفاف بحر البلطيق ومن حوض الدانوب . ويقول البحـاثة « هايد » Heyd فى كتابه القيم عن «تاريخ التجارة فى الشرق فى العصور الوسطى» أن تجار الرقيق من الأوربيين كانوا يجلبون الى مصر كل عام نحو ألفين من المغـول والشراكسـة ، والروم ، والألبـانيين والصقالبة والصرب والأتراك .

وكان تجار الرقيق عادة لا يجلبون الى مصر ، فى أوائل العصر المملوكى ، الا المماليك الصغار الذين لم يكونوا مسلمين

ومن أصل مسلم ، لأن الرق لا يجرى على مسلم ، لكى ينشأوا فيها ، ويتعلموا لغتها ، ويألفوا جوها ، ويتعرفوا على أرضها ، ويتطبعوا بطباع أهلها .

وكان هؤلاء المماليك الصغار بعد أن يشتروا من أسواق النخاسة ، يوضعون فى قلعة الجبل حيث أعدت لهم ثكنات ، أو بتعبير ذلك العصر طباق ، كل طبقة تشتمل على عدة مساكن تتسع لألف مملوك ، وكان لهذه الطباق أسماء مختلفة ذكرها المؤرخون مثل طبقة الخازندار ، وطبقة الأربعين ، والطبقة البرانية وهكذا . وكانوا ينزلون فى هذه الطباق كل مع جنسه ، ويوضعون تحت رعاية موظفين يعنون بجميع شئونهم ، وكان لكل طائفة فقيه مصرى يحضر اليها كل يوم لكى يحفظها أجزاء من القرآن ، وآداب الشريعة والعبادات كما يعلمها الخط ، فاذا ما تقدم المملوك فى دراسته وفى سنه أخذ الفقيه يعلمه شيئا من الفقه .

والى جانب هذا التعليم النظرى كان المماليك يدربون على بعض التمرينات البدنية الخفيفة التى تتناسب مع سنهم الغض ، فاذا ما وصلوا الى سن البلوغ بدأت مرحلة جديدة فى تعليمهم تمتاز بنوع من التربية الجسمانية التى تتسم بالشدة ، اذ كانوا يقومون بتمرينات بدنية فيها شيء من العنف ، وكانوا يمرنون على السباحة وعلى الطعن بالرمح والضرب بالسيف والقذف بالطوق وركوب الخيل والمبارزة .وجميع أصول الفروسية وآدابها . وقد كان المعلمون فى هذا الدور من حياة المماليك ممن اشتهروا

باجادة فنون الفروسية ، وقد وصلت الينا من هذا العصر كتب قيمة فى أصول الفروسية وآدابها ومراحل تعلمها .

وقد كان محرما على المماليك فى هذه المرحلة من حياتهم أن ينزلوا من القلعة الى المدينة ، أو أن يختلطوا بالشعب أو أن يحاولوا الزواج من بناته . ويظل المماليك أرقاء يعيشون تلك المعيشة التى ذكرناها — معيشة الجنود فى المعسكرات — زمنا غير محدود ، ولا يبدأ دورهم يظهر على مسرح الحوادث عند زمن معين ، بل كان ذلك رهنـا بالحظ ، والاستعداد الشخصى للمملوك ، فاذا استطاع واحد منهم أن يبرز كفاءته ، وأن يثبت جدارته فى فن من الفنون الحربية ، كافأه السلطان على ذلك التفوق باخراجه من زمرة الأرقاء وادخاله فى زمرة الأحرار ، ومنح عندئذ اجازة « التخرج » التى تفيد انه انتهى من تعليمه ، وكان يطلق على هذه الاجازة اسم « عتاقة » .

ومتى أصبح المملوك حرا منحته الدولة الملابس التى تميزه عن غيره من الرقيق ، ومنح اقطاعا يعيش من دخله ، وتقاضى مرتبات أخرى مختلفة من بينها « النفقة » التى تمنح له قبيل تسيير الحملات الحربية ، لكى ينفق منها على تجهيز نفسه ، وقد تمنح « النفقة » أيضا عند تولية سلطان جديد أو ولى للعهد ، ومنها الجامكية أى الراتب الشهرى ، ويصرف عادة للمماليك السلطانية ، ومنها الكسوة التى كانت توزع عادة فى الصيف وفى الشتاء ومنها الأضاحى التى تمنح كل عام ، ومنها الرواتب اليومية

من اللحم والخبز والتوابل والعليق ، ويمنح المماليك السلطانية كذلك الخيول ، ومن مات فرسه عوضه بيت المال عنه .

وقد تسمو منزلة المملوك فيمنحه السلطان لقب الامارة ، وعندئذ يصبح طريقه الى وظائف الدولة الرئيسية ممهدا ميسورا.

وقد كان يقام للانعام بلقب الامارة على المماليك حفل خاص يرتدون فيه خلعة خاصة ، وينزلون من قلعة الجبل فى موكب حافل توقد فيه شوارع القاهرة ، ويسير الموكب الى المدرسة الصالحية (لا تزال موجودة حتى اليوم فى شارع المعز لدين الله أمام قبة قلاوون عند النحاسين) وفى قبة الصالح نجم الدين أيوب المجاورة للمدرسة سالفة الذكر وبجوار قبر هذا السلطان العظيم ، يحلفون يمين الطاعة ، ثم تمد بعد ذلك الموائد العظيمة لمن حضر وشارك فى الحفل ، ويخرج المماليك الذين رقوا الى رتبة الأمراء بعد ذلك من القبة الصالحية الى قلعة الجبل .

ولقد دخل على هذا الحفل — فى عصر الناصر الذى نؤرخ له فى هذا الكتاب — بعض التعديل الذى اقتضته الظروف حينئذ ، فجعلت المدرسة المنصورية التى أنشأها السلطان قلاوون هى مكان الاحتفال بدلا من المدرسة الصالحية ، وجعل حلف اليمين بجوار قبر السلطان المذكور بدلا من قبر السلطان الصالح نجم الدين ، وعند عودة الأمراء الجدد الى القلعة بعد حلف اليمين تكون شوارع القاهرة قد اجتمع فيها المغنيات ، فتزف الأمراء فى عودتهم الى القلعة ، وهناك يمثلون بين يدى السلطان ، ويقبلون الأرض ثم يتقدمون منه ويقبلون يده .

ومتى أصبح المملوك أميرا صار كأنه سلطان صغير له قصره، وله فرقته الموسيقية التى تدق على بابه فى المناسبات المختلفة ، وله حرسه الخاص المكون من مماليك قد اشتراهم بدوره من أسواق النخاسة ، ودربهم ، ومرنهم حتى أصبحوا جنودا وضباطا يلبون دعوته فى كل ما يريد ، ويدافعون عنه ضد كل اعتداء ، ويحيطون به اذا ما ذهب الى ساحة القتال .

وكان مماليك السلطان المتربع على العرش يتكونون عادة من مماليك السلاطين السابقين عليه ، ومن المماليك الذين اشتراهم هو وكان يدفع ثمنهم من بيت المال ، ومن مماليك الأمراء الذين يعزلون أو يتوفون .

وينبغى أن نشير هنا الى أن هذا الذى أجملناه عن نشأة المماليك فى مصر ، انما ينصرف الى ما كان متبعا من أوائل حكم المماليك الى نهاية عهد المماليك البحرية أو بعبارة أخرى حتى انقضاء العصر الأول من حكمهم ، أما بعد ذلك فنلاحظ أن هذه التقاليد والقواعد التى كانت متبعة فى تنشئتهم قد امتدت اليها عوامل الانحلال ، فلم تعد العناية بتعليمهم أو تثقيفهم كما كانت من قبل ، وأصبحوا يجلبون الى البلاد كبارا بعد أن تكونت أخلاقهم ، وتحددت طباعهم ، وكثيرا ما كانت طباع سوء ، ومن هنا كان شرهم على البلاد وبيلا .

ولعل أبلغ وصف لهم فى أواخر أيامهم هو ما قاله فيهم ابن تغرى بردى فى نجومه ، اذ يشير الى ضعفهم ، وعجرفتهم ، وعدم خبرتهم الحربية « والواحد منهم أنفه فى السماء ، ولا يهتدى

لمسك لجام الفرس ، ليس لهم صناعة الا نهب البضاعة ، يتعدون على الضعيف ، ويشرهون حتى فى الرغيف .. » .

* * *

ترى هل ننظر الى المماليك نظرتنا الى الدخلاء على البلاد ؟ وهل نعتبرهم أجانب عنا بالمعنى الذى نصوره فى أذهاننا كلمة « أجنبى » ، أم نعتبر أنهم مصريون بحكم كون معظمهم ولا سيما الأوائل منهم قد أدركوا سن التمييز وهم فى مصر ، وبحكم كونهم نشأوا فى هذه البـلاد ، وتعلموا فيها على أيدى معلمين من المصريين ، وتحدثوا بلغة أهلها ، واعتنقوا دين السواد الأعظم من السكان وهو الاسلام ؟

الواقع انهم فى اعتقادى أقرب ما يكونون الى أهل هذه البلاد التى وفد معظمهم اليها صغارا لا يعقلون شيئا ، والتى لم يعد لهم وطن سواها ، يحنون اليها اذا غابوا عنها ، ويجاهدون فى سبيل دفع الأعداء عنها اذا ما تعرضت للغزو ، ويحرصون على استقلالها، ويرفعون من شأنها بين الدول .

لا جدال فى أنهم منحدرون من أجناس شتى كما ذكرنا من قبل ، ولا جدال فى أنهم كانوا يعيشون بمعزل عن الشعب المصرى، ولم يندمجوا فيه اندماجا تاما ، بل حرصوا على أن يجعلوا لأنفسهم شخصية خاصة ، ويحتفظوا لطائفتهم بقطاع خاص من قطاعات الدولة ، وقصروا أعمال الجندية على أشخاصهم ، واشترطوا ألا ينخرط فى سلكها الا المماليك الذين يستوردون حديثا من أسواق الرقيق ، وحتى أبناؤهم من صلبهم ، الذين رزقوا بهم

فى مصر ، كان لا يسمح لهم بالدخول فى الجندية ، بل يعهد اليهم بالأعمال الادارية فى الحكومة .

كل هذا صحيح لا ريب فيه ، ولكنهم لم يعد لهـم وطن الا مصر ، وقد كانوا مستقلين بالبلاد استقلالا تاما ، لا تشوبه شائبة من التبعية ، كانوا مستقلين اقتصاديا وعسكريا ، وليس لأى سلطة خارجية نفوذ أو شبه نفوذ عليهم أو على البلاد التى حكموها ، ولذلك يكون من الظلم البين أن نعتبرهم أجانب عن المصريين .

قلاوون والد الناصر محمد

وقلاوون — والد الناصر محمد — واحد من هؤلاء المماليك ، أصله من أتراك أواسط آسيا من جنس القبجاق الذين استقروا بعد تجوالهم حول حوض نهر الفلجا فى جنوب الروسيا الحالية .

وقد جلب الى مصر وهو صغير اذ اشتراه الأمير علاء الدين أحد مماليك الملك العادل الأيوبى بألف دينار نظرا لما امتاز به من جمال ووجاهة فعرف من أجل ذلك بالألفى .

ولما مات أستاذه علاء الدين انتقل الى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب مع عدة مماليك آخرين عرفوا معا بالعلائية (نسبة الى علاء الدين) .

ظل قلاوون فى خدمة الصالح حتى توفى ثم انتقل الى خدمة غيره من أمراء المماليك البحرية أو بعبارة أدق فى خدمة الجيش المصرى حتى أيام السلطان الظاهر بيبرس .

وفى أيام الظاهر بيبرس تزوج بابنة أحد أمراء المماليك ، واحتفل السلطان الظاهر بهذا الزواج احتفالا كبيرا ، وقام بكل ما يتعلق بهذا الحفل من الولائم ، وتسابق الأمراء فى تقديم الهدايا الى قلاوون وكانت أعظمها هدية السلطان له التى كانت مكونة من الخيل والأقمشة وعشرة من المماليك ، وقد قبل قلاوون الهدية كلها فيما عدا « المماليك » فقد اعتذر عن قبولهم قائلا للسلطان :

« هؤلاء خوشدا شيتى (أى زملائى) فى خدمة السلطان » ، وقد قبل السلطان اعتذاره هذا وأعفاه من هذا الجزء من الهدية ، وأثنى عليه وعلى حصافة رأيه .

وفى عهد السلطان « العادل سلامش » (الابن الثـانى للسلطان الظاهر بيبرس) رقى قلاوون الى وظيفـة « اتابك العساكر » وبلغتنا الحديثة « قائد عام الجيش » فى ربيع الأول من سنة تسع وسبعين وستمائة (١٢٨٠ م) ، وصار اسمه يذكر مع اسم السلطان العادل على المنابر ، وتصرف تصرف الملوك مدة ثلاثة أشهر ، ثم اختير سلطانا على البلاد فى شـهر رجب من العام نفسه .

وقد وضع نصب عينيه القضاء على المغول الذين احتلوا بلاد الشام ، ولذلك نجد أنه بعد أن مضى على توليته أسبوع واحد سارع فعين ابنه « عليا » وليا للعهد حتى يتفرغ هو للسفر الى الشام لاخراج المغول منها . وركب « على » بشعار السلطنة ، ولقبه بالملك الصالح ، وشق موكبه القاهرة من باب النصر الى قلعة الجبل ، وخطب له على منابر مصر كلها بعد والده ، وكتب لبلاد الشام بذلك .

ولم يكد يمضى عليه فى الحكم سنتان حتى تزوج بزوجة جديدة هى أميرة مغولية تسمى « شلون خوندا » وكانت تعيش فى مصر مع والدها الذى وفد على البلاد فرارا من سخط ملوك المغول عليه ، وعاش هنا فى كنف السلطان الظاهر بيبرس موفور الكرامة ، ممتعا بكل ما كان ينعم به أمراء المماليك حينئذ من

حياة الترف والبــذخ . وفى يوم عرفة من سنة احــدى وثمانين وستمائة (١٢٨٢) ، احتفل بهذا الزواج احتفــالا باهرا فاق فى رونقه الاحتفال بزواجه السابق وصرف فيه الأموال الطائلة على حد قول المؤرخ ابن اياس .

وحدث فى أثناء هذا الحفل أن رأى « على » بن السلطان سيدة من المدعوات أعجب بجمالها غاية الاعجاب وفتن بحسنها الى أبعد حد ، ولكنه عندما عرف أنها متزوجة بأحد الأمراء (كتبغا المنصورى) كاد يهلك من الغم ، وعرف والده بالأمر فسعى لتطليق هــذه السيدة من زوجها ونجح هذا المسعى وتزوج بها « على » فى نفس هذا العام الذى تزوج فيه أبوه .

ولقد كانت سياسة قلاوون — مثل سياسة غيره من أمــراء المماليك سواء منهم من سبقه الى الحكم أو من كان له شــأن يذكر فى الحكومة — كانت تقوم على الاكثار من شراء المماليك ، اذ كان الاستقرار فى الحكم ، أو المحافظة على المركز فى ذلك الوقت انما يتوقف على كثرة الأتباع ، وكان المماليك يرون أن عرش البلاد انما يجب أن يتربع عليه أقــوى الأمراء وأكثرهم شجاعة ، وأعظمهم مهارة فى الحروب ، ولذلك كثيرا ما كان يغتصب العرش القائد العام للجيش بحكم ما كان له من نفوذ قوى فى الجيش اذا كان السلطان صغيرا وضعيفا ولم يشذ قلاوون عن هذه القاعدة ، ولم يخرج عن مألوف عصره فنراه يغتصب العرش من العادل سلامش (وقد كان صغير السن) عندما آنس فى نفسه القوة .

واستكثر قلاوون بدوره من شراء المماليك كثرة تستلفت النظر ، فقد بلغ عدد المماليك الذين اشتراهم نحو اثنى عشر ألفا وهو عدد لم يجمعه أحد من سلاطين مصر قبله كما يقول المقريزى.

وقد كانت عنايته بهؤلاء المماليك فائقة ، اذ كان يحرص على تفقد طعامهم بنفسه ، فيخرج الى رحبة القلعة عند موعد الطعام ، ويشاهده بنفسه ، ويتذوقه ، فاذا رأى به عيبا اشتد على المشرف على الطعام ونهره وعنفه ، وكان يهتم كذلك بأمر تثقيفهم وتربيتهم، حتى لقد عدّ المقريزى هذا من مفاخره اذ يقول : « لو لم يكن من محاسنه (أى قلاوون) الا تربية مماليكه ، وكف شرهم عن الناس لكفاه ذلك عند الله » .

ولقد كانت له فى نفس مماليكه هيبة حتى أن الواحد منهم ما كان يجسر أن يمزح مع زميله أمامه ، وما كان يستطيع واحد منهم أن ينهر خادمه (اذا أخطأ) وهو فى حضرته .

وفى السادس عشر شوال من سنة اثنتين وثمانين وستمائة توفيت زوجة السلطان الأولى التى رزق منها بولده « على » وكان لوفاتها رنة أسى فى نفس الزوج والولد .

ولقد حرص قلاوون ، كما حرص سلاطين المماليك الذين حكموا قبله ، على العمل على ارضاء زملائه القدامى من أمـــراء المماليك ، وسعى لاكتساب رضائهم عنه فكان يعنيهم فى وظائف الدولة بل لقد خلق لهم الكثير من الوظائف حتى يقتل فى نفوسهم دواعى الحقد عليه بعد أن نجح هو دونهم فى اغتصاب العرش والتربع عليه ، ومن هنا جاءت كثرة الوظائف فى البلاط الحكومى

كثرة تستلفت النظر ، وقد أكسبت هذا البلاط الشيء الكثير من الأبهة والروعة ، ومن أهم هذه الوظائف « الاستادار » وهو الذى كان يشرف على البيوت السلطانية [1] ، و «الخازندار» وهو الذى كان يحفظ ما يجلبه « الاستادار » من المؤن والأقمشة ، ويصرف منها على قدر الحاجة ، و « المهمندار » وهو الذى كان يستقبل السفراء وغيرهم ممن يفدون على السلطان و « الدوادار » وهو الذى كان يتولى أمر تبليغ الرسائل الى السلطان ويقدم له الأوراق للتوقيع عليها ، و « الجوكندار » وهو الذى كان يحمل العصوين اللذين يلعب بهما السلطان الكرة ، و «البندقدار» وهو الذى كان يحمل السهام للسلطان ، و « الجمدار » وهو الذى كان يشرف على ملابس السلطان ويعاونه فى لبسه (والمعنى الحرفى للفظ هو حامل المرآة) ، و « البشمقدار » وهو الذى كان يتولى أمر أحذية السلطان . و « الجمقدار » وهو الذى كان يحمل الدبوس أمام السلطان و « العلمدار » وهو الذى كان يتولى أمر الأعلام السلطانية ، و « السلاحدار » وهو الذى كان يتولى أمر الأسلحة ، و « الجاشنكير » وهو الذى كان يشرف على اعداد الأسمطة للسلطان ، و « الشرابدار » وهو الذى كان يشرف على أشربة السلطان .

على أن تدبير هذه الوظائف وابتكارها من أجل اكتساب

---

(١) كان أقبغا استدار الملك الناصر وهو صاحب المدرسة الأقبغاوية بالأزهر الشريف التى فيها مكتبة الجامعة الأزهرية .

رضاء المماليك كان له أثره فى بعض الأمراء ولكنه لم يؤثر فى البعض الآخر ، فكان يرضى منهم من يرضى ويغضب من يغضب، ومن هنا قامت الفتن والدسائس طوال عصر سلاطين المماليك جميعا ، لا نستطيع أن نستثنى منها عصرا دون عصر ، وقد أصبح الأمراء الناقمون مبعث القلق والاضطراب فى البلاد .

طفولة محمد بن قلاوون

عاشت « اشلون خاتون » مع زوجها قلاوون فى قلعة الجبل عيشة هانئة ، ولقد كان قصرها غاية فى الفخامة ، سقوفه مذهبة ، وجدرانه منمقة ، وأرضيته مرخمة بأحسن أنواع الرخام المستورد من مختلف البلاد ، ونوافذه قد سدت بشبابيك فيها الزجاج المختلف الألوان ، ونافورات تمج الماء من منافذها فتضفى على المكان سحرا حلالا وجمالا أخاذا ، هذا الى أثاث ورياش يوفر أسباب العيشة المترفة كما كانت فى ذلك العصر .

فى هذا القصر ، وفى منتصف المحرم من سنة أربع وثمانين وستمائة بعد الهجرة (١٢٨٥ م) بزغت شمس محمد بن قلاوون فى سماء مصر ، « وقد تباشرت بمولده الأسرة ، والمهور ، والسروج ، وأصبحت الممالك والحصون والقلاع تود لو ساهمت فى طالعه.. وسمى بمحمد لتفيض عليه أنوار بركة هذا الاسم الشريف ، ونعت بالناصر لأنه نعت حسن التعريف » كما يقول ابن عبد الظاهر فى كتابه تشريف الأيام والعصور فى قصة الملك المنصور .

ولقد وردت البشرى الى والده وهو يحارب الصليبيين فى « خربة اللصوص » بالقرب من دمشق ، فاستبشر الملك المنصور قلاوون بمولده ، وتيمن به ، وبلغ مقصده من فتح «حصن المرقب».

وليس هناك من شك فى أن الأفراح قد عمت قلعة الجبل ،

وتوافدت زوجات الأمراء على الوالدة يهنئـونها بمولودها ، وأغلب الظن أنه احتفل باليوم السابع (السبوع) على ما جرت به العادة فى البلاد احتفالا يليق بمكانة الوالد والوالدة والمولود .

ولنترك « محمدا » الآن هانئا فى لفائفه بين يدى « دادته » الست مسكة أو حدق (وقد أصبح لها فيما بعد شأن عظيم فى قصر الناصر) ، ومرضعته ، ووالدته « اشلون » لنلقى نظرة عابرة على ذلك العصر الذى قدر له فيه أن يرى النور .

الواقع أنه كان عصرا تسوده الفوضى فى داخل البـلاد ، وينقصه الوفاء والاخلاص بين أولى الأمر فيه : وفاء المماليك لبعضهم بعضاً ، واخلاصهم لسادتهم وأولياء نعمتهم . لقد كان الغدر والتآمر هو سدى هذه الحياة ولحمتها ، لقد نسوا — فى غمرة نزاعهم فى سبيل السلطة والنفوذ أهل البلد الذى أواهم ، وأطعمهم ، فكانوا ينهبون أموال الشعب ويسبون فى بعض الأحيان نساءه ، ويخطفون أطفاله .

ولكن على الرغم من هذه الفوضى الداخلية التى اكتوى بنارها أجدادنا فى العصر الذى ولد فيه محمد بن قلاوون ، وعلى الرغم من تلك الصورة القاتمة التى تبعث الحزن فى الفوائد كلما تصورنا حالتنا الداخلية فى ذلك الوقت ، ومن تلك الحياة التى كان يسودها القلق وتسيطر عليها المطامع الشخصية فقد كانت سمعتنا الخارجية غاية فى الرفعة . وكان يشرق فى سمائنا بين حين وآخر نجم ثاقب وسط تلك الظلمات يهتك بنوره حجب الفوضى ولو فترة قصيرة . فيطلع علينا سلاطين من هؤلاء المماليك يعلمون

على اسعاد الشعب ، وعلى توفير الأمن والطمأنينة له ، ومن هؤلاء النجوم هذا الطفل الذى نؤرخ له فى هذا الكتاب .

فلقد استطاع بعض هؤلاء المماليك أن يكتبوا فى تاريخ مصر، وفى تاريخ الانسانية عامة صفحات ذهبية تشع من بين سطورها آيات العظمة الفنية ، وتنطق بمقدار ما سمت اليه حضارتنا الاجتماعية فى ذلك الحين . ويكفى أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما قام بها والد « محمد » فى هذا المجال من أعمال جليلة كانت النبراس الذى أضاء لأوربا سبيل التقدم الاجتماعى، فقد حرص على تعليم الشعب فأنشأ المدرسة التى لا تزال بقاياها قائمة حتى اليوم ، وكان التعليم فيها بالمجان . وقد حرص على بناء الأجسام القوية ومحاربة المرض فأنشأ المستشفى العظيم الذى لا يزال يحمل اسمه حتى الآن والذى لم يكن مقصورا فى ذلك الوقت على طب العيون كما هو الآن بل كانت تعالج فيه الأمراض جميعا ، وكان كأحدث ما تكون عليه المستشفيات فى عصرنا الحاضر ، مع أنه أنشىء منذ سبعمائة عام فى وقت لم تكن فيه فكرة المستشفيات العامة قد عرفت . ولم يغفل جانب الوجدان فحرص على تصفية الذوق ، وتنمية حب الجمال بتلك القبة العظيمة التى شيدها ليكون فيها مثواه الأخير بعد وفاته اذ حرص على أن يجعل منها متحفا فنيا تتجلى فى كل ركن من أركانها وزاوية من زواياها ، آيات الفن الجميل التى ترهف الحس ، وتغذى النفس وتوسع أفق العقل بما تحوى من زخارف ونصوص كتابية.

وينبغى أن لا ننسى أن المدرسة والمستشفى يعدان فى الواقع

من مفاخر حضارتنا العربية التى سبقنا بها غيرنا من الحضارات .
وآوربا عندما نهضت نهضتها العظيمة فى القرن السادس عشر ، واتجهت الى هذه النواحى الانسانية انما اقتفت أثر أجدادنا واقتدت بهم ، ولعل خير ما يترجم عن سمو حضارة هؤلاء الأجداد فى العصور الوسطى عصور التعصب الأعمى للجنس ، وللدين ، وللطبقة الاجتماعية — هو تلك العبارة التى قالها قلاوون عند الفراغ من بناء مستشفاه هذا : « انى بنيته لوجه الله ، لمعالجة المرضى من جميع الطبقات والأجناس ، ممن هو مثلى أو دونى ، للغنى والفقير ، للحر والعبد ، للذكور والاناث » . لقد قالها منذ سبعمائة عام عندما كانت أوربا تسبح فى ظلمات الجهالة ، وتفتك بها الأمراض الجسمانية والاجتماعية .

ولنعد الآن الى « محمد » لنراه قد تجاوز دور الرضاعة ، وأخذ يسعى خلال قصر والده العظيم فى القلعة ، مستكشفا حجراته وأبهائه الكثيرة ، ناعما بحياة رغدة هنيئة ، محاطا بكل أسباب الرفاهية ، يشاهد الحراس هنا وهناك ، وهم يعظمونه ، ويحيونه كلما أقبل عليهم أو أدبر عنهم ، ويرى الأمراء فى ملابسهم الزاهية ، وأسلحتهم اللامعة وهم يحيونه فى غدوهم ورواحهم .

ولكن سحابة من الأسى كانت تخيم عليه بعض الأحيان ، وباعثا من الحزن كان يمس شفاف قلبه اذا ما نظر فى المرآة فلاحظ أن فى احدى عينيه حولا يجعله مختلفا عمن حوله من أبناء الأمراء والمماليك .

وعزم «قلاوون» على السفر ذات يوم الى بلاد الشام ، فخرج وفى صحبته ولداه « على » و « خليل » ، وبعد أن تناولوا طعامهم فاجأ المرض « عليا » بالليل فاضطر الى العودة الى قلعة الجبل آخر النهار ، واشتد عليه المرض ، وكثر اسهاله الدموى ، واضطر السلطان الى تأجيل سفره والعودة الى قلعة الجبل للبقاء بالقرب من ولده والاطمئنان على صحته وقد كان يحبه حبا عظيما ، ويؤثره على أخيه « خليل » ، الأمر الذى من أجـله انتشرت الشائعات بأن « خليل » قد دس السم « لعلى » لنقمته عليه ، والله أعلم بالحقيقة .

وأخذ « قلاوون » يكثر من الصدقات ، ومن التضرع الى الله ليكتب له الشفاء ، وبعث يستدعى بعض « رجال الصوفية » المعروفين بالصلاح والتقوى ليلتمسوا له الشفاء من الله ، وكان ممن استدعاهم الشيخ محمد المرجانى ، ولكنه رفض الحضور ، فبعث اليه بمبلغ من المال لكى يعمل « وقتا » أو بلغتنا الحديثة ليعمل للفقراء حفلة يذكرون فيها الله ، ويقرأون القرآن ، « ثم يطلبون ولد السلطان من الله » على حد قول المقريزى . فقال الشيخ المرجانى للرسول « سلم على السلطان ، وقل له متى رأيت فقيرا يطلب أحدا من الله ، فان فرغ أجله فو الله ما ينفعه أحد ، وان كانت فيه بقية فهو يعيش » ورد المال الى السلطان ولم يأخذ منه شيئا .

وبعث السلطان الى صوفى آخر يدعى الشيخ عمر أبى السعود ، فحضر اليه ، وطلب منه السلطان أن يدعو لولده « على » فقال

له الشيخ : « أنت رجل بخيل ما يهون عليك شيء ، ولو خرجت للفقراء عن شيء له صورة لعملوا « وقتا » وتوسلوا الى الله أن يهبهم ولدك لكان يتعافى » ، فأعطاه السلطان مبلغا كبيرا من المال عمل به « وقتا » ثم عاد الى السلطان وقال له « طيب خاطرك ، الفقراء كلهم سألوا الله ولدك وقد وهبه لهم » .

ولكن بعد ذلك مات « على » بعد أسبوعين وبضعة أيام من ذلك الحفل الذى أقامه الشيخ أبى السعود ، ورأى السلطان الشيخ بعد الوفاة فقال له : « يا شيخ عمر ! انت قلت ان الفقراء طلبوا ولدى من الله وانه وهبه لهم » فأجاب على الفور : « نعم ! الفقراء طلبوه ، ووهبهم اياه ألا يدخل جهنم ويدخله الجنة » . فسكت السلطان . ولقد سقنا هذه الحادثة للتدليل على مدى تغلغل الأفكار الدينية فى العقول فى ذلك الوقت ، يستوى فى ذلك عامة الشعب وخاصتهم .

وأصبح « محمد » ذات يوم وقد بلغ الثالثة من عمره فاذا فى القصر حركة غير عادية ونظر حوله فاذا آيات الحزن مرتسمة على وجوه كل من يصادفهم ، وأسرع الى أبيه لعله يجد عنده البشر والايناس كما كانت عادته كلما لقيه ، ولكنه رآه هو الآخر حزينا ، كاسف البال ، تنحدر الدموع من مقلتيه فى سكون ، وكانت هذه أول مرة يرى فيه والده باكيا ، فأخذ يسأل عن السبب حتى عرف أن أخاه الأكبر « على » قد مات .

ولقد كان حزن قلاوون على ولده هذا عظيما ، فقد كانت له فى نفسه مكانة ممتازة وكان يعلق عليه الآمال فى أنه سيحيى ذكراه

ويخلفه فى ملكه ، ولكن هكذا شاءت الأقدار . وحضر الناس للصلاة على « على » فى القلعة ، وكان السلطان وولده « خليل » من بين المقيمين لصلاة الجنازة وحملت الجثة الى خارج القلعة ، وصلى عليه مرة ثانية ثم دفن بمقبرة أمه قريبا من مشهد السيدة نفيسة ، وقد خلف وراءه ولدا واحدا هو « موسى » وكان له من العمر ثلاثون عاما .

وقد كان حزن الشعب عليه عميقا ، نظرا لما اتصف به من دماثة الخلق ورقة الحاشية ولكن السلطان — وهو يعلم بهذا الحب العظيم الذى كان يكنه الشعب لولده — قد أرسل كتب العزاء الى النواب بالممالك ورسم فيها ألا يقطع أحد شَعْرا ، ولا يلبس ثوب حداد ، ولا يغير زيه .

وبعد أسبوع من هذا الخطب الأليم فوض السلطان ولاية العهد لابنه الثانى الملك الأشرف « خليل » ، فركب بشعار السلطنة من قلعة الجبل الى باب النصر ، وعبر الى القاهرة وخرج من باب زويلة ثم صعد الى القلعة والأمراء يسيرون فى خدمته . وحلف القضاة له والجند وكتب بذلك الى سائر البلاد .

ولم يكد يمضى على وفاة « على » سنتان وبضعة أشهر حتى روع هذا الطفل الصغير بحادث جلل كان له أبعد الأثر فى حياته ، حادث ارتجت له أركان البلاد من أقصاها الى أقصاها ، وارتبكت شئون الدولة قليلا فى سيرها ثم عادت الى طريقها المرسوم ، ذلك أن أباه الذى خرج منذ بضعة أيام الى بلاد الشام لتأديب الصليبيين فى « عكا » عاد الى القلعة محمولا على الأكتاف فقد مات قبل

أن يبرح حـدود مصر ، وكان ذلك فى ليلة السبت السادس من ذى القعدة عام تسع وثمانين وستمائة (١٢٩٠ م) .

وأقيمت مراسم الحزن فى القصر ، وجهز الفقيد للقاء ربه ، فغسل ، وكفن ، ثم حمل فى موكب حافل الى مثواه الأخير تحت تلك القبة العظيمة التى شيدها والتى لا تزال تبعث فى زائرها الرهبة والخشوع .

وهكذا حرم « محمد » وهو لا يزال طفلا صغيرا من عطف الوالد ورعايته ، وحرم من الناصح الأمين الذى سيأخذ بيده فى مجاهل تلك الحياة المعقدة التى كان يحياها المماليك حينئذ ليصل به الى بر الأمان ، لقد فقد الشخص الذى كان عليه أن يبصره بطرق تلك الحياة المضطربة ، وشعابها الملتوية ، ويفتح ذهنه على ما فيها من مشكلات وصعاب ، ويسلحه بالخبرة التى اكتسبها هو مدى السبعين عاما التى عاشها ، ليتغلب على حقد المماليك ، ومكرهم ، وخداعهم اذا ما أصبح أمر البلاد بين يديه يوما من الأيام .

ولم يملك المسكين الا أن ينقلب الى أمه باكيا من هـول الصدمة ، فغمرته بعطفها وحنانها ، ولكن شتان أن تعوضه بحبها عن ذلك الحب المشوب بالنصح والتوجيه الذى فقـده الى غير رجعة .

وانصرف « محمد » الى دروسه ، وأقبل عليها ، وأغلب الظن أن تنشئته لم تكن تختلف كثيرا عن تنشئة غيره من أبناء المماليك ، وأن تثقيفه لم يكن مغـايرا لتثقيف غيره من أبنـاء

الطبقة المثقفة فى البلاد ، فتعلم القراءة والكتابة والحساب ، وحفظ القرآن أو بعضا من سوره ، ومارس من الألعـاب الرياضية ما يناسبه . ولنتركه نحن فى حزنه ، وفى تعليمه لنتابع الحوادث التى وقعت بعد وفاة والده ، وكان لها أثر واضح فى حياته .

فما كادت مراسم الحزن على وفاة « قلاوون » تنتهى حتى نودى فى صباح اليوم التالى بالأشرف « خليل » سلطانا على البلاد ، وطلب « خليل » الاطلاع على التقليد الذى صدر له بولاية العهد فأخرجه له القاضى فوجده من غير توقيع والده . وعندما سأل عن السبب أجاب القاضى انه قدمه مرارا للسلطان ولكنه كان يرفض التوقيع ويقول : « أنا ما أولى خليـلا على المسلمين » . فقال « خليل » على الفور : « ان السلطان امتنع أن يعطينى وقد أعطانى الله » وألقى بالتقليد .

والواقع أن السلطان الأشرف خليل كان يختلف عن والده وعن أخيه « على » اختلافا واضحا ، فقد كانت فيه غلظة وعنف كرهت الناس فيه ، وكان والده أول من يدرك ذلك فلم يشأ أن يوليه العهد حبا منه لشعبه ، ومن هنا جاء تردده بل وامتناعه عن التوقيع على مرسوم ولاية العهد . ولكن شاءت الأقدار أن يلى السلطنة ، واستبدلت مراسم الحزن على السلطان الراحل بمراسم الفرح والترحيب بالسلطان الجـديد ، ولكنه لم يكن فرحا نابعا من القلوب أو صادرا من أعماق النفوس كما كان الحزن على موت قلاوون ، فشتان بين الوالد والولد ، ففى حين كان الأول عطوفا ، شفيقا بأمرائه ورعيته ، كان الثانى متعجرفا

فى معاملة مماليكه ومن يتصلون به ، كانت فيه قسوة ، وفيه غطرسة ، وفيه كبرياء نفرت منه القلوب ، فخافه النـاس ولم يحبوه ، على أنه من الحق علينا أن نقول انه كان يلتقى مع أبيه قلاوون فى صفة واحدة هى اصراره على اخراج الصليبيين كافة من بلاد الشام ، ولذلك نراه ما يكاد يستقر على العرش حتى بادر بالخروج الى الشام لكى يتم ما أراده أبوه قبل وفاته وحالت المنية دون اتمامه ، وهو طرد الصليبيين من « عكا » .

ولقد استطاع « خليل » بالفعل أن يستولى على هذه المدينة فى سنة تسعين وستمائة (١٢٩١ م) ، وأن يؤدب أهلها أقسى تأديب ، فأمر بهدم حصونها ، وكنائسها اللاتينية التى شيدها الصليبيون ، ونقلت كثير من غنائم الحرب الى مصر ، وكان من بينها أحد المداخل الحجرية لواحدة من تلك الكنائس اللاتينية ، نقلت أحجاره جميعها ثم أعيـد تشييدها من جديد فى القـاهرة لتكون مدخلا للمدرسة الناصرية التى سنتحدث عنها فيما بعد .

وعاد السلطان « خليل » الى القاهرة يحمل أكاليل النصر ، وزينت له عاصمة ملكه أحسن زينة ، وسار موكبه فى الشوارع يسوق أمامه عددا كبيرا من أسرى الصليبيين مكبلين بالأغلال ، وفى أثرهم جنوده البواسل يحملون أعلام الأعداء منكسة ، كما يحملون أيضا رءوس من قتل من هؤلاء الأعداء على أسـنة رماحهم .

وهكذا وضع السلطان الأشرف خليل بشجاعته العظيمة خاتمة الحروب الصليبية التى استمرت قرنين من الزمان .

وما كاد يستريح قليلا من متاعب هذا الحفل العظيم حتى زفت اليه بشرى جديدة هى أن زوجته « اردكين » حامل ، وأن الجنين — حسب ما تنبأ به بعض العرافين — ذكر . فازدادت فرحة السلطان ، وتضاعف سروره لأنه سيصبح له وريث للعرش يرثه من بعده .

وأصدر السلطان أوامره بأن يصنع له فى دمشق مائة شمعدان من النحاس المكفت ، ينقش عليها اسمه وألقابه ، ويصنع كذلك مائة شمعدان أخرى نصفها من الذهب ونصفها من الفضـــة ، وألف شمعة ، وأشياء أخرى كثيرة غير هذه .

ولما اقترب موعد الوضع صدرت الأوامر بالاستعداد لاقامة حفل عظيم يلعب فيه الناس « القبق » ، ولكن الله لم يحقق نبوءة العرافين ، ولا حلم السلطان الذى أسعده فترة من الزمن ، فجاء المولود « بنتا » ، واغتم « خليل » لذلك ، واقبض صدره ولكنه آثر أن يخفى شعوره عن الشعب ، فأصدر الأوامر بالاستعداد للحفل لأنه يريد ختان أخيه « محمد » وابن أخيه « موسى » .

وقبل أن نمضى فى وصف هذا الحفل يحسن بنا أن نعرف شيئا عن « القبق » حتى نقف على جانب من حياتنا الرياضية فى تلك الأزمان . هذه اللعبة التى كانت شائعة فى عصر المماليك كان قوامها صاريا طويلا كان ينصب عادة خارج باب النصر ، ويجعل على رأسه « قرعة » أى قفص وكان يسمى بالتركية « القبق » ، وكان هذا القفص عادة من الذهب أو من الفضة ، ويوضع فى داخله طير الحمام ، ثم يأتى اللاعب ، وهو عادة يكون راكبا

فرسا ،ويصوب قذيفته الى القفص الموضوع فوق الصارى ، فاذا أصابه وطيّر منه الحمـــام اعتبر فائزا ، واستحق المكافأة ، ويصبح القفص من نصيبه ، وينعم السلطان عادة فى مثل هذه المناسبة بفرس على الفائز اذا كان من أمراء المماليك ، وينعم بخلعة اذا كان من عامة المماليك .

ونعود الى الحفل لنجد أن السلطان أصدر أوامره بأن يرتدى العساكر والأمراء ملابس الحرب كاملة ، وكذلك يلبسون خيولهم آلات السلاح الكامل حتى يبدو الحفل فى أبهى مظهر ، وقد استجاب الأمراء والجنود لهذا التوجيه فتأنقوا وتنافســوا فى اظهار التجمل . ونزل السلطان من قلعة الجبل بعساكره ، وعليه لباس الحرب كاملة ، وخرج سائر من فى مصر والقاهرة من الرجال والنساء والأطفال—الا من حالت الضرورة دونخروجه— لرؤية السلطان فى موكبه الحافل .

وبدأ لعب « القبق » ورسم السلطان للحجاب بأن لا يمنعوا أحـــدا من الجنـــد ولا من المماليك ولا من غيرهم من الاشتراك فى اللعب ، وتبـــارى الأمـــراء فى الرمى والسلطان معجب بهم حتى انتهى اللعب وفاز من فاز وعـــاد السلطان الى خيمتـــه ، ودار السقاة على الأمراء بأوانى الذهب والفضة والبللور يسقون الناس السكر المذاب ، وشرب الأجناد من أحواض ملئت من نفس هذا الشراب كان عدتها مائة حوض .

ولكن عند صفو الليالى يحدث الكدر كما يقولون ، فقد ثارت الطبيعة ثورة جامحة فأظلم الجو ، وقامت ريح عاصف قلعت

الخيام وألقت بخيمة السلطان ، فجرى الى القلعة يريد النجاة بنفسه ، ولحق به الأمراء والعسكر ، واختلط الحابل بالنابل وظن الناس أن الساعة قد قامت . ثم أصبح الصباح وسكنت الريح ، وطلعت الشمس وصفا الجـو وكأن ما كان لم يكن . واستدعى السلطان الى القلعة سائر أرباب الملاهى والمغانى ، واجتمع عدد كبير من الأمراء وأخذوا يتبارون فى الرقص ؛ ثم بدأت عملية الختان ، ولما انتهت أخذ الأمراء يرمون الذهب لأجل النقوط ، فمنهم من رمى مائة دينار ، ومنهـم من رمى خمسين دينارا . وأنعم السلطان على كل أمير من الأمراء بفرش كامل من القماش وألبسه خلعة جميلة ، كما أنعم على مغنى الحفل وكان يدعى « البلبيل » أو البلبل الصغير بألف دينار .

ولكى تتصور عظم هذا الحفل نثبت هنا — نقـلا عن المؤرخين — ما تطلبه من لحوم (٣٠٠ رأس من الغنم و ٦٠٠ رأس من البقر) وما تطلبه من السكر (١٦٠٠ قنطار برسـم الشربات و ١٦٠ قنطارا برسم الحلوى) وما تطلبه من نفقات فى عمل السماط والثياب وغيرها (٣٠٠ ألف دينار) .

ولم تطل مدة حكم الأشرف « خليل » أكثر من ثلاث سنوات وشهرين وأربعة أيام ، فقد كان بينه وبين أمراء المماليك حب مفقود بسبب غطرسته ، وكانوا يتحينون الفرصة لكى يتخلصوا منه ، ولكنه كان قوى البطش ، لا يعبأ بالتحرز لنفسه لفرط شجاعته ، وجمهور الناس — كما يقول ابن تغرى بردى فى نجومه — على

أنه « كان أشجع ملوك الترك (أى المماليك) قديما وحديثا بلا مدافعة » .

ولكن يؤتى الحذر من مأمنه — كما يقولون — فقد خرج ذات يوم للصيد ، وفيما هو يلهو انقض عليه بعض أمرائه وبطانته على رأسهم الأمير « بيدرا » وقتلوه وله من العمر ثلاثون عاما . وقد قبض على بعض هؤلاء المتآمرين ومن بينهم « بيدرا » الذى قال عندما سئل عن سبب قتله للسلطان ، انه انما فعل ذلك بمشورة الأمراء ، نظرا لما اتصف به الأشرف من مساوىء ومخازى ، وانه كان يستهتر بالأمراء ويحتقر مماليك أبيه ، ويهمل أمور المسلمين، وقد نفر منه الأمراء لقلة دينه وشربه الخمر فى رمضان ، وقد تعاظم أمره فى أواخر أيامه وصار لا يكتب اسمه وانما يكتب حرف «خ» اشارة الى أول حروف اسمه .

وبقيت جثة السلطان ملقاة على الثرى بينما عاد « بيدرا » الى الخيمة السلطانية ، وجلس فى صدرها وقام الأمراء الذين كانوا معه فقبلوا الأرض بين يديه ، وحلفوا له ، وتلقب بالملك « الأوحد » وقيل « المعظم » وقيل « القاهر » .

ولكن فريقا كبيرا من الأمراء لم يقروا ما وقع فى خيمة السلطان ، ولم يوافقوا على سلطنة « بيدرا » . ووقعت فتنة بين المماليك قتل فيها « بيدرا » وحملت رأسه على رمح ، وبعث بها الى قلعة الجبل ، ثم طيف بها فى القاهرة ومصر . ولقد وجد فى جيبه ورقة مكتوب فيها فتوى استند اليها فى قتله للأشرف خليل اذ جاء فيها « ما يقول الفقهاء فى رجل يشرب الخمر فى

رمضان ، ويفسق بالمردان ، ولا يصلى فهل على قاتله ذنب أم لا ؟ » وكان الجواب على هذه الفتوى هو « يقتل ولا اثم على قاتله » .

أما جثة السلطان خليل فقد بقيت ملقاة على الأرض سحابة يومين ، حتى تقدم قروى رآها فواراها التراب ، ثم نقلت بعد ذلك الى قبته بظاهر القاهرة ، وهكذا أصبح الطريق الى عرش السلطنة فى مصر مفتوحا أمام « محمد بن قلاوون » .

القسم الثالث

الناصر محمد بن قلاوون
في
سلطنته الأولى

١ — اختيار محمد سلطانا .

٢ — اغتصاب « كتبغا » للملك .

٣ — اغتصاب « لاجين » للملك .

اختيار محمد سلطانا

لم يكن الطريق الى العرش أمام « محمد بن قلاوون » مفروشا بالورد ، ممهدا لا تعترضه العقبات كما كان الحال أمام أخيه « خليل » . ذلك لأن « خليل » فى الواقع لم يصل الى عرش أبيه بحكم قانون الوراثة كما قد يتبادر الى الذهن ، ولكنه وصل اليه بقوة شخصيته . وقد تكون المصادفة وحدها هى التى جعلت مسألة الوراثة تقترن بتوليته العرش ، وقد يكون قانون الوراثة هذا من العوامل التى ساعدت على أن يرتقى العرش دون معارضة قوية ، على أنه — فى ظنى — لم يكن قط عاملا فعالا ، لأن أمراء المماليك ، كطائفة ، لم يكونوا من المتحمسين لمبدأ الوراثة أو ممن يقيمون له وزنا كبيرا ، ولكنهم ، كأفراد ، كانوا من غير شك يفضلونه بدليل أن السلطان « خليل » نفسه كان يتوق من أعماق نفسه الى أن يكون له ولد يرث العرش من بعده.

وليس من المستبعد أن تكون نشأة المماليك والطريقة التى وصلوا بها الى الحكم ، هى الدافع القوى لعدم احترامهم لقانون الوراثة ، فهم ، كما نعلم ، قد فصلوا عن أمهاتهم وآبائهم وهم صغار ، فحرموا بذلك من حياة الأسرة ، ولم ينعموا بما يكون فيها عادة من العواطف الانسانية النبيلة ، ولم يتأثروا بما يكون فيها من روابط الألفة التى تربط بين أفرادها وأواصر المحبة التى

تشدهم بعضهم الى بعض ، وبيعوا فى أسواق النخاسة ، وانتهت بهم الحيـــاة الى معسكرات يعيشون فيها مع زملائه يتقاســـمون واياهم هذه المعيشة ، ومن هنا جاء اعتقادهم أنهم جميعا زملاء متساوون لهم نفس الحقوق ، وعليهم نفس الواجبات ، والجلوس على العرش من حقهم جميعا ، وهم جميعا أمامه سواء ، لا يتربع عليه الا من كان أقواهم شخصية ، وأمهرهم فى القتال ، ومن هنا كان هذا المبدأ ، لا مبدأ الوراثة ، هو الذى أوصل « خليل » الى عرش السلطة ، وصل اليه بحكم شخصيته القوية ، وشجاعته المعروفة .

ولم تكن شخصية « محمد بن قلاوون » قد تكونت بعد ، فهو لا يزال صغيرا فى التاسعة من عمره ، ولم يكن له على الأمراء نفوذ كبير كنفوذ أخيه « خليل » ، الا أن يكون هذا النفوذ أدبيا بحكم انه ابن سيدهم ، نفوذ يؤمن به البعض ، ويكفر به البعض .

فليس غريبا اذن أن يبدأ التنافس بين أمراء المماليك على الوصول الى العرش بعد مقتل السلطان « خليل » ، وقد رأينا بالفعل الفتنة التى قامت بعد مقتل خليل وقتل فيها الأمير « بيدرا » الذى أراد أن يتربع على العرش .

والواقع أنه لم يكن بين هؤلاء الأمراء المتنافسين من رزق شخصية قوية تفــرض احترامها على الآخــرين ، لذلك طالت المناقشات بدون جدوى ، وقد انتهى الأمراء بعد أن أعياهم الأخذ والرد الى اختيار « محمد » سلطانا عليهم ، ولم يكن مرد هذا الاختيار الى اعتقادهم بأحقيته فى عرش أبيه ولكن — أغلب

الظن — كان حلا مؤقتا ، رضى به الأمراء لأنهم يخرجون به من الأزمة التى أوقعهم فيها مقتل « خليل بن قلاوون » . وأغلب الظن أيضا أن كلا منهم كان يضمر فى نفسه اغتصاب العرش من السلطان الصغير متى سنحت له الفرصة واستطاع أن يتغلب على الأمراء الذين يقفون فى سبيله ، ويحولون دون تحقيق هـذا الهدف .

وجلس الناصر على العرش فى السادس عشر من المحرم من سنة ثلاث وتسعين وستمائة بعد الهجرة (١٢٩٣ م) وكان له من العمر تسع سنوات ، واختير الأمير « كتبغا » نائبا للسلطنة ، والأمير سنجر الشجاعى وزيرا ، والأمـير بيبرس الجاشنكير استادارا ، وحلف العسكر على ذلك وأصبح الأمير « كتبغا » هو القائم بجميع أمور الدولة وليس للناصر من السلطة الا اسم الملك .

وتلافيا لما قد يحدث فى بلاد الشام من القلاقل رأى كتبغا بتدبير الشجاعى أن يرسل الى نائب الشام — قبل أن يبلغه خبر مقتل السلطان خليل — كتابا على لسان السلطان خليل يتضمن اختيار « الناصر » وليا لعهده ويطلب فيه أخذ البيعة له ، وذكر اسمه مع اسم السلطان الأشرف خليل فى الخطبة ، وقد جاء فى ذلك الكتاب « انا قد استنبنا أخانا الملك الناصر محمد ، وجعلناه ولى عهدنا حتى اذا توجهنا الى لقاء عدو يكون لنا من يخلفنا » .

وظلت الحال كذلك مدة ثلاثة أشهر ثم وصل الى نائب الشام

خبر مقتل السلطان خليل واختيار الناصر مكانه وطلب اليه الاقتصار فى الخطبة على اسم « الناصر » وحده .

ولقد كان أول عمل قامت به هذه الحكومة هو التحقيق فى مقتل السلطان « خليل » ، وقد قبض بالفعل على كثير من المماليك ممن اتهموا بالاشتراك فى ارتكاب هـــذه الجريمة ، وقد ساروا بالمتهمين بعد أن قطعوا أيديهم ، وسمروا على الجمال وأيديهم معلقة فى أعناقهم ، ورأس الأمير « بيدرا » محمولة على رمح ، فى وسط القـــاهرة ، ومروا على أبواب دورهم ، ولما مروا بدار علاء الدين الطنبغا (أحد المتهمين) خرجت جواريه حاسرات الرءوس يلطمن ومعهن أولاده وغلمانه قد شقوا الثياب ، وعظم صياحهم ، وكانت زوجته بأعلى الدار فهمت بالقاء نفسها لتقع عليه ، ولكن أمسك بها جواريها وهى تقول : ليتنى فداك ، وقطعت شعرها وألقت به عليه ، فتهالك الناس من كثرة البكاء . أما جوارى الأشرف خليل ، فقد لبسن الحداد ، وطفن فى الشوارع نائحات .

على أن واحدا من المشتركين فى قتل الأشرف هو « لاجين » استطاع أن يهرب ، ويقال أن الأمير « كتبغا » نائب السلطنة قد تستر عليه بسبب ما كان بينهما من صلات المحبة والصداقة .

ولم يدم الصفاء طويلا بين « كتبغا » و « سنجر » ، بل سرعان ما سعى أهل السوء بينهما بالوقيعة ، وبلغ « كتبغا » أن « سنجر » يكيد له ، ويدبر لقتله لكى يستأثر بالسلطة كلها .

وقام النزاع سافرا بينهما ، وبعث « كتبغا » الى السلطان

الناصر يطلب اليه أن يستدعى « سنجر » اليه لأنه قد انفرد برأيه فى القبض على الأمراء ، ولا بد من حضوره لمحاسبته على ما قدمت يداه « فقد بلغنا عنه ما أنكرناه » . وبعث السلطان الى سنجر يستدعيه ولكنه لم يستجب لطلب السلطان ، وامتنع عن الحضور خوفا على حياته ، فحاصر « كتبغا » القلعة ، وقطع عنها الماء ، واندلعت ألسنة حرب أهلية بين جنود سنجر وجنود كتبغا ، وخرج « الناصر » الى أحد أبراج القلعة يستطلع الأمر ، وما كاد الأمراء يرونه حتى نزلوا عن خيولهم ، وقبلوا الأرض بين يديه ، وقالوا له : « نحن مماليك السلطان ، ولم نخلع يدا من طاعته ، وما قصدنا الا حفظ نظام الدولة ، واتفاق الكلمة وازالة الفساد » .

واستمر الحصار سبعة أيام ، تكرر فيها القتال بين أنصار سنجر وأنصار كتبغا ، ولما ضاقت حلقاته خرجت أم الناصر الى السور وسألت الأمراء عن غرضهم من هذا الحصار فقالوا لها : « ما لنا غرض الا القبض على سنجر الشجاعى واخماد الفتنة ، ولو بقى من بيت أستاذنا (أى قلاوون) بنت عمياء كنا مماليكها لا سيما وولده الملك الناصر حاضر وفيه الكفاية » .

وضعف موقف سنجر عندما انضم عدد من رجاله الى رجال « كتبغا » ، فطلب الأمان ولكن الأمراء أبوا عليه ذلك ، فاحتال حتى دخل الى السلطان وقال له السلطان « يا عمى ايش آخر هذا الحال الذى أنتم فيه » ، فأجابه : « هذا كله من أجلك يا ابن أستاذنا ، فهم (يقصد مماليك كتبغا) قصدوا أن يخلعوك من

السلطة ويمسكونى أنا » . فقال له السلطان : « اتركنى أعمل شيئا يثقوا به مطمئنين وأنا معكم ، ورأيى انك تروح وتقعد فى مكان بالقلعة ، ونرسل الى الأمراء لكى يطلعوا ، ثم أحاول أن أوفق بينكم ، ونعطيك الشام تروح اليها وتستريح منهم » .

ولكن « سنجر » لم يوافق على ذلك وخــرج من حضرة السلطان يلتمس قصره ، فخرج عليه بعض رجال «كتبغا» وقتلوه . وطلع « كتبغا » والأمراء الذين معه الى القلعة ، ونودى بالأمان ، وأمر بفتح أبواب القاهرة وكانت كلها مغلقة الا باب زويلة ، ورسم كذلك بفتح الأسواق وكانت قد أغلقت منذ بدأت الفتنة .

ورفعت رأس « سنجر » على رمح فوق أسوار القلعة ثم نزلوا بها الى القاهرة ، وطاف بها المشاعلية فى الشوارع ، وحصلوا من وراء ذلك على مال كثير من أولئك الذين كانوا يبغضون « سنجر الشجاعى » أشد البغض ، اذ يقال انهم كانوا يأخذون رأسه من المشاعلية ويدخلون به الى داخل منازلهم حيث يتنافس النساء والرجال فى ضرب الرأس ، بل وينزلون بها ما هو أقسى من الضرب وأقذر ، وكان لكل عمل من هذه الأعمال القذرة قدر معلوم من المال يدفع الى المشاعلية ، الأمــر الذى أجــرى المال الكثير بين أيديهم .

ولقد عبر الشعر عن تلك الكراهية التى آكنها النــاس لهذا الأمير أحسن تعبير ، اذ قال أحد الشعراء :

عند الشجاعى أنواع منوعة   من العذاب فلا ترحمــه بالله
لم تغن عنه ذنوب قد تحملها   من العباد ولا مال ولا جاه

وقال آخر :

تنبــه يا وزير الأرض واعلم   بأنك قد وطئت على الأفاعى
وكن بالله معتصـــما فانى   أخاف عليك من نهش الشجاعى

وبعد أن هدأت الفتنة ، وعادت الأمور الى نصابها رســم « كتبغا » باخراج مماليك السلطان خليل من القلعة واسكانهم فى مناظر الكبش الذى ذكرناها من قبل ، ذلك لأنه قد اعتقد أن لهم يدا فيما وقع بينه وبين الشجاعى .

ثم حلف الأمراء للسلطان « الناصر » ونائبه وولى عهــده « كتبغا » ودعى لهما فى الخطبة ، وبعد ذلك بخمسة أيام ركب « الناصر » فى أبهة الملك وشق القاهرة من باب النصر حتى خرج من باب زويلة (بوابة المتولى) عائدا الى القلعة .

اغتصاب "كتبغا" للملك

وعلم الأمير لاجين (أحد الذين اشتركوا فى قتل السلطان السابق خليل بن قلاوون) وهو فى مخبئه بما جرى فى القاهرة بعد مقتل السلطان ، وسعى الى لقاء صديقه القديم « كتبغا » والتمس منه العمل على الحصول له على عفو من السلطان ، ولم يتردد كتبغا بحكم ما كان بينهما من صلات الود والصداقة فى أن يبحث فى شأن صديقه مع أمراء المماليك — ولا تنس أنهم جميعا كانوا يكرهون السلطان « خليل » . واستقر رأيهم على أن يظهروا « لاجين » للسلطان ، وبالفعل تقدموا له متشفعين فى « لاجين » حتى عفا عنه ، وسرعان ما مثل بين يديه ، فخلع عليه ، ولم يعاتبه بما فعل مع أخيه « خليل » ، وتسارع معظم الأمــراء فى تقديم الهدايا اليه وفى مقدمتهم صديقه « كتبغا » .

ولكن خروج « لاجين » من مخبئه ، وعفو السلطان عنه ، واندماجه مع باقى الأمراء البارزين فى الدولة ، قد أغضب مماليك السلطان الراحل الذين لم ينسوا قط أنه ساهم فى قتل سيدهم . يضاف الى هذا سوء معاملة « كتبغا » لهم عندما أخرجهم من القلعة وأسكنهم بالكبش ، لذلك قاموا فى المحرم من سنة أربع وتسعين وستمائة (١٢٩٤ م) بثورة كبيرة خرجــوا فيها من مساكنهم المذكورة الى قلعة القاهرة ، ونهبوا ما قدروا عليه ، ثم

ذهبوا الى « باب سعادة » أحد أبواب القاهرة (كان يقع بالقرب من ميدان أحمد ماهر (باب الخلق) ، وحرقوه وقصدوا سوق السلاح ونهبوا ما فى الحوانيت من أسـلحة . ولكن الحكومة استطاعت أن تقضى على هذه الثورة وقبضت على الثوار جميعا وضربت أعناق بعضهم ، وقطعت أطراف بعضهم ، وأنزلت بالبعض غير ذلك من العقوبات وقد كان عددهم يزيد على الثـلاثمائة مملوك .

وبدأ « لاجين » بعد أن استقرت الأمور فى البـلاد ، يدبر طريقة لكى يصل الى العرش ، ولجأ فى ذلك الى الحيلة والدس، فأخذ يغرى صديقه « كتبغا » على الاستئثار بالحكم ، ولم يترك فرصة تسنح له دون أن يزين له الملك وما يتبعه من سلطة وجاه . وكثيرا ما كان يخوفه من « النـاصر » ويذكر له أنه متى كبر لا يبقى عليه ، ولا يبقى على أحد ممن كان له يد فى قتل أخيه « خليل » ، وكان يصور له المماليك الأشرفية — مماليك السلطان المقتول — فى صورة المتحفزين دائما للانتقام لسيدهم ، ويذكره بأن شوكتهم لم تنكسر ولن تنكسر أيضا طالما كان « الناصر » متربعا على العرش ، والمصلحة تقضى بخلع « الناصر » وتربعه هو على العرش مكانه .

واستجاب « كتبغا » أخيرا لهذا الاغراء ، ووقع فى الفخ الذى نصبه له « لاجين » ، وتحدث الى الخليفة العباسى فى عدم أهلية « الناصر » لصغر سنه ، وتحدث الى الأمراء والى القضاة فى أن البلاد فى حاجة الى رجل يخافه الجنود وتخشاه الرعية ،

وتحترم أوامره ونواهيه ، وقد ضرب مثلا بثورة المماليك الأشرفية وما ترتب عليها من فوضى وختم كلامه بقوله : « لقد انخرق ناموس المملكة ، والحرمة لا تتم بسلطنة الناصر لصغر سنه » .

واقتنع الخليفة بوجهة نظر كتبغا ، كما وافق الأمراء والقضاة عليها ، وأقروا جميعا خلع « الناصر » وتولية « كتبغا » مكانه ، وحلفوا له وأصبح سلطانا على مصر والشام من يوم الأربعاء حادى عشر من المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة (١٢٩٤ م) .

ولقد كان « الناصر » يقف موقف المتفرج من هذه الحوادث التى كانت تجرى تحت سمعه وبصره ولا يملك أن يؤثر فيها ، أو يغير من اتجاهها لصغر سنه .

وجاء « كتبغا » ذات يوم الى القلعة ، وأمر بنقل الناصر وأمه من القصر ، فنفذ الأمر وأسكنا فى بعض قاعات القلعة وانتهت بذلك السلطنة الأولى للناصر بعد أن استمرت مدة سنة الا ثلاثة أيام . ولنترك نحن الناصر فى محبسه لنتابع تفاسير الحوادث مع السلطان الجديد الذى اغتصب الملك .

ولقد كان طبيعيا أن يكون أول عمل لهذا السلطان الجديد هو أن يكافىء صديقه « لاجين » الذى أوحى له بفكرة الاستئثار بالحكم ، وفتح عينيه على ما كان ينتظره من خطر، ثم رسم له طريقة الوصول الى العرش وأتت هذه الطريقة ثمارها . ولم تكن هناك مكافأة على هذا الصنيع أغلى من أن يجعله نائبا له ،

وهكذا أصبح « كتبغا » سلطانا على مصر ، وأصبح « لاجين » نائبا للسلطنة .

ونزل « كتبغا » بشعار الملك وأبهة السلطنة من قلعة الجبل الى ظاهر القاهرة ، وشق العاصمة من باب النصر الى باب زويلة ، وفى رحابه «لاجين» ، ثم عاد الى القلعة كما جرت العادة بذلك .

ولم يكن كتبغا موفقا فى مدة سلطنته لأسباب معظمها خارج عن ارادته ، فقد اقترن حكمه بأحداث شتى أثارت الشعب وكرهته فيه ، وأطلقت لسان العامة فى سلطانهم ، منها المغول والغلاء ، وتناقص النيل وتزايد الوباء .

أما المغول فقد وفدت طائفة منهم فروا من ملكهم غازان الى بلاد الشام ، وجاءوا الى مصر فى ربيع الآخر من سـنة خمس وتسعين وستمائة (١٢٩٥ م) ، وكانت عدتهم مائة وثلاثة عشر رجلا ، أكرم السلطان وفادتهم لأنهم من بنى جنسه ، وفتح لقب الامارة لعدد منهم ، الأمر الذى أغضب المماليك ، أما الشعب فقد كره هؤلاء المغول وضاق بهم لأنهم كانوا من عبـدة الأوثان لا يصومون رمضان ويأكلون لحم الخيل من غير ذبحها .

وأما الغلاء فقد اشتد فى تلك السنة فى القمح والشـعير ، والفول والترمس والخبز والدجاج والبطيخ والسفرجل والبيض . وهلك معظم الدواب كما هلكت القطط والكلاب ، وأكل الناس الميتة من الكلاب والمواشى بل ومن أبنائهم — كما يقول المقريزى الذى يروى لنا فى هذا الصدد قصة تعكس هذه الحالة بأجل صورة ، اذ يقول ان امرأة حسنة الهيئة كانت تستجدى أمام دار

أحد الأمراء وهى تحمل على كتفها جرابا ، ورق لها الأمـير وأدخلها داره فاذا هى جميلة الصورة مما زاد فى شفقته عليها ، فأحضر لها طعاما أكلته فلم تشبع ، فكرر ذلك مرات حتى شبعت ثم استندت الى الجدار ونامت ، وعندما جاءوا لايقاظها وجدت ميتة فرفعوا الجراب عن كتفها ووجدوا فيه يد انسان صـغير ورجله ، فأخذ الأمير ذلك وصعد به الى القلعة وأراه الى السلطان والأمـراء .

وأما النيل فقد تناقص ماؤه تناقصا شديدا فارتفعت الأسعار ارتفاعا فاحشا ، وساءت ظنون الناس بحكومتهم ، وكثر الشح ، وضاقت الأرزاق ، ووقفت الأحوال ، واشـتد البكاء ، وعظم ضجيج الناس فى الأسواق من شدة الغلاء .

وأما الوباء فقد تزايد ، وكان يخرج من كل باب من أبواب القاهرة كل يوم ما يزيد على سبعمائة ميت ، ولا يكاد يوجد دار أحد من المستورين بالقاهرة ومصر الا ويصبح على بابها عدة أموات قد طرحت هناك حتى يقوم بتكفينها ودفنها ، فيشتغل نهاره بذلك . وتزايد الأمر فصارت الناس تدفن بغير غسـل أو كفن ، وعجز الناس عن مواراة الأموات فى القبور لكثرتهم وقلة من يحفر لهم ، فعملت حفائر كبار ألقيت فيها الأموات من رجال والنساء والصبيان حتى تمتلىء الحفرة ثم تطم بالتراب .

وحاول السلطان « كتبغا » الذى اصطلحت عليه هذه الظروف السيئة أن يعالج هذه الكوارث بقدر ما يستطيع ، فأحضر من الشام ما استطاع جمعه من القمح ، وأصدر الى الأمراء أمره بأن

يعملوا على تخفيف حدة المجاعة باطعام من يرسله اليهـم من الفقراء والمحتاجين ، ففعلوا ذلك كل فى دائرته ، لكن ذلك لم يفد كثيرا فى تخفيف هذه المجاعة .

وبذل الأطباء جهدهم فى مكافحة الوباء ، ولكنه كان أقوى من همتهم فأعجزهم فكثرت الضحايا .

وطبيعى أن يكره الناس جميعا هذا السلطان الذى اقترن حكمه بهذه النكبات ، وطبيعى كذلك أن يتمنوا من أعمـاق نفوسهم زوال هذا الحكم ، وأن يطلبوا من الله بقلوب عامرة بالايمان أن يخرجهم من هذا الضيق الذى عانوه فى أيامه . وأن يتح لهم سلطانا آخر يتبدل على يديه الحال ويعود الرخاء .

اغتصاب "لاجين" للملك

لقد أحس الأمير « لاجين » بهذا الضيق ، وقرأ سطوره فى وجوه الناس ، ورأى فيه تمهيدا من العناية الالهية لكى يصل هو الى العرش . وسرعان ما نسى صداقته للأمير « كتبغا » ، وسرعان ما نسى ما طوق به هذا الأمير عنقه من صنيع عندما تستر عليه يوم ساهم فى مقتل السلطان « خليل » ، ونسى أنه حصل له على العفو من السلطان « الناصر » ، ونسى أنه قربه من السلطان فخلع عليه وأصبح فى زمرة الأمراء ذوى النفوذ ، ونسى أنه جعله نائبا للسلطنة .

نسى « لاجين » كل هذه الأيادى التى طوقه بها صديقه كتبغا، وأعماه التطلع الى عرش السلطنة عن كل معانى الوفاء والاخلاص، بل لقد قتلت الرغبة فى السلطنة فى نفسه كل هذه المعانى ، ولم يعد يفكر الا فى الوسيلة التى يزيل بها « كتبغا » من طريقه ، وأخذ يتحين الفرص لتحقيق ذلك ، وقد خدمه الحظ عندما خرج السلطان « كتبغا » الى بلاد الشام لزيارة هذا الجزء من سلطنته ، وسار فى موكبه العساكر والأمراء وعلى رأسهم « لاجين » .

واحتفل أهل دمشق بقدوم السلطان ، وتجلت علائم الترحيب به فى كل مكان ، واستقر قليلا هناك ثم خرج للصيد ، فأصاب ما أصاب ثم شد الرحال عائدا الى مصر ، وفى الطريق نزل فى

احدى القرى للاستراحة ، وعندئذ كانت فكرة اغتياله قد نضجت فى رأس «لاجين» ، فانقض عليه فى خيمته ليقتله ولكن « كتبغا » آحس به فهرب ، ونجح فى الاختفاء عنه ، وفى العودة الى دمشق حيث لجأ الى قلعتها ، وأقام فيها منتظرا قضاء الله فى شأنه .

ولم يملك « لاجين » بعد أن فشل فى قتـل غريمه الا أن يستولى على خيمته وأسلحته وخزائنه وحراسه ، ولم يلق فى ذلك مقاومة كبيرة . ثم اجتمع بالأمراء الذين كانوا مع السلطان فى خيمته ، وشاورهم فى الأمر فوافقوا على اختياره سلطانا بشرط ألا ينفرد برأى دونهم ، ولا يترك مماليكه يعبثون بمصالح الغير ، ولا يقدم أحدا من هؤلاء المماليك عليهم وقد قبل هذا الشرط ، وحلف لهم على تنفيذه . وما كاد ينتهى من قسمه حتى تقدم له أحد الأمراء وقال له : « نخشى انك اذا جلست فى منصب السلطنة تنسى هذا الذى تقرر بيننا وبينك ، وتقدم مماليكك ، وتحول مملوكك « منكوتمر » علينا ، فيصيبنا منه ما أصابنا من مماليك « كتبغا » » . فأقسم « لاجين » مرة ثانية أنه لن يفعل ذلك ، ولن يخرج قط عما التزم به . عندئذ أقسم له الأمراء يمين الطاعة ، وكان ذلك فى المحرم من سنة ست وتسعين وستمائة (١٢٩٧ م) . وطيّر الخبر الى الشام ومصر ، وردده المؤذنون من مآذن دمشق بعد أن ذكروا قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير » .

وقبل أن نمضى مع هذا السلطان الجديد ، تتابع حياته ، لحب

أن نقف قليلا عند السلطان السابق « كتبغا » الذى انفرد بين سلاطين المماليك بنوع خاص من الشخصية لم يكن مألوفا فى ذلك العهد . فقد نجح ، كما رأينا ، فى الوصول الى العرش ، وذاق حلاوة السطوة والسيطرة ، واستمتع بنفاذ الكلمة ، ولم يكن ثمة من يعقب على حكمه ، أو يحول دون تنفيذ مشيئته ، ومع ذلك فقد رضى طائعا مختارا أن ينزل عن العرش ويعـود حاكما صغيرا ، يصدع بأمر الآخرين ، وينفذ أوامر مرءوسـه السابق « لاجين » . ترى أكان هذا الرضى بالدون يضعف فى شخصيته فآثر الحياة على الموت حتى ولو كانت هـذه الحياة مشوبة بشىء من المهانة والمذلة ؟ أم كان هذا الرضاء منبعثا من ايمانه بفلسفة جديدة ، لم يعرفها أبناء عصره ، هى أن المناصب فى هدفها الأسمى سواء ، وأن الانسان يستطيع أن يخدم وطنه وأمته وهو فى أعلى المناصب ، كما يستطيع ذلك أيضا وهو فى أدنى المناصب وأبسطها ؟ وهو قد أدى واجبه نحو وطنه عندما كان متربعا على عرش البلاد ويستطيع أن يؤديه على أحسن وجه وهو فى ولايته الصغيرة !

ولا شك أن الحكم على هذا العمل بموازيننا الحديثة قد يكون فيه خروجا عن جادة العدل، ولذلك تؤثر أن تترك للمعاصرين لهذا الرجل أو لمن كانوا قريبين من عصره ، أن يزنوا عمله المنقطع النظير فى أيامه بموازينهم الخاصـة ، فنثبت هنا حكم المؤرخ ابن تغرى بردى عليه ، وهو أقرب منا بكثير الى عصر « كتبغا » اذ لا يفصل بينهما أكثر من مائة وثمانية وسبعين عاما (كان هذا

التنازل فى سنة ست وتسعين وستمائة وكانت وفاة ابن تغرى بردى فى سنة أربع وسبعين وثمانمائة) فهو من غير شك أفهم منا لفلسفة ذلك العصر . يقول هذا المؤرخ فى نجومه الزاهرة « وقد كانت حالته خارقة للعادة ، ذلك أنه (يقصد « كتبغا ») ولى سلطنة مصر ، وصار له شوكة ومماليك وحاشية ، ثم طلع وصار من جملة نواب السلطان ببلاد الشام ، فهذا شىء لم يقع لغيره من الملوك ، وأعجب من هذا أنه لما قتل « لاجين » ، وتحيّر الأمـراء فيمن يولونه بعده ، لم يتعرض أحد لذكره ، ولا رشح للعودة البتة .. وما أظن أن القلوب نفرت منه ، الا لما رأوه من دنىء همته عندما خلع من السلطنة ، وتسليمه للأمر من غير قتال ولا ممانعة ، وكان يمكن أن يدافع بكل ما تصل اليه القدرة ، ولو ذهبت روحه عزيزة غير ذليلة » .

ورضى « لاجين » أن يبقى على « كتبغا » ولا يقتله ، ووافق على تعيينه حاكما على قلعة « صرخد » بعد أن أخذ عليه التعهد بأنه لن يكاتب أحدا ، ولا يشاور أحدا ، ولا يستفسر أحدا .

وفى عصر سلطنة « الناصر » الثانية نقل « كتبغا » الى ولاية حماه ، وظل فيها حتى توفى فى سنة اثنين وسبعمائة (١٣٠٢ م) أى بعد ست سنوات من خروجه من السلطنة ، وكان قد بلغ سن الكهولة ، ونزل به المرض حتى ضعف واسترخى ولم يعد يقوى على تحريك يديه ورجليه . وبعد موته نقل الى مصر حيث دفن فى قبر مجاور للقبر الذى دفن فيه صديقه القديم « لاجين » الذى سبقه الى لقاء ربه ببضع سنوات ، ويقول المقريزى فى السلوك

انه من غريب الاتفاق أن يدفنا بجوار بعضهما ، ولم ينس أولاد « كتبغا » ما فعله « لاجين » بأبيهم فكانوا يأتون الى قبر «لاجين» ويضربونه بالنعال ، ويسبونه بأقذع السباب ، حتى يشفوا ما فى نفوسهم من غل .

* * *

ونعود الآن الى « لاجين » ، وقد عرفنا شيئا عن ماضيه ، ولكننا لم نعرف كل هذا الماضى ، وقبل أن نعرض لسلطنته يحسن أن نشير الى هذا الماضى بشىء من التفصيل ، فقد كان من مماليك بعض الأمراء ، ثم اشتراه « قلاوون » بستمائة وخمسين درهما ، ورباه ، ثم أعتقه ورقاه الى أن جعله أميرا وزوجه باحدى بناته ، وعينه نائبا له بقلعة دمشق ثم نائبا لدمشق كلها . وقد كان حينئذ مسرفا فى ملذاته ، منصرفا الى شرب الخمر ومعاشرة أرباب الملاهى ، ولكنه كان فى الوقت نفسه رضى الخلق ، له ضمير حىّ ، ونفس تميل بطبعها الى الخير .

وعندما مات السلطان قلاوون ، عزله السلطان « خليل » عن نيابة دمشق ، ومن هنا تولد الحقد فى نفس « لاجين » الأمر الذى دفعه الى الاشتراك فى قتل « خليل » ثم هروبه واختفائه ، ثم ظهوره وتشفع صديقه « كتبغا » له ، وأخيرا اغتصابه الملك من « كتبغا » كما مرّ بنا .

ولقد تغيّر « حسام الدين لاجين » بعد أن أصبح سلطانا تغيرا تاما ، فأعرض عن اللهو ، وشرب الخمر ، وكان يُنزل بمن يقترفهما أشد العقاب .

واستبدل مجلس اللهو بمجلس العلماء ، وكان تقديره لأهل العلم عظيما ، عرف لهم مكانتهم ، ورفعهم الى منزلته ، فقد دخل عليه ذات يوم أحد العلماء وهم بتقبيل الأرض بين يديه فمنعه من ذلك وقال له : « أهل العلم منزهون عن هذا » وأجلسه بجواره . وفى مناسبة أخرى نراه ينزل عن عرشه لكى يقبل يد أحد العلماء وقد حضر اليه .

وأحسن السيرة فى الرعية ، وحرص على نشر العدل بين قطاعات الشعب المختلفة ، فأصدر أمرا بمسامحة أهل مصر والشام من بواقى الخراج التى عليهم ، كما منع أخذ المواريث بغير حق ، وأمر بالافراج عن المسجونين .

وقد حمى صغار الجند — وهم كما نعلم من المماليك — من استبداد الأمراء ، اذ كان هؤلاء يأخذون كثيرا من اقطاعات الجنود فلا يصل الى الجندى نصيبه ، ولا الى الحكومة نصيبها من الخراج أيضا ، وأصبحت الاقطاعات مأكلة لأعوان الأمراء ومستخدميهم ، ومضرة على أهل البلاد التى تجاورها ، فعمل ما يعرف « بالروك الحسامى » أى انه مسح الأراضى الزراعية من جديد ، وفرض عليها الضرائب المناسبة ، ثم قسم هذه الأراضى الزراعية الى اقطاعات مختلفة ، وعمل على ايصال الحقوق الى أربابها دون أن تطغى طبقة على طبقة ودون أن يضار الفلاحون الذين كانوا يقومون بزراعة هذه الاقطاعات .

وعمل على منع الاسراف لا سيما فى الملابس ، فقد كان المماليك وأمراؤهم شديدو العناية باقتناء الملابس الفاخرة ،

يصرفون فى سبيل الحصول عليها الأموال الطائلة ، وقد رأى « لاجين » أن هذا الاسراف ليس له ما يبرره ، فأصـــدر أمره بتحـــريم لبس : الكلفتاه » المزركشة التى استخدمت فى أيام السلطان خليل (أى غطاء الرأس) كما منع أيضا لبس الأقبية الحريرية الغالية الثمن ، وقد جعل نفسه القدوة فى ذلك فاقتصد هو ورجاله فى الملابس اقتصادا واضحا .

ولم ينس « لاجين » العامة فى اصلاحاته ، فقد كان شديد الحب لهم ، يجالسهم ويشاركهم فى طعامهم ولا يجـــد فى ذلك غضاضة قط . ويحرص على حماية أيتامهم وأيتام المماليك فيأمر بأن من مات وله ورثة صغار ، نقل ميراث هؤلاء الصغار الى « مودع الحكم » أو بتعبير آخر الى « صندوق أعد لحفظ مال اليتامى » . ويشرف على هذا الصندوق قاضى القضاة ، فان كان للميت وصى عين القاضى مع هذا الوصى شخصا من قبله ضمانا لمال اليتيم حتى لا يعبث به أحد . أى أن « لاجين » بلغتنا الحديثة قد أقام ما يشبه المجالس الحسبية لرعاية شئون القصر ، واعتنى بتثقيفهم عناية ملحوظة . وجدد مسجد ابن طولون بعـــد أن كان مهجورا (ويقال انه اختبأ فيه عقب مقتل خليل بن قلاوون) وعمّره ، وأوقف عليه الأوقاف العظيمـــة ، ورتب فيه دروس التفسير والحديث . والفقه على المذاهب الأربعة ، بل ورتب فيه أيضاً دروساً فى الوعظ والارشـــاد ، وألحق به كتابا لتعليم الأيتام قراءة القرآن . ومن طريف ما يذكر بصدد الأوقاف التى أوقفها هـــذا السلطان على مسجد ابن طولون أنه كان من بين

ما أوقف على هذا المسجد أعيانا خصص ريعها للديكة التى كان لها فى سطح المسجد مكان مخصوص ، والتى وضعت هناك لكى تساعد بصياحها على ايقاظ المؤذنين وقت السحر ، وقد وصفت هذه الأعيان وحددت فى كتاب الوقف ، ولكن السلطان أنكر ذلك وقال ابطلوا هذا لئلا يضحك الناس علينا .

ومن حسن حظ « لاجين » أن أسعار القمح والشعير واللحم قد انحطت فى عصره الى نصف ما كانت عليه فى عهد سلفه ، فعم السرور الناس جميعا ، وزاد هذا فى محبة الشعب له ، وقد تجلى هذا الحب بشكل واضح فى استقباله بعد أن شفى من مرض ألمّ به على أثر سقوطه من فرسه وهو يلعب الكرة ، فزينت القاهرة ، وجاء الناس لرؤية موكبه من كل مكان ، واستأجر بعضهم البيوت المطلة على طريق الموكب بأجور عالية ، وتقاضى أصحاب الحوانيت الواقعة فى هذا الطريق من الذين جلسوا بجوار حوانيتهم أجر هذا الجلوس ، وفى الحق لقد كان يوما مشهودا ينطق بمدى محبة هذا الشعب لذلك السلطان الذى حاول أن يخفف بعض متاعبه وآلامه .

وأحب « حسام الدين لاجين » ألا يقاسمه أحد من ذوى النفوذ فى سكنى القلعة ، فرسم بنزول الخليفة منها ، وبابعاد « الناصر » الى الكرك .

أما الخليفة العباسى فقد أعد له سكنا خارج القلعة بالقرب من مسجد ابن طولون فى « مناظر الكبش » أو « قلعة الكبش » كما نسميها اليوم . وقد انتقل الخليفة الى هذا المسكن الجديد ،

وأجرى عليه السلطان من المرتبات ما يكفل له العيش الرغد .

وأما « الناصر » فقد استدعاه اليه فحضر ومعه قاضي القضاة الذى أصبح وصيا عليه بعد أن خلع من السلطنة . وأحب « لاجين » أن يخفف من وقع أمر الابعاد على « الناصر » ، فتحدث أولا مع قاضى القضاة قائلا له ان « الناصر » ابن أستاذه قلاوون ، وانه انما يقوم بالسلطنة كالنائب عنه الى أن يحسن القيام بأعبائها ، وانه يرى أن يتوجه « الناصر » الى الكرك . ثم التفت الى « الناصر » ووجه اليه الخطاب قائلا : انه يعلم حق العلم أن أمراء المماليك ما كانوا ليتركوه جالسا على العرش وهو فى هذه السن الصغير ، ولذلك كان من رأيه أن يأخذ هو الملك لا لكى يستأثر به دونه ، ولكن لكى يحتفظ له به باعتباره كان مملوكا لوالده ثم مملوكا له من بعده ، وانه يقترح عليه أن يسافر الى الكرك ويبقى بها حتى يبلغ مبلغ الرجال ، وتصقله التجارب وتجعله أهلا لأن يجلس على العرش ثم يعود الى مصر ليتسلم عرشه ، وكل ما يطمع فيه من وراء محافظته على العرش هو أن يتعهد « الناصر » له بأنه متى تربع على العرش أمر باعطائه حكم دمشق .

وصدق الناصر هذا القول أو لم يجد بدا من تصديقه ، وطلب الى « لاجين » أن يقسم له على كل ما قال فأقسم ، وخرج « الناصر » من عنده لكى يستعد للسفر الى الكرك .

ورقى « لاجين » بعض مماليكه الى مرتبة الامارة ، وكان من بينهم مملوكه « منكوتمر » الذى كانت له مكانة ممتازة فى

نفسه ، وفى الحق لقد كان عطفه على هذا الأمير ، وحبه الشديد له ، وثقته العظيمة فيه هى السبب فى افساد ما بين « لاجين » وبين الأمراء والجند والعامة والدافع الى تآمر الأمراء على قتله .

أراد « لاجين » أن يجعل الأمير « منكوتمر » نائبا للسلطنة ، ولكن الأمراء عارضوا فى ذلك معارضة شديدة الا أنه لم يعبأ بمعارضتهم بل كشف أسماء المعارضين « لمنكوتمر » نفسه فزادت الجفوة بينه وبين كثير من الأمراء .

وأراد أن يجعل من « منكوتمر » وليا للعهد حتى يصبح سلطانا بعده ، ولكن نصحه أحد الأمراء بالعدول عن ذلك حتى لا تسوء العاقبة ، فقبل على مضض خوفا من ثورة الأمراء عليه .

والواقع أن « لاجين » مع ما اتصف به من صفات حميدة لم يستطع أن يتخلص من أبرز صفات مماليك عصره وهى النكث بالعهود ، فلم يحفظ العهد الذى اشترطه على نفسه للأمراء عندما وافقوا على توليته الحكم ، وكأنما كان أولئك الأمراء يقرأون فى صفحة الغيب عندما اشترطوا عليه ألا يسلط مماليكه عليهم لا سيما « منكوتمر » هذا ، ولكن « لاجين » ، وقد أصبح الآن سلطانا ، قد نسى فى نشوة السطوة والملك ، وعوده السابقة ، وترك مملوكه هذا الذى أصبح نائب السلطنة يعبث بمصالح الناس ، بل وتركه يصرف أمور الدولة وفق هواه فى أيام مرضه الذى سبق لنا الاشارة اليه من قبل .

ترى ما سر هذا الحب المفقود بين الأمير « منكوتمر » وبين الناس ؟ أكانت هذه الكراهية لأنه لم يكن سمح النفس ، بشوش

الوجه ، يغلب على مظهره الجمود ، ولا تعرف البسمة المشرقة طريقها الى وجهه العابس ، والناس عادة تكره مثل هذا الصنف ولا تميل اليه .

أم كانت هذه الكراهية لأنه كان جادا فى عمله ، لا يعرف المواربة أو المداهنة ، يتجه الى هدفه من أقرب طريق فى حزم لا يعرف التراخى ، وعنف لا يعرف اللين ، ومثل هـذا النوع لا يتمتع عادة بشعبية واضحة .

أم كانت هذه الكراهية مبعثها حسد الأمراء له لأن السلطة الفعلية قد تركزت فى يده ، ولأن السلطان كان لا يبرم أمـرا الا بمشورته وتوجيهه ؟ .

أم كانت لبعض هذه الأسباب مجتمعة أو لغيرها مما لم يكشف عنه التاريخ بعد ؟ الله أعلم ، فان تعليل الحب والكراهية ليس من الأمور الهينة التى يستطيع المؤرخ أن يعلل لها فى يسر ، أو يعرف دوافعها على وجه التحديد .

ولقد وقعت بين هذا الأمير وبين قاضى القضاة (ابن دقيق العيد) حادث يدل من جهة على مدى غطرسته ، ومن جهة أخرى على شجاعة العلماء واعتدادهم بكرامتهم وحرصهم على الحق ، ولو أوردهم موارد التلف ، ذلك أن الأمير « منكوتمر » بعث الى قاضى القضاة يعلمه أن تاجرا قد مات وترك وراءه أخاه ، ولم يخلف غيره ممن يرثه ، وأراد الأمير أن يثبت استحقاق الرجل للارث بمجرد الاخبار عنه (ويظهر أن قضايا الميراث فى ذلك الوقت كانت تستغرق وقتا طويلا للتحرى عن حقيقة الورثة) .

ولم يوافق القاضى على الاسراع فى اصدار حكمه دون انتظار للأدلة ، وترددت الرسل بينه وبين الأمير وهو صامد عند موقفه ، ولم يطق الأمير صبرا على ذلك ، فبعث اليه بأحد الأمراء يرجوه فى هذا الأمر ، وحضر الأمير الى القاضى ، وسلم عليه القاضى بعد أن قام له نصف قومة ، ثم أجلسه ، وبدأ الأمير يتلطف فى اثبات أخوة التاجر بشهادة الأمير منكوتمر فقال له القـاضى : « وماذا ينبئنى على شهادة منكوتمر ؟ » فرد الأمير عليه « ياسيدى ما هو عندكم عدل » ، فتضايق القاضى وقال « سبحان الله » ثم أنشـد :

يقولون هذا عندنا غير جائز

ومن أنتم حتى يكون لكم عند ؟

وكرر ذلك ثلاث مرات ثم قال للرسول : « والله حتى لم تقم عنـدى بينة شرعية تثبت لدى ، والا فلا حكمت له بشيء باسم الله » .

وانصرف الأمير من لدى القاضى وهو يردد « والله هـذا هو الاسـلام » ، والتقى بمنكوتمر وأطلعه على فشله فى مهمته ، وطلب اليه أن يجتمع هو بالقاضى اذا ما جاء الى دار العدل .

فلما حضر القاضى الى دار العدل سارع اليه المماليك واحدا بعد آخر يقولون له « يا سيدى ! الأمير ولدك يختار الاجتماع بك لخدمتك » . ولكنه لم يلتفت الى أحد منهم ، ولما ألحوا عليه قال لهم : « قولوا له ما وجبت طاعتك على » . ثم التفت الى من معه من القضاة وقال لهم « أشهدكم أنى عزلت نفسى باسم الله»

قولوا له يولى غيرى » . ثم انصرف الى داره وأغلق بابه عليه .

ولما عرف السلطان بما وقع ، أنكر على منكوتمر تصرفه ، وبعث الى القاضى يعتذر اليه ويرجوه الحضــور اليه ، ولكنه أبى واعتــذر عن طلوعه الى القلعة ، وبعث السلطان اليــه من يلحف فى الرجــاء حتى قبــل ، وذهب الى السلطان الذى تلقاه بما يليق به من الاحترام ، وعــزم عليه أن يجلس على مرتبته ، فتقــدم « ابن دقيق العيد » وبسط منديله — وكان خرقة باليــة من الكتان — فوق الحــرير قبل أن يجلس كراهة أن ينظر الى الحرير أو يجلس عليه .

وأخذ السلطان يتلطف معه فى الحديث لكى يعدل عن استقالته، حتى قبل وكان منكوتمر حاضرا فى هذه الجلسة .

وقبل أن ينصرف « القاضى » قال له السلطان : « يا سيدى هذا ولدك منكوتمر ، خاطرك معه ، أدع له » . فنظر اليــه القاضى ساعة وصار يفتح يده ويقبضها وهو يقول « منكوتمر لا يجىء منه شىء » وكررها ثلاث مرات ثم قام متجها الى منزله .

وما كاد يخرج من حضرة السلطان حتى بادر هذا فأخذ الخرقة التى وضعها على المرتبة تبركا بها ، ومزقها الأمراء قطعة قطعة ليدخروها عندهم رجاء بركتهم .

ولقد ثقل « منكوتمر » على الناس جميعا الا السلطان فقد كان محببا اليه ، قريبا الى قلبه .

وسعى الأمراء الى عزله من منصبه بالدس له عند السلطان ، ولكن مكانته فى نفسه كانت أقوى من كل دس فلم يستمع الى

وشاية أحد فيه ، وظل منكوتمر قائما فى منصبه كالطود الشامخ لا يعبأ بالعواصف التى كثيرا ما كانت تهب حوله . بل لقد ارتفعت منزلته عند السلطان الى درجة لم يتصورها أحد ، فأراد أن يجعله وليا لعهده ، ولكن صديقا له من الأمراء نصحه بعدم الاقبال على ذلك لأن فيه يكمن الخطر عليه وعلى ملكه .

وأحس منكوتمر من جانبه بأنه مكروه من الجميع ، وضاق ذرعا بأمراء المماليك فى مصر ، وأراد أن يزيحهم من طريقه ، وأن يقيم غيرهم من أمراء الشام أى أن يجرى حركة تنقلات بين أمراء الدولة ، واقترح ذلك على السلطان ، وما أسرع ما اقتنع السلطان بهذا الاقتراح وبدىء فى اتخاذ الخطوات اللازمة نحو تنفيذه ، ولكن الأمراء أحسوا بذلك وكانوا أسرع من السلطان ونائبه فى اتخاذ الحيطة ، فأجمعوا أمرهم على التخلص من منكوتمر ولكنهم أدركوا أنهم لا يستطيعون ذلك الا اذا قتلوا السلطان أولا . فلنتركهم يدبرون مؤامرتهم للتخلص من السلطان ، ولنذهب الى السلطان قبلهم لنشاهده فى أيامه الأخيرة قبل أن تطوى صفحة حياته .

لقد كان « لاجين » مقبلا على الآخرة ، اذ أوغل فى الدين ايغالا واضحا فقام الليل ، وصام رجب وشعبان الى جانب رمضان ، بل كان يصوم أيضا بعض أيام الأسبوع ، وأكثر من الصدقات فى السر والعلن . ولكنه رغم ذلك لم يستطع أن يحقق الهدوء لنفسه ، فكثيرا ما كانت تؤرقه جريمته التى ارتكبها عندما قتل السلطان «خليل» ، أو اشترك فى القتل لقد كان «الشعور بالذنب» يشقيه ، وكانت مساهمته فى هذه الجريمة عبئا ثقيلا على نفسه

طوال السنوات التى عاشها بعد وقوع تلك الجريمة ، وكانت نقطة سوداء فى سجل حياته سعى الى محوها بالصلاة والصيام ولكنها لم تمنح ، بل ظلت تذكره دائما بأن « من قتل يقتل » وكثيرا ما كان ينطلق لسانه بهذه الجملة لخاصته والمحيطين به ، بل وكثيرا ما كان يسأل العلماء هل حديث « كل قاتل مقتول » صحيح أم لا ؟

هكذا كان « لاجين » فى أواخر أيامه تطارده جريمته الشنعاء، فيعيش فى خوف من القتل ، ويحوم حوله شبح الموت حيثما تلفت ويهتف به هاتف « من قتل يقتل » فيؤرقه ويحرمه هدوء النفس والأمراء عليه يتآمرون ، ولقتـله يدبرون . وذات يوم رأى « منكوتمر » نقل أحد الأمراء الى طرابلس ، واعتذر الأمير عن تنفيذ هذا النقل ، وتشفع له بعض الأمراء لدى السلطان حتى يعفيه منه ويبقى عليه فى مصر . وقبل السلطان الشفاعة وألغى النقل ، وثارت ثائرة « منكوتمر » ، وأرغى وأزبد ، وقاطع السلطان ، فسعى اليه السلطان يسترضيه حتى رضى أن يستأنف عمله بشرط أن ينقل ذلك الأمير خارج مصر ، وأقر السلطان ذلك ، ولكن الأمراء جعلوا من هذه الحادثة « القشة التى قصمت ظهر البعير » ، كما يقولون فحزموا أمرهم على التخلص من السلطان فورا .

وأصبح السلطان فى يوم الخميس ١٠ ربيع الآخر من سنة ثمان وتسعين وستمائة (١٢٩٩ م) ، وكان صائما وبعد أن أفطر جلس يلعب الشطرنج مع بعض العلماء ، ودخل عليه أحد الأمراء المتآمرين — وكان من المقربين اليه — وذكره بصلاة العشاء ،

فقام السلطان واستقبل القبلة وهم بالركوع ولكن عاجله هذا الأمير بضربة من سيفه ، ثم انقض عليه باقى المتآمرين الذين حضروا فى الحال ، وضربوا السلطان من كل جانب حتى صار « كوم لحم » على حد تعبير المقريزى . وهكذا انتهت حياته بعد أن حكم سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوما ، وكان له من العمر نحو الخمسين عاما .

واتجه المتآمرون الى « منكوتمر » فقضوا عليه هو الآخر وتخلصت البلاد فى ساعات من سلطانها ، ومن نائب سلطانها ، وخلا العرش من جديد .

القسم الرابع

الناصر محمد بن قلاوون

فى

سلطنته الثانية

١ — عودة « الناصر » الى الملك

٢ — انتصار « الناصر » على المغول

٣ — كسر شوكة الأعراب فى داخل البلاد .

٤ — انتصار « الناصر » على الصليبيين .

٥ — اغتصاب الأمير « بيبرس » للملك .

عودة "الناصر" إلى الملك

أصبح عرش مصر خاليا من سلطانه الشرعى « الناصر محمد ابن قلاوون » الذى كان تارة سجينا فى القلعة مع والدته ، وطورا فى مدينة الكرك يعيش كالسجين .

واجتمع الأمراء بعد مقتل « لاجين » ، وقام أحدهم (كرجى) وقال « يا أمراء أنا الذى قتلت السلطان « لاجين » ، وأخذت بثأر أستاذى ، والملك الناصر صغير ما يصلح ، لا يكون السلطان الا لهذا ، وأشار الى الأمير « طغجى » ، وأكون أنا نائبه ، ومن خالف فدونه » واستل سيفه ، فسكت الجميع ، وانفض المجلس دون أن يتخذ قرارا ، ثم شاعت الفتنة فى البلاد وقتل الأميرين « كرجى » و « طغجى » واستقر الرأى على استدعاء السلطان الشرعى من محبسه .

ترى هل كان هذا الاستدعاء استجابة لرغبة الشعب الذى كان يتابع الأحداث وهو صامت على مضض ، واحساس هؤلاء الأمراء بأن هذا الشعب انما كان بقلبه مع السلطان الصغير الذى غلب على أمره فسجن تارة فى قلعة الجبل فى مصر ، وطورا فى قلعة الكرك فى الشام ؟

أم كان هذا الاســـــتدعاء لأنه لم يكن بين الأمراء من له

شخصية قوية يستطيع بها أن يرغم زملاءه على اختياره سلطانا عليهم ؟ أم كان لهذين السببين معا ؟

الواقع أن مؤرخى العصور الوسطى لم يقدموا لنا ما يساعدنا على الخروج من هذه الحيرة ، ويحملنا على ترجيح أحد هذين الاحتمالين ، ويدفعنا الى الجزم بأن أحدهما كان أقوى من الآخر، وأكثر فعالية . ولكن أمرا واحدا يجعلنا أميل الى اعتبار التعليل الأول هو الأقرب الى المنطق والأدنى الى الواقع ، ذلك أننا نلمس رغبة الشعب الشديدة فى عودة سلطانه الشرعى الى الحكم فى تلك الفرحة العظيمة بلقائه يوم عاد من الكرك لأول مرة ، فقد أظهر الناس بعودته من السرور ما لا يوصف ولا يحد ، وزينت القاهرة ومصر بأفخر زينة ، وأبطل الناس معاشهم ، وضجوا له بالدعاء والشكر لله الذى أعاد الحق الى نصابه . وخرج الأمراء ، والناس قاطبة ، يتسابقون الى لقائه ، وكادت القاهرة ومصر ألا يتأخر بهما أحد ، فرحا بقدومه كما يقول صاحب النجوم الزاهرة . وقد استمر الناس فى مرحهم وسرورهم عدة أيام لم ينسوا فيها أن يسمعوا رجال « كتبغا » ورجال « لاجين » اللذين اغتصبا العرش ، من المكروه والاستهزاء ما لا مزيد عليه ، وأن يرددوا قول الشاعر :

الملك الناصر قد أقبلت   دولته مشرقة الشمس
عاد الى كرسيه مثلما   عاد سليمان الى الكرسى

وسوف نرى بعد قليل ما يزيدنا ايمانا بترجيح السبب الأول، عندما يثور الشعب ثورة جامحة ، يوم تسرب الى علمه أن الأمراء

يتآمرون من جـديد فيما بينهم ، على الاستئثار بالحكم دون « الناصر » . لذلك لا نظن أننا نتجاوز الواقع اذا نحن قلنا أن عودة « الناصر » الى عرشه بعد أن أبعد عنه تلك الفترة الوجيزة انما كانت — على الأرجح — نزولا على مشيئة الشعب التى لم تكن متبلورة حينئذ ، ولكن أحسّ بوجودها الأمراء فى أعماقهم وان لم يفصحوا عنها .

وحضرت وفـود الأمراء من مصر الى الكـرك ، وكان « الناصر محمد » فى الخارج يصطاد ، فاستقبلت أمه تلك الوفود، ولما علمت منهم رغبتهم فى عودة « الناصر » الى الحكم ، خشيت أن يكون فى الأمر مكيدة للتخلص من ولدها ، ولكنهم نجحوا فى اقناعها بصدق نيتهم ، وسلامة طويتهم .

وحضر « الناصر » ، وعرف الخبر ففرح فرحا شديدا ، وأخذ يستعد للعودة الى مصر مع الوفود .

وخرج فى موكب حافل الى مصر — وقد كان له من العمر حينئذ أربع عشرة سنة — وسار الأمراء والأعيان بين يديه حتى دخل قلعة الجبل ، وجلس على العرش ، وجددت له البيعة وأصدر الخليفة التقليد بتعيينه .

وأنعم السلطان برتبة الامارة على ابن أخيه « موسى بن على ابن قلاوون » ، كما أصدر أمره بتعيين الأمير « سلار » نائبـا للسلطنة ، والأمير « بيبرس » استادارا له ، ثم فرق الخلع على من يستحقونها .

ووظيفة « نائب السلطنة » لا تفتقر الى ايضاح ، اما وظيفة

« استادار » فينبغى أن تقف عندها قليلا لنتذكر طبيعتها . لقد كانت من أهم أعمال هذه الوظيفة جلب ما تحتاج الى المطـابخ السلطانية من اللحـوم ، والتوابل ، والوقـود ، والزيوت ، والخضراوات ودفع ثمنها بعد الاستلام ، ثم الاشراف على سـير العمل فى هذه المطابخ ، والتحدث مع السلطان فى كل ما يتعلق بالاطعمة الخاصة به وبضيوفه ان كان هناك ضيوف . وقد كان من اعماله ايضا ان يسير امام الطعـام حتى يوضـع على المائدة السلطانية . وقد كان « بيبرس » قبل ان يلى السلطنة يشـغل وظيفة « جاشنكير » أى ذواقة للطعام ، وهى من الوظائف التى كانت لها اهمية خاصة فى البلاط السلطانى ، لأن شاغلها كان من أهم أعماله تذوق الطعام قبل ان يقدم للسلطان خشية ان يكون قد دس السم فيه ، وقد كان بحكم عمله هذا يشرف على اعداد الأسمطه ، ويقف بجانب السماط ، ومن هنا نلمس الصلة الوثيقة بين وظيفة « بيبرس » القديمة ووظيفته الجديدة التى عينه فيها السلطان .

على اننا يجب ان نشير الى ان « بيبرس » قد استناب عنـه فى وظيفته الجديدة الامير « سنجر الجاولى » صاحب الخانقاه الجاولية ذات الواجهة الرائعة المطلة على شارع مراسينه الممتد بين السيدة زينب والقلعة .

انتصار "الناصر" على المغول

ما كاد السلطان يستريح من متاعب رحلته من « الكرك » ، ويستريح كذلك من متاعب الاحتفال بعودته الى العرش ، حتى وردت الاخبار اليه بتهديد المغول لبلاد الشام ، فأمر فى الحال باعداد الجيش لتأديبهم .

وكان هو على رأس هذا الجيش ، كما كان معه ايضا الأمير « سلار » والأمير «بيبرس » . وعندما وصلوا الى دمشق ، خرج الاهالى لاستقبال السلطان وحاشيته ، ورحبوا بهم ترحيبا عظيما ، ثم سار السلطان بجيشه الى حمص وأقام بها بملابس الحرب ثلاثة أيام بلياليها حتى كاد يستولى عليه الملل والضجر ، ولكن سرعان ما وصلت الاخبار بانتصار فرقة من الجيش على العدو ففرح السلطان بذلك فرحا عظيما .

واشاع المغول انهم قرروا العودة الى بلادهم ، بعد ان علموا بعظم جيش « الناصر » ، وعدم قدرتهم على منازلته .

وانخدع السلطان والامراء بهذه الاشاعة التى لم تكن فى الواقع الا مكيدة دبرها المغول فاحسنوا التدبير ، وكانت النتيجة الطبيعية لها ان خفت حمية الجنود ، وتهاونوا فى واجباتهم ، وانتهز المغول ذلك فانقضوا عليهم ، وانزلوا بهم هزيمة شنعاء ، وفر جند « الناصر » الى دمشق تاركين وراءهم عتادا عظيما ، وسرعان

ما انقلبت الافراح التى لم يهنأوا بها طويلا الى احزان ، وفزع ، ورعب ، فخرج النساء فى دمشق حاسرات الوجوه ، لا يعرفن أين يذهبن وأطفالهن فى أيديهن ، وانشـغل كل شخص بنفسه عمن سواه كأنه كان يوم الحشر العظيم .

وعادت فلول الجيش السلطانى تجر اذيال الهزيمة ، وانهال العامة على الجنود شتما وتوبيخا ، وامعنوا فى ذلك امعانا شديدا ، والجنود لا يلتفتون اليهم ، ولا ينقمون عليهم بل يلتمسون لهم العذر فيما يفعلون . وقد لجأ بعض الجند الى تغيير ازيائهم فرارا من ألم هذا التوبيخ ومرارة ذلك التأنيب .

واخذ السلطان يبكى ويبتهل الى الله الا يجعله نحسا على المسلمين ، وكاد ، من هـول المصيبة أن يهم بالفـرار ، كما فر الآخرون ، ولكن بعض الأمراء المحيطين به كانوا يشجعونه على الثبات ، ويخففون وقع الخطب عليه بقولهم انها ليست هزيمة ولكن المسلمين رأوا من الحكمة ان يتقهقروا .

والواقع ان هذه الهزيمة التى لقيها جيش السلطان امام جيش المغول ، كانت درسا قاسيا لم ينسه « الناصر » طوال حيـاته ، درسا تلقاه قبل ان يصلب عوده ، ويكتمل شبابه ، ولذلك كان ألم الهزيمة يحز فى نفسه ، فأخذ يتحين الفرصة لفشل عار هـذه الهزيمة حتى اتيحت له ، ونال على المغول نصرا عظيما سـوف نذكره فى موضعه .

وما كاد الجيش السلطانى يعود الى الوطن بعد هذه الهزيمة ، حتى اخذ امراء المماليك فى الاستعداد للعودة من جديد الى بلاد

الشام لاخراج المغول منها ، فكتبوا الى سائر الجهات بالوجهين القبلى والبحرى لارسال الخيل والجمال والهجن ، وما قد يوجد لديهم من رماح وسيوف ، وجمعوا صناع الاسلحة وكلفوهم بالعمل ليلا ونهارا لانتاج أكبر كمية من الاسلحة .

وكلف « المحتسب » أن يحصل من الفقهاء على فتوى تمكن الحكومة من أخذ المال من الرعية للنفقة على العساكر ، فحضر « المحتسب » ، ومعه فتوى قديمة كانت قد صدرت فى حالة مشابهة تماما للحالة التى كانت تمر بها البلاد حينئذ اذ أفتى أحد العلماء فى أيام السلطان « قطز » قاهر المغول ، بأن يؤخذ من كل انسان دينار ، وطلب من قاضى القضاة « ابن دقيق العيد » أن يوافق على هذه الفتوى القديمة لكى يعطيها قوة التنفيذ ، ولكن قاضى القضاة رفض ذلك . ورفع الأمر الى الأمير « سلار » نائب السلطنة ، فشق عليه ذلك ، وبعث يستدعى قاضى القضاة الذى حضر ، وكان فى المجلس بعض الأمراء والعلماء . وشكا « سلار » من قلة المال فى الدولة ، وقال ان الضرورة وحدها هى التى دعت الى الرغبة فى الاستعانة بمال الرعية لأجل دفع العدو ، ورجا قاضى القضاة أن يوافق على الفتوى القديمة . ولكن « ابن دقيق العيد » أصرّ على الرفض ، ويظهر أن هذا الاصرار قد ضايق بعض الحاضرين فانبرى الى قاضى القضاة ينكر عليه اصراره على الرفض ، ويذكره بالفتوى القديمة ، فرد عليه القاضى قائلا : « ان تلك الفتوى لم يصدرها العالم الجليل « ابن عبد السلام » الا بعد أن أحضر سائر الأمراء ما فى ملكهم من ذهب ، وفضة ،

وحلى نسائهم ، وحلف كل منهم له أنه لا يملك سوى هذا القدر الذى أحضره ، ولما كان ذلك المال غير كاف أفتى بأخذ دينار من كل شخص ، أما الآن فأنا أعلم أن كلا من الأمراء له مال جزيل ، وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلىء ، ومنهم من يعمل الاناء الذى يستنجى منه فى الخلاء من فضة ، ومنهم من يرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر » .

وخيّم السكون على المجلس ، وخرج قاضى القضاة مطمئنا الى أداء واجبه ، ولم يجد نائب السلطنة مفرا من أن يصدر أمره الى والى القاهرة بالنظر فى أموال التجار والأغنياء، ويأخذ ما يقدر عليه من كل منهم بحسب حاله .

وهكذا كانت شجاعة هذا العالم الجليل فى الحق ، وعدم خشيته من ذوى السلطان سببا فى رفع الظلم عن العامة ، ولا ينبغى أن ننسى بهذه المناسبة أن المماليك على الرغم من استبدادهم ، وجبروتهم ، واستهانتهم بكثير من المثل العليا الا أنهم كانوا يخشون غضب رجال الدين ، ويقيمون لآرائهم وزنا عظيما ، وأن من العلماء من كان شجاعا فى قول الحق لا يخشى فيه لومة ، مثل « ابن دقيق العيد » وقد كان هؤلاء لسوء الحظ قلة .

وترامى الى الشعب خبر رغبة الحكومة فى تنفيذ الفتوى القديمة عليهم (قبل أن يقف ابن دقيق العيد وقفته سالفة الذكر) فحنق على الأمراء ، واستخف من جديد بالمماليك وصار الناس يذكرونهم بهزيمتهم قائلين لهم « بالأمس كنتم هاربين واليوم تريدون أخذ أموالنا » . ولما أمعن العامة فى جرأتهم هذه على

الجنود ، رؤى من الصالح العام أن يوقفوا عند حدهم فأصدرت الحكومة انذارا لهم بأن « أى عامى تكلم مع جندى كانت روحه وماله للسلطان » .

* * *

وبينما كان الاستعداد للحرب قائما على قدم وساق فى مصر ، جاء البريد بأن سلطان المغول « غازان » قد رحل عن دمشق ، وفى نفس الوقت وصل الى مصر وفد من قبل المغول ليعرضوا الصلح على مصر ، وكان الوفد مكونا من ثلاثة أشخاص : عراقى ، وايرانى ، وتركى . أما العراقى فكان قاضى مدينة الموصل وخطيبها ، وأما العضوان الآخران فكانا من الأمراء .

وقد استعدت الدولة لاستقبالهم ، فزين القصر السلطانى بالقلعة ، وأوقدت فى جوانبه الشموع ، وارتدى العساكر والأمراء ملابسهم الفخمة . ورحب بالضيوف أعظم ترحيب ، وبعد أن استقر المقام بهم ، قام القاضى الموصلى فخطب خطبة بليغة ، وجيزة فى فوائد الصلح ومزايا السلم ثم دعا للسلطان « الناصر » وللسلطان « غازان » ثم للأمراء . وبعد ذلك قدم الى السلطان كتابا خاصا من « غازان » مختوما بختم دولته ، ففتحه السلطان « الناصر » ، وقرىء ما فيه على الحاضرين فاذا « غازان » يذكر فيه أن عساكر السلطان الناصر قد دخلت فى العام الماضى أطراف بلاده وأفسدت فيها ، وانه أنف من ذلك وحضر الى بلاد الشام وهزم العساكر ، ثم عاد اليها فلم يخرج له أحد ، فرجع الى وطنه ابقاء على البلاد لئلا تخرب ، وأنه مستعد للحرب ولكنه يدعو الى الصلح .

وبعد أن سمع « الناصر » الخطبة التى ألقاها قاضى العراق ، وقرىء عليه كتاب « غازان » اجتمع بالأمراء على حدة ليشاورهم فى الأمر ، ويستطلع رأيهم فيما يجب عمله . وقد استقر الرأى على استدعاء قاضى العراق وقالوا له : « أنت من أكابر العلماء ، والنصيحة للدين ، ونحن ما نقاتل الا لقيام الدين ، فان كانت الدعوة الى الصلح من قبيل الحيلة والدهاء ، فنحن نحلف لك أن ما ستقوله سيبقى سرا بيننا لا يعلم به أحد سوانا » .

فحلف القاضى أنه يعتقد أن « غازان » ورجاله انما يبغون الصلح حقا حقنا للدماء ، ورغبة فى رواج التجار ومجيئهم ، واصلاح حال الرعية . ثم عقب على قوله هذا بأنه نصح الأمراء أن يستجيبوا لطلب الصلح على أن يظلوا على أهبة الاستعداد « وأنتم لكم عادة كل سنة تخرجون الى أطراف بلدكم لأجل حفظها ، فتخرجون على عادتكم فان كان هذا الأمر (أى الصلح) خديعة فيظهر لكم لتكونوا مستيقظين ، وان كان الأمر صحيحا فتكونون قريبين منهم ، فينتظم الصلح ، وتحقن الدماء فيما بينكم » .

وانفض المجلس ، وأمر « الناصر » باعداد الرد على كتاب « غازان » وقد فندت به كل الدعاوى غير الصحيحة التى جاءت فيه ثم ختم بهذه العبارة : « اذا جنح الملك للسلم جنحنا لها ، واذا دخل فى الملة المحمدية ممتثلا ما أمر الله ، مجتنبا ما عنه نهى ، وانضم فى سلك الايمان ، وتمسك بموجباته تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنّان ، وتجنب التشبه عمن قال الله فى حقهم : قل

لا تمنوا علىّ اسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ، وطابق فعله قوله ، ورفض الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله ، وأرسل الينا رسولا من جهته يرتل آيات الصلح ترتيلا ، ويرون خطابه وجوابه حتى يتلو كل أحد : يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، صارت حجتنا وحجته المركبة على ما خالف ذلك، وكلمتنا وكلمته قامعة أهل الشرك فى سائر الممالك ، ومضافرتنا له تكسب الكافرين هوانا ، والمشاهد لتصافينا يتلو قوله تعالى : واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعـداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وينتظم ان شاء الله شمل الصالح أحسن انتظام ، ويحصل التمسك من الموادعة والمصافاة بعروة لا انفصال لها ولا انفصام ، وتستقر قواعد الصلح على ما يرضى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام » .

وقبل أن يعود وفد « غازان » الى بلاده دعاهم السلطان الى حفلة صيد فى الصحراء ، وعند المساء دهش هذا الوفد ايمـا دهشة عندما رأى أن تلك الصحراء قد انقلبت الى شعلة من نور ونار ، وانتشرت فيها من الشموع ، والمشـاعل ، والفوانيس ما يخطئه العد ، فأحالت الليل نهارا . وقد اشتد اعجابهم عندما دعوا الى خيمة السلطان فشاهدوا فيها من أسباب الترف والعظمة ما يفوق الوصف ، وقد أمضوا مع السلطان فى خيمته بعض الوقت يتحدثون معه فى موضوعات شتى ، ثم أخذوا رده على كتاب سلطانهم « غازان » وارتدوا الى خيامهم ، وفى الصباح عادوا

الى بلادهم محملين بالهدايا الثمينة والانعامات الفخمة ، ولعل أروع ما أثر فى نفوسهم هو حسن زى عساكر مصر ودقة نظامهم .

وكانت دعوة « غازان » للصلح خدعة لجأ اليها ليكسب الوقت ، ويقف على أموال العدو ، اذ قدم البريد من حلب بأن « غازان » عازم على السير الى بلاد الشام ، وأن الناس هنالك فى ذعر شديد ، قد اضطربت أحوالهم ، وأخذ أهل دمشق يرحلون عنها تاركين وراءهم ما ينوء به كاهلهم ، ولجأوا الى المسجد الجامع وأقاموا به ، وأخذوا يضجون بالدعاء الى الله تعالى أن ينقذهم من هذا الكرب العظيم .

وأصدر « الناصر » أمره بتجهيز الجيش والاستعداد للحرب، وقد كانت الروح المعنوية لدى المحاربين فى هـذه المرة عظيمة جدا ، اذ كانت الهزيمة السابقة أمام المغـول لا تزال ماثلة فى الذهن ، وكانت عبارات العامة التى ألقوها حينئذ على الجنـد لا يزال صداها يرن فى آذانهم فيشعل حماستهم .

ووقف السلطان فى قلب الجيش ، وكان معه « سلار » ، « وبيبرس » وغيرهما من الأمراء ، وبجواره الخليفة ، والقراء يتلون القرآن الكريم ، ويحثون الجند على الجهاد ، ويشوقون الى الجنة ، وكان الخليفة يقول لرجال الجيش : « يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم ، قاتلوا عن دين نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وعن حريمكم » .

وسار الجيش حتى التقى بجيش المغول بالقرب من دمشق فى « مرج الصفر » وكانت حربا طاحنة ، أبلى فيها « سـلار »

و « بيبرس » بلاء حسنا ، ووضعوا فيها رءوسهم على أكفهم ، وكانوا فى شجاعتهم أحسن قدوة لباقى الأمراء الذين ألقوا بأنفسهم على الموت ، واقتحموا الصفوف بقلوب ملؤها الشجاعة.

ولجأ « المغول » الى خدعة حربية كان لها أسوأ الأثر ، اذ أذاعوا اشاعة كاذبة هى أنهم قد انتصروا ، فهاج أهل دمشق وماجوا ، وأقبل السواد الأعظم من الغوغاء على الخزائن السلطانية فكسروها ، ونهبوا ما فيها من الأموال ، وكشف النساء عن وجوههم ، وأسبلوا شعورهم ، وضج الجميع بالدعاء ، وبات السلطان وعساكره على ظهور الخيل ، والطبول تضرب من حولهم ، و « بيبرس » و « سلار » وغيرهما من الأمراء يجوبون خلال أقدامهم ، ويرتبون ما تشعث من صفوفهم ، ويؤكدون عليهم ضرورة التيقظ ، ويقولون لهم : « من خرج من الأجناد عن الصف فاقتلوه ، ولكم سلاحه وفرسه » .

وفى الحق لقد أظهر الجيش المصرى فى القتال فى ذلك اليوم من الشجاعة والفروسية ما يفوق كل وصف . وقد كان طبيعيا أن ينهزم المغول هزيمة منكرة ، اذ ركبهم المصريون ، وحصدوا رءوسهم حصدا ، وأسروا منهم عددا كبيرا .

وذاع خبر النصر فى كل مكان ، وكتبت البشائر فى البطائق ، وسرح الحمام الزاجل بهذا النصر العظيم الى سائر أنحاء البلاد . وخرج السلطان الى دمشق وسط عدد كبير من الفرسان ، وخرج اليه أهلها وهم يضجون بالدعاء له والشكر لله على هذا النصر المبين ، وتساقطت عبرات الناس فرحا ، وزينت المدينة من أقصاها

الى أقصاها ، ووزعت الهدايا ، والخلع واستمر الناس فى مسرات تتجدد حتى جاء عيد الفطر ، فصلى « الناصر » العيد فى دمشق ، وفى الثالث من شوال خرج عائدا الى مصر .

وفى مصر كانت الفرحة الكبرى فى انتظاره ، الفرحة بسلامته والفرحة بنصره ، وقد دخلها فى الثالث والعشرين من شـوال (عشرين يوما بين دمشق والقاهرة) وكانت الزينات الرائعة ممتدة من باب النصر الى باب السلسلة بقلعة الجبل ، وأحضرت سائر المغانى (أى المغنين والمغنيات) من أنحاء البلاد ، وتفاخر الناس فى عمل الزينات ، وتنافسوا فى ذلك فأقاموا القلاع (أى أقواس النصر كما نقول اليوم) فى الأماكن المختلفة ، وارتفع سعر الخشب وآلات التجارة بسبب كثرة ما أقيم من هذه القلاع ، وتفنن الناس فى تجميل تلك القلاع ، فوضعوا فيها الحلى والجواهـر واللآلىء ، وزينوها بأنواع الحرير . وكانت أروع هذه القلاع جميعا تلك التى نصبها « والى القاهرة » عند باب النصر عمـل بجوارها عدة أحواض ملأها بالسكر والليمون وأوقف بجوار هذه الأحواض مماليكه لكى يسقوا العسكر عند مرورهم .

ولما وصل السلطان الى باب النصر ، ترجل الأمراء جميعا بين يديه ، وحملت على رأسه القبة والطير (وهى مظلة من حرير أصفر مزركش فى أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب وكانت من رسوم سلاطين المماليك) . وحمل بين يديه العصا والدبوس (فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة أمثلة منها) . ومشى كل أمير فى منزلته ، وفرش كل منهم الشقق الحريرية من قلعته الى القلعة

التى تليه ، فكان السلطان يمشى على هـذه الشقق الحريرية بفرسه مشيا هينا من غير هرج ، بسكون ووقار لأن الأمراء كانوا يسيرون بين يديه . وكان السلطان كلما رأى قلعة أمير أمسك عن المشى ، ووقف يتأمل فيها ، ويعاين ما اشتملت عليه ، حتى يجبر بخاطر صانعيها . وعندما وصل السلطان بموكبه هذا الى باب البيمارستان المنصورى (أى مستشفى قلاوون) نزل ، ودخل وزار قبر والده ، وقرأ القراء أمامه .

ثم ركب السلطان الى باب زويلة (بوابة المتولى) ومن هناك سار على شقق الحرير حتى دخل القلعة ، وقد كثرت القلاع فى هذه الجهة حتى بلغت نحو سبعين قلعة .

ولم يكن الموكب مقصورا على السلطان وأمرائه ، وجنوده وقرائه ، بل كان يسير فيه أيضا أمراء المغـول الذين أسروا فى الحرب وهم مقيدون بالسلاسل ، ووراءهم بعض الجنود الذين أسروا أحياء وقد علقت فى رقابهم رءوس من قتلوا ، ثم ألف رأس أخرى محمولة على ألف رمح ، وبعد ذلك نحو من ألف وستمائة أسير معهم طبول مخرقة .

وقد أقبل أهل الريف للاشتراك فى هذا الفرح العظيم ، ومشاهدة موكب السلطان والاستمتاع بتلك الزينات الرائعة ، كما خرج أهل القاهرة جميعا ، وارتفعت أجـور كراء المنازل الواقعة على طريق موكب السلطان .

ووصل « الناصر » الى قصره فى القلعة ، ورحب به أهـل

القصر ترحيبا عظيما ، وكانت عبارات التهنئة والتبريك تتردد فى كل ركن من أركان القصر ، بل فى كل ركن من أركان قصـــور الأمراء ، وبيوت الناس وفى الشوارع والطرقات .

وفى الحق لقد كان يوما عظيما ، لم تشهد مصر مثله فى تاريخها الوسيط ، عمّ فيه الفرح والسرور جميع أفراد الأمة .

كسر شوكة الأعراب فى داخل البلاد

على أن هذا النصر المبين الذى أحرزه الناصر على المغول قد سبقه نصر آخر فى الداخل ، ونصر آخر فى البحر ، وكلاهما مع النصر السابق جعلت أيام « الناصر » كلها أعيادا مما زاد تعلق الشعب به .

أما النصر الذى تحقق فى الداخل فهو تخليص البلاد من شرور « الأعراب » الذين كانوا يعيثون فى البـلاد فسادا ، ينتهزون كل فرصة للنزول من الصحراء المحيطة بالبلاد الى القرى والمدن ، ينهبون ويقتلون ثم يهربون الى شعاب الصحارى ليختبئوا فى كهوف التلال . وقد استشرى فسادهم ، وضايقوا الناس فى معاشهم ، وحرموهم الأمن والطمأنينة ، وقطعوا الطـريق على التجار والأغنياء بأسيوط ومنفلوط ، وفرضوا عليهم ضرائب شتى كانوا يجبونها تحت التهديد والوعيد ، ولم يفلح الولاة فى كبح جماحهم ، فاستهتروا بالدولة ورجالها ، ومنعوا الخراج ، وأمعنوا فى استخفافهم بكل شىء ولم يسلم من شرهم حتى كبار رجال الدولة فتسمى زعماؤهم بأسماء أمراء المماليك ، وجعلوا لهم كبيرين سمى أحدهما « سلار » وسمى الآخر « بيبرس » تشبها بأكبر رأسين فى البلد بعد السلطان ، بل لقد زادت جرأتهم عندما

هجموا على السجون وأخرجوا المساجين ، وسيطروا على كل شيء في الريف ، والواقع أنهم كانوا يأنفون من الخضوع للمماليك ويقولون عنهم انهم عبيد خوارج ، أما هم فانهم أصحاب البلاد وأحق بالملك من المماليك .

وقد حارت الدولة فى أمرهم ، وأخيرا استصدرت من القضاة والفقهاء فتوى بجواز قتالهم ، ووضعت الحكومة خطة محكمة للقضاء عليهم ، فاستدعت متولى الجيزة أو محافظها ، كما تقول اليوم ، وأمرته بمنع الناس من السفر الى الصعيد فى البر أو فى البحر ، ثم أطلقت اشاعة أذاعتها فى طول البلاد وعرضها تقول ان الأمراء سيسافرون الى بلاد الشام لأمر هام ، وذلك سترا لتدبيرها ، واخفاء لخطتها ، وتقرر خروج أربع فرق : واحدة تتوجه الى البر الغربى ، وواحدة تتوجه الى البر الشرقى ، وواحدة تسير فى النيل ، والرابعة تسلك الطريق المألوف الذى يسلكه الناس . وتحركت هذه الفرق الى وجهاتها وهى تحمل الأوامر بقتل كل من تقع عليه العين من العربان كبيرا كان أو صغيرا ، جليلا أو حقيرا ، صبيا أو شيخا .

وخرجت الفرق الأربع وفيها الأمير « سلار » والأمير « بيبرس » واشترك « والى قوص » كذلك فيها ، ونجح هذا التدبير نجاحا عظيما ، ففوجىء الاعراب على حين غرة ، ووضع السيف فى رقابهم من الجيزة الى أعالى الصعيد ، ولم يترك أحد منهم الا قتل . وكان رجال هذه الفرق يميزون بين الاعراب وغيرهم بطريقة النطق ، فاذا ادعى واحد أنه ليس من الاعراب ،

وانه حضر ، طلب اليه أن ينطق كلمة « دقيق » فان قالها بالقاف أطلق سراحه أما اذا نطقها بالكاف عرف انه اعرابى فقتل .

وحاول الاعراب الفرار الى الجبال ، ولكن الأمراء أخذوا عليهم كل الطرق والمسالك ، وأخرجوهم من مخابئهم فى جانبى النيل حتى قوص ، واستطاع بعض الاعراب أن يختفوا فى بعض مغاور الجبال فأوقدوا عليهم النيران حتى هلكوا بأجمعهم ، وقد أسر منهم نحو من ألف وستمائة شخص .

واستولت الحكومة على أملاك هؤلاء الاعراب جميعا ، وعلى أموالهم وأسلحتهم ، وأغنامهم ، وخيولهم وأبقارهم .

وقد وزعت هذه الغنائم على من اشتركوا فى هذه الحرب ، ونال السلطان منها نصيبا وفيرا ، كما نال الأمراء والجنود والغلمان والقواد خيرا عميما .

ولقد انخفضت أسعار اللحم والمسلى والغلال انخفاضا ملموسا لكثرة ما تجمع من هذه السلع .

وبعد أن كسرت الدولة شوكتهم ، وتخلصت من شرورهم ، أصدر السلطان أمرا بالافراج عمن أسر منهم ، واعادتهم الى بلادهم .

انتصار "الناصر" على الصليبيين فى البحر

وأما النصر الذى تحقق فى البحر فقد جاء عقب القضاء على مفاسد العربان ، اذ وصل البريد يحمل أخبارا بأن الفرنجة الذين طردوا من مدينة « عكا » (أيام السلطان خليل بن قلاوون) قد أقاموا بضع سنين بجزيرة « قبرص » ، ثم نجحوا فى الاستيلاء على جزيرة صغيرة واقعة أمام ساحل مدينة « طرابلس » تعرف بجزيرة « ارواد » وغمروها بالعدد والآلات ، وأخذوا يهددون منها سواحلنا فى بلاد الشام .

وقد أصدر أمره ببناء أربع سفن حربية جديدة يستعان بها على القضاء على هذه القوة الأوربية الناشئة .

وبالفعل تم بناء هذه السفن ، واحتفل بهذه القوة البحرية الجديدة احتفالا عظيما ، فاجتمع النـــاس لمشاهدة المناورات البحرية ، وامتلأ شاطىء النيل من بولاق الى الروضة ، حتى انه لم يوجد موضع خال لقدم ، وارتفع كراء المراكب للمشاهدين الى ثمن لم يبلغه من قبل .

ووقف العسكر على بر بستان الخشاب (فى جاردن ستى الحالية بالقاهرة) وركب الأمـــراء السفن الصغيرة الى الروضة ، وبرزت قطع الأسطول الجديدة عند المقياس ، وأخذت تقوم بمناوراتها كأنها فى حرب حقيقية ، وأعجب الناس اعجابا شديدا

بما أبدته السفينة الأولى والسفينة الثانية والسفينة الثالثة من براعة ، واقدام ، وحسن استعمال لما فيها من الأسلحة المختلفة ، ثم تقدمت السفينة الرابعة وهى سفينة القائد البحرى ، وخرجت الى عرض النيل ، واذا بريح عاصفة تهب فتميل بالسفينة ميلا شديدا ثم قلبتها رأسا على عقب ، فصرخ الناس صرخة عالية ، وانقلب سرورهم حزنا وغما ، وتكدر ما كانوا فيه من صفو .. وأسرع البحارة الى نجدة السفينة الغارقة ، وأخرجوا من سقط من بحارتها فى الماء ، فنجوا جميعا الا القائد الذى مات شهيدا . وقد حزن عليه السلطان والأمراء حزنا شديدا ، وعادوا الى القلعة وانفض الحفل . وبعد ثلاثة أيام أخرجت السفينة الغارقة ، وأصلح ما وقع فيها من عطب ، وخرجت الحملة البحرية تحت امرة قائد آخر ، وتوجهت الى جزيرة « ارواد » وخربتها ، وسبى الجنود وغنموا وأسروا الشىء الكثير ، وطار الخبر الى السلطان فسر به سرورا عظيما ، ودقت البشائر بهذا النصر البحرى الذى أحرزناه وكتبنا به فى سجل قوتنا البحرية صفحة فخار .

وفى تلك الأثناء توفى الخليفة العباسى فى « مناظر الكبش » ، وحمل من منزله هناك الى جامع ابن طولون حيث صلى عليه . وسارت جنازته حتى دفن بالقرب من مشهد السيدة نفيسة ، ولا تزال مقابر الخلفاء العباسيين موجودة حتى اليوم خلف مشهد السيدة نفيسة بالقاهرة ، وتعد من أروع الآثار الاسلامية فى مصر . ومشى فى الجنازة رجال الصوفية ، ومشايخ الزوايا والربط ، والقضاة والعلماء والأعيان .

وأصدر السلطان « الناصر » أمرا بتعيين ابن الخليفة الراحل مكان أبيه ، وبعث اليه بخلعة الخلافة ، ثم أقيم بعد ذلك حفل عظيم فى القلعة بايع فيه السلطان الخليفة كما بايعه الأمراء والقضاة وأعيان الدولة ، وعد لذلك سماط عظيم كما جرت به العـادة ، ورسم السلطان بنزول الخليفة الى « مناظر الكبش » فى موكب عظيم ، وأجرى عليه الراتب الذى كان مقررا لوالده وزاد عليه .

ولقد كان الخليفة العباسى الجديد قريبا فى السن من السلطان « الناصر » ، لذلك قامت بينهما صلة وثيقة ، فكان الخليفة يركب مع السلطان عند الخروج للصيد أو الخروج للعب الكرة ، وصارا كأخوين على حد تعبير المقريزى .

* * *

وفى غمرة هذه الاحتفالات بأعياد النصر ، النصر على الأعراب فى الداخل ، والنصر على الصليبيين فى البحر ، والنصر على المغول فى البر ، انصرف الناس الى اللهو ومن حقهم أن يلهوا وأن يفرحوا بما أتاهم الله من خير . ولكنه يبدو أنهم أسرفوا فى لهوهم اسرافا شديدا خرجوا به عن الحدود التى رسمها الشرع الشريف ، فاستحقوا بذلك — كما رأى بعض المعاصرين وكما رأى أيضا فيما بعد شيخ المؤرخين المقريزى — لعنة الله وغضبه جزاء وفاقا للشرور التى ارتكبوها ، والحرمات التى انتهكوها ، والآثام التى وقعوا فيها .

وقد تجلى غضب الله عليهم فى ذلك الزلزال الذى فاجأهم بعد صلاة صبح الثالث عشر من شهر ذى الحجة سنة اثنين وسبعمائة

(١٣٠٢ م) فهز الأرض من تحتهم هزا عنيفا ، وسمعت للحيطان قعقعة شديدة ، وللأسقف أصوات عالية ، وصار الماشى يميل ، والراكب يسقط ، حتى خيل للناس أن السماء قد انطبقت على الأرض .

وخرج الناس الى الطرقات رجالا ونساء وأطفالا ، قد أعجلهم الخوف والفزع عن أن يحملوا شيئا معهم ، وعن أن يستر النساء وجوههم ، وكان ذلك أمر جلل فى تلك العصور وانتهز اللصوص ذلك فاقتحموا المنازل وحملوا منها ما أحبوا وما استطاعوا .

وتشققت الجدران ، وتساقطت الدور ، وانهدمت المآذن ، فاشتد الصراخ ، وعظم الضجيج والعويل ، ووضع كثير من النساء والحوامل ما فى بطونهن . ولم تكد دار فى القاهرة ومصر تسلم من تشعث بعض أجزائها أو سقوطها عن آخرها ، ولم تبق دار الا وعلى بابها التراب والطوب .

وسار الناس الى خارج القاهرة ، وبات أكثرهم فى الخيام التى نصبوها من بولاق الى الروضة ومما زاد الحالة سوءا هبوب رياح عاصفة ، فغاض ماء النيل حتى ألقى المراكب التى كانت بالشاطىء قدر رمية سهم ، وعاد الماء عنها فصارت على اليابس وتقطعت مراسيها ، واقتلع الريح المراكب السائرة فى وسط الماء وألقى بها على الشاطىء .

ولم يقتصر هذه الحال على القاهرة ومصر وحدهما ، بل كانت كذلك فى الصعيد وفى الوجه البحرى ، فقد جاءت الأخبار أنه هبت ريح سوداء فى الوجه القبلى أظلم بسببها الجو حتى لم ير

أحد أحدا قدر ساعة ، ثم ماجت الأرض ، وتشققت حتى ظهر من تحتها رمل أبيض ، وفى بعض المواضع رمل أحمر .

وفى الصعيد تخربت مدينة « قوص » ، أما فى الوجه البحرى فقد سقطت جميع دور مدينة « سخا » ، ولم يبق فى « دمنهور » بيت عامر ، وانشق منار الاسكندرية وسقط من أعلاه نحو الأربعين شرفة .

وظلت الأرض ترتجف فى البلاد عشرين يوما ، وهلك تحت الردم خلائق لا تحصى عددا ، وأصبح يخيل للانسان أن عدوا أغار على البلاد وخربها .

ويعقب المقريزى على هذه الكارثة بقوله : « وكان فى ذلك (أى الزلزال) لطف من الله بعباده ، فانهم رجعوا عن بعض ما كانوا عليه من اللهو والفساد أيام الزينة » .

ولقد أعقب هذا الزلزال حركة بناء واسعة ارتفعت بسببها تكاليف العمارة ارتفاعا كبيرا ، ذلك لأن الناس أقبلت على ترميم ما تشقق من دورهم ، وأخذت فى بناء ما تهدم منها ، كما أن أمراء المماليك قد تنافسوا فى ترميم المساجد التى تخربت مثل جامع عمرو ، والجامع الأزهر ، وجامع الحاكم بأمر الله ، وجامع الصالح طلائع ، وبعض أجزاء فى سور الاسكندرية .

وكأنما كان هذا الزلزال درسا للمماليك ، فقد ربطوا بين غضب الطبيعة الذى تجلى فيه ، وبين ما ارتكبه الناس من مفاسد فى أعياد النصر ، وظنوا أن التزام جانب الاعتدال فى الحياة ، والتمسك بالفضائل ينجى الناس من هذا الغضب ، ويجعلهم فى

مأمن من الكوارث ، ومن هنا نجد أن الأمير « بيبرس » قد أمر بابطال الاحتفال بعيد الشهيد بسبب ما كان يرتكب فيه من الآثام، ويقع فيه من الحوادث ، فالأقباط فى هذا العيد ، كانوا يأتون من سائر النواحى الى جهة « شبرا الخيمة » أو « شبرا الشهيد — كما يقول المقريزى ، لأنه كان يوجد بهذه القرية صندوق صغير من الخشب بداخله أصبع شهيد من شهداء النصارى يحفظ به دائما ، فاذا كان الثامن من شهر بشنس من الشهور القبطية ، يخرجون تلك الأصبع من الصندوق ، ويغسلونها فى بحر النيل لزعمهم أن النيل لا يزيد فى كل سنة الا اذا غسلوا فيه تلك الأصبع ، ثم يعيدونها بعد ذلك الى مكانها من الصندوق .

وقد اشتهرت تلك القرية باسم « شبرا الخيمة » لأن الناس كانوا يحتفلون بذكرى عيد الشهيد سنويا ، على اختلاف طبقاتهم، فى خيام ينصبونها على شاطىء النيل تجاه شبرا ويقيمون فيها مدة أيام العيد .

وكان أهل القاهرة يخرجون فى هذا العيـــد الى « شبرا » ويمتلىء البر بالخيم ، ويمتلىء البحر بالمراكب المشحونة بالناس ، ويركب النصارى الخيول للعب ، ولا يبقى صاحب غناء ولا لهو حتى يسهم فيه ، وتتبرج زوانى سائر البلاد ، ويباع فى ذلك العيد من الخمر قدر كبير جدا ، ويقول المقريزى أن أهالى شبرا كانوا يوفون خراجهم من ثمن الخمر التى يبيعونها فى ذلك العيد.

وطبيعى أن يقع فى مثل هذا العيد كثير من الحوادث التى

تنتهى بالقتل ، كما يقع فيه كثير من المعاصى والموبقات ، ومن هنا رأى الأمير « بيبرس » أبطاله .

وقد شق ذلك على النصارى ولكنهم سكتوا على مضض حتى اذا عاد « الناصر » الى عرشه فى سلطنته الثالثة أعاد الاحتفال بهذا العيد فسر الأقباط وسرّ الشعب كله بذلك سرورا عظيما .

* * *

ومنى الناصر فى هذه الفترة بوفاة والدته فجأة ، فأمر بأن تدفن مؤقتا فى تربة مجاورة لمشهد السيدة نفيسة ريثما يتم بناء قبر فخم لها يتناسب مع مكانتها ، وبالفعل أنشأ لها تربة عظيمة ، تغطيها قبة جليلة ، ألحقها بالمدرسة التى تحمل اسمه والتى ما كاد يكمل بناؤها فى سنة ثلاث وسبعمائة بعد الهجرة حتى نقل اليها رفات والدته .

وللمدرسة الناصرية قصة نحب أن نوجزها هنا نظرا لما ينفرد به هذا الأثر الاسلامى الذى لا يزال قائما حتى اليوم بجوار مستشفى قلاوون بالنحاسين فى القاهرة ، من ميزة لا تتوفر فى سواه من آثار مصر الكثيرة ، بل ويكاد ينفرد بهذه الميزة بين جميع العمائر الاسلامية فى مصر وخارج مصر ، ذلك أن طراز مدخل هذه المدرسة يختلف عن طراز بنائها اختلافا واضحا ، فهى تتبع طراز العمارة المملوكية فى كل تفاصيلها فيما عدا مداخلها فهو غريب عنها ، يسير على نهج طراز العمـارة القوطية ، ولا يمت للمدرسة بأية صلة ، اذ كان فى الأصل مدخلا لكنيسة لاتينيـة

شيدها الصليبيون فى مدينة « عكا » ، وعندما استولى السلطان « خليل » على هذه المدينة كما عرفنا وطرد الصليبيين منها أمر بتخريبها تأديبا لأهلها على ما ارتكبوه من مساوىء ضد العرب.

وقد نقل أحد الأمراء المرافقين للسلطان « خليل » المدخل سالف الذكر من مدينة « عكا » الى القاهرة ، ثم ابتاعه العادل كتبغا من هذا الأمير ، وشرع فى اعادة بنائه فى مدرسته التى كان قد شرع فى بنائها .

وتشاء الظروف أن يعزل العادل من السلطنة قبل أن يتم بناء مدرسته ، اذ لم يكن قد بنى فيها الا ايوانها القبلى وبعض الأجزاء التى تليه .

وأغلقت المدرسة وبطلت عمارتها ، ولما عاد الناصر الى السلطنة ثانية فى سنة ثمانية وتسعين وستمائة (١٢٩٨ م) حسن قاضى القضاة للناصر شراءها فاشتراها ، وأتم بناءها ، وعوض السلطان العادل كتبغا عن ثمنها ببعض ضياع من أملاكه فى دمشق .

وقد احتفظ الناصر بالمدخل القوطى سالف الذكر ، وجعله مدخلا لهذه المدرسة التى أصبحت تعرف بالمدرسة الناصرية .

ترى ما الدافع الى ادخال هذا العنصر الأجنبى فى هذا البناء الاسلامى وجعله عنوانا له ؟ ليس من المستبعد أن تكون الفكرة التى أوحت الى مهندس هذه المدرسة باستخدام هذا المدخل

الأجنبى فى البناء ، وجعله عنوانا عليه ، هى أنه أراد أن يعطى الناس دليلا ملموسا على الانتصار الباهر الذى أحرزه المصريون على أعداء العرب ، فكلما مر الناس بهذا البناء — وقد كان فى أهم بقاع العاصمة ، وأكثر شوارعها ازدحاما — تذكروا هذا العمل الجليل ، واستمدوا من هذه الذكرى قوة يواصلون بها الجهاد .

اغتصاب الأمير "بيبرس" للملك

وبدأ « الناصر » — بعد أن فقد والدته — يحس بمرارة الذل ، لأنه وهو السلطان الشرعى لا يملك من الأمر شيئا ، ولا يستطيع حتى أن يحقق أتفه الرغبات لسلطان عظيم مثله ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، لم يكن المرتب المخصص له كافيا لتحقيق ما تشتهيه نفسه من المأكل والمشرب ، ولولا ما كان يصل اليه من أملاكه الخاصة ، ومن أوقاف أبيه لما وجد سبيلا لتحقيق كل ما يطمع فيه ، وعلى سبيل المثال أيضا قد أراد يوما أن يحتفل بميلاد ولده « على » الذى رزق به من زوجته أردكين ، وكان يرغب فى أن يستمر هذا الاحتفال سبعة أيام متوالية ، ولكن الأمير ابن « سلار » و « بيبرس » لم يوافقا على ذلك وقررا الاكتفاء بيوم واحد فقط للاحتفال . وطبيعى أن يضيق صدر السلطان بهذا التصرف الذى يشعره أنه ما زال قاصرا ، مغلوبا على أمره.

على أن احساسه بالضيق من تصرف الأميرين قد ازداد عنفا مما حمله على التفكير فى التخلص من سيطرتهما عليه ؛ وأخذ يترقب الفرصة لذلك .

وخرج ذات يوم الى اقليم البحيرة للصيد ، ورأى أن يشترى لجواريه ونسائه هدايا من الاسكندرية قبل عودته الى القاهرة ، فطلب من الموظف المشرف على أمواله أن يدبر له ما يشترى به

هذه الهدايا ، ولكن هذا الموظف اعتذر بعدم توفر المال المطلوب، فأمره السلطان أن يستدين من تجار الاسكندرية ما يستطيع أن يشترى به هذه الهدايا . ولجأ الموظف الى رئيسه (ابن الشيخى) وأطلعه على الأمر ، ووصف له شدة رغبة السلطان فى تحقيق ما يطلبه ، وشدة استيائه من هذا التحكم فى شئونه وذلك التضييق عليه فى كل رغباته .

وتأثر « ابن الشيخى » لحالة السلطان ، وطلب الى مرءوسه أن يعود اليه ويخبره أنه (أى ابن الشيخى) سيحضر اليه ومعه ألفى دينار يشترى بها ما يريده . وفرح السلطان بهذا الخبر وترقب حضور « ابن الشيخى » بفارغ الصبر الى أن جاء ، وقدم له المال الموعود ، فانشرح صدر السلطان ، وانطلق لسانه بالشكر لابن الشيخى ، وبالشكوى من سلار وبيبرس لتضييقهما عليه فى كل شيء ، فهوّن عليه « ابن الشيخى » الأمر ، وذكره بأن مآل الأمر كله اليه ، وقوى عزيمته بقوله انه لن يصعب عليه أن يستخلص حقوقه من الأمراء ، ولو أدى ذلك الى استعمال القوة .

وعاد السلطان الى قلعة الجبل وهو يحمل لأهله وجواريه الهدايا الثمينة ، ويحمل فى قلبه عزما وتصميما على الاستئثار بالسلطة ، ويحمل فى أذنيه صدى كلمات « ابن الشيخى » التى ألهبت وجدانه وقوت من عزيمته .

واستدعى السلطان الأمير « بكتمر » وكان توسم فيه الاخلاص له ، وأحس بأنه من الذين يعطفون عليه ويشعرون بما يعانيه من ألم الحجر على حريته ، وفتح له قلبه وأشار صراحة

أنه يود أن يتخلص من الأمير ابن « سلار » و « بيبرس » ، فوافقه « بكتمر » على كل ما قاله ، وأخذ يدبر معه خطة لهذا التخلص .

ولكن هذه الخطة لم تنفذ لأن هذين الأميرين كانت لهما عيون فى كل مكان ، فسرعان ما وصلت اليهما أخبار الخطة واحتاطا لها ، وأحس السلطان بهذه الحيطة . وقد ظن أن الأمير « بكتمر » قد فضح تدبيره ، وغدر به ، ولذلك أصبح يتوقع المكروه من الأميرين .

وأشاع رجال السلطان بين العامة أن الأمراء يريدون قتل السلطان أو ابعاده عن مصر فعزّ عليهم ذلك لما كانوا يحسون به نحوه من حب عميق ، وعطف شديد ، وكانوا به متفائلين فقد كان عصر يسر ورخاء وعصر انتصار وعزة ، ولعلهم فوق هذا كانوا يؤمنون — بحكم تقاليدهم القديمة التى ورثوها عن الأجيال السابقة — انه صاحب حق فى عرش أبيه بحكم قانون الوراثة ، ولا ينبغى أن ينزع هذا الملك منه أحد كائنا من كان ، لذلك نراهم بعد أن ترامت اليهم هذه الاشاعة يتركون أعمالهم ويذهبون الى القلعة . وهناك رأوا رجال الأمير « سلار » والأمير « بيبرس » يحاصرون القلعة ، والسلطان واقف بأعلى الأسوار ، وعندئذ آمنوا بصدق هذه الاشاعة ، واشتدت حماستهم للابقاء على السلطان ، فبعثوا اليه من يحذره من كيد الأمراء ، ويطلب اليه أن يحترس لنفسه ، ولعلهم أحسوا بأنه لم يعد ملكا لنفسه بل هو ملك للشعب الذى أحبه والذى يريد أن يبقى عليه .

وأخذ أفراد الشعب يصرخون على الأمراء قائلين : « يا ناصر

يا منصور » . وسمع « الناصر » هذا الهتاف الذى شق أجواز الفضاء ، وأغلب الظن أنه تشجع بهذه القوة الشعبية التى عبرت عن نفسها فى وضوح ، فأخذ يسأل الأمراء المحاصرين له عن سبب هذا الحصار ، ويقول لهم : « ان كان غرضكم فى الملك فما أنا متطلع اليه ، فخذوه ، وابعثونى الى أى موضع أردتم » . وكان جواب الأمراء الحاضرين على هذا التساؤل أن سبب الحصار انما يعرفه السلطان نفسه ، ويعرفه المماليك الذين يحرضونه على الأميرين « بيبرس » و « سلار » . وأنكر السلطان أن يكون واحدا من مماليكه قد وشى بينه وبين الأميرين سالفى الذكر .

واشتد هياج العامة وصياحهم ، وتزايد عددهم عن ذى قبل ، وأراد المماليك قتالهم ، ولكن الأمراء منعوهم من ذلك رغبة فى تهدئة الحالة ، واكتفوا بالعمل على تفريقهم ، ولكن جاءت النتيجة عكس ما يتوقعون اذ اشتد الصياح : « يا ناصر يا منصور » . وتقهقر المماليك أمام ضغط الشعب وزحفهم ، وأفحش العـامة فى سبهم للمماليك ووصلت هذه الأخبار الى «بيبرس»و«سلار» فاستقر رأيهما على أن يبعثا من قبلهما بأمير ومعه بعض المماليك الذين يحملون « الدبابيس » وذلك بقصد تفريق العامة بالحسنى، ولكن فشل فى مهمته وزاد الهياج وتجاوبت صيحات الثائرين وهى تردد « يا ناصر يا منصور » وتقول : « الله يخون الخائن ، الله يخون من يخون ابن قلاوون » .

وزاد الهياج عن ذى قبل ، وتطور الى ما هو أسوأ اذ بدأ العامة يقذفون المماليك بالطوب ، ونفذ صبر هؤلاء ، فجردوا

سيوفهم ، وهموا بضرب الناس وكادت تقع مذبحة عظيمة لولا حكمة ذلك الأمير الذى ندبه سلار وبيبرس لتهدئة الحالة اذ تقدم من العامة وأخذ يلين لهم القول ، ويهدأ من ثورتهم قائلا : « طيبوا خاطركم فان السلطان قد طاب خاطره على أمرائه » . وما زال يقسم لهم أن السلطان قد رضى عن أمرائه حتى صدقه العامة واطمأنوا الى قوله وأخذوا يتفرقون ، وعـاد هو الى بيبرس وسلار ، ونقل لهما صورة صادقة لمـا رآه من تعلق الشعب بالسلطان .

ورأى بيبرس وسلار أن الحكمة تقضى باسترضاء السلطان فبعثا اليه برسول يطلب العفو عما وقع ، ثم تقدما اليه واعترفا له بأنهما ورجالهما من مماليكه وفى طاعته والتمسا منه أن يخرج من مماليكه من كانوا السبب فى هذه الفتنة ، ورفض السلطان فى أول الأمر أن يخرج أحدا من مماليكه وقال للأميرين ان سبب الفتنة انما هو الأمير « بكتمر » (وقد خيّل للسلطان انه هو الذى غدر به ، وفضح أمره ، ولذلك انتهز هذه الفرصة وأغرى به الأميرين) ، وطلب ابعاده من مصر ، وحاول بيبرس وسلار أن يخففا من حدة غضب السلطان عليه ولكنه أصر على ابعاده وقال لهما : « والله ما بقيت لى عين تنظر اليه ، ومتى أقام فى مصر فلا جلست أنا على كرسى الملك أبدا » فاضطر الأميران الى نقل « بكتمر » الى خارج مصر ، وعين نائبا فى صفد ووافق السلطان فى مقابل ذلك على أن ينفى بعض مماليكه ممن ظن الأميران أن لهم يد فى اثارته عليهما . ودخل الأمراء جميعا الى السلطان ،

وقبلوا الأرض بين يديه ؛ فعفا عنهم ، وخلع على سلار وبيبرس ورجاه الأميران أن يخرج فى موكب حتى يراه العامة ، وتطمئن قلوبهم عليه ، ويتأكدوا أن الفتنة قد خمدت ، وأن السلطان قد رضى عن الأمراء . واستجاب السلطان لهذا الرجاء ، وخرج فى احتفال مهيب تلقاه فيه العامة بالبشر والترحيب ، ثم عاد الى قصره ؛ وهدأت الأحوال فى البلاد فى الظاهر أما فى الباطن فقد كان الغليان لا يزال يغور فى قلب كل من الطرفين المتنازعين . فسلار وبيبرس ومن يمالئهما من الأمراء كانوا فى غيظ من هذا الحب الشديد الذى تكنه العامة للسلطان الذى فوت عليهما تحقيق ما كانا يسعيان اليه ، والسلطان كان هو الآخر فى غيظ لأنه لم يحقق ما كان يطمع فيه من الانفراد بالسلطة ولكنه لمس عن كثب مدى تعلق الشعب به وحبه اياه .

والواقع أن الشعب المصرى لم يحب سلطانا من سلاطين المماليك مثل ما أحب « الناصر محمد بن قلاوون » ، ولم يتجلى هذا الحب بصورة أوضح مما تجلى به فى هذه الواقعة التى أجملنا وصفها هنا ولكن هل كان هذا الحب وحده كفيلا بتثبيت عرش « الناصر » ، هل استطاع تأييد الشعب للناصر أن يكون سندا له يدفع عنه كيد أعدائه ؟ كلا فقد عزل « الناصر » بعد قليل ، أو على الأصح عزل نفسه بنفسه عندما لم يستطع أن يقاوم جبروت الأمراء الأقوياء ، ولكنه قد تعلم من غير شك درسا لم ينسه طوال حياته ، ذلك أن حب الشعب وحده لم يكن كافيا لتثبيت عرشه لأن قوة الرأى العام لم يكن لها فى ذلك العصر

وزن كبير فى تسيير الحوادث ، وتحقيق الأهداف ، ومن هنا كان لزاما على الناصر اذ أراد أن يوطد أركان عرشه أن يسترضى فريقا من أقوياء المماليك يكونون فى مثـل قـوة « بيبرس » و « سلار » حتى يستطيع الاطمئنان الى مركزه ، ولم يكن ذلك ميسورا فى تلك الآونة لذلك آثر الانتظار لعل الظروف تتغير .

والواقع أن تأييد الشعب للسلطان كان أمرا مفاجئا للأمراء لم يكن فى حسبانهم قط ، فهم لم يتعودا أن يروا للرأى العـام المصرى أثر ملموس مثل ذلك الأثر الذى شاهدوه ، بل لقد كان المألوف حينئذ أنهم اذا ما أبرموا أمرا من الأمور آمن الشعب على رأيهم أو على الأقل سكت ولم يحرك ساكنا ، أما فى هذه المرة فقد وجدوا معارضة قوية ، كلما حاولوا التفـاهم مع المتظاهرين علت هتافاتهم المدوية : « يا ناصر يا منصور ، الله يخون الخائن ، الله يخون من يخون ابن قلاوون » .

ويخطأ الذين يعتقدون أن شعبنا المصرى قد استسلم للذل والخنوع خلال تاريخه الطويل فتلك فرية افتراها علينا المستعمرون لكى يميتوا فينا روح الكفاح . اذ الواقع أن روح هذا الشعب لم تستسلم قط ، فقد كانت تثور على الظلم بين حين وآخـر . فاذا كانت الظروف المحيطة بها أقوى من طاقاتهـا سكنت على مضض واختزنت هذه الطاقات ثم تحفزت الى اطلاقها من جديد فى اللحظات المناسبة . ولم تستطع هذه القوى المختلفـة التى وضعها القدر فى سبيلنا وجعلها تسيطر علينا أن تطفىء شعلة الثورة

فى أنفسنا قط . فمن الخطأ البين أن نعتقد أن هذا الشعب قد انتابته فترة استسلام وجمود فى عصر المماليك ، ولعل فى هذه الصيحة التى دوت فى مصر فى هذه الحادثة الأخيرة أصدق رد على أولئك المفترين ففيها تعبير قوى عن هذه الحيوية .

* * *

وعاد الاحساس بالضيق يحتل كيان « الناصر » وينغص عليه عيشه ، ففكر فى الخروج من مصر والابتعاد عنها فترة من الزمن لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، وادعى كذبا أنه يريد أداء فريضة الحج ، وتحدث فى ذلك مع الأميرين « سلار » و « بيبرس » ، ووافقا على خروجه وأخذا فى الاستعداد لذلك ، وبدأ الأمراء فى تقديم الهدايا للسلطان بهذه المناسبة من خيل وجمال وغيرها وكان يتقبلها شاكرا .

وحان موعد السفر ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وخرج الشعب لوداعه ، وأخذ الناس يبكون حوله ، ويتأسفون لفراقه، ويدعون له بطول العمر ، والعود الحميد .

وقد خرج الأمراء وعلى رأسهم « بيبرس » و « سلار » لوداعه كذلك ، ولكنهم لم يترجلوا فى حضرته كما كانت العادة ، بل ظلوا على ظهور خيولهم مما يشعر بأن تصالحهم مع السلطان لم يمح من نفوسهم أثاره الموجودة ، وأن الغل ما زال كامنا فى نفوسهم .

ووصل السلطان فى حاشيته الى « الكرك » ، واحتفل أميرها

بقدومه فزين له القلعة والمدينة ، ومد الجسر على الخندق المحيط بالقلعة ، وأخذت تعبر عليه خيول حاشية الناصر وراء بعضها ، وعندما جاء دور الناصر وتوسط بفرسه هذا الجسر بدأت تتفكك أجزاء الجسر وكاد الناصر أن يقع فى الخندق هو وفرسه ، لولا أن شد الجنود عنان الجواد فقفز ولم يصب السلطان بسوء ولكن بعض الأمراء قد سقطوا وبعضهم قد مات .

وتوقع أمير « الكرك » أن يسىء السلطان الظن به ، وخشى أن يعتقد أنها مكيدة قد دبرت للقضاء عليه ، فتقدم منه وهو خائف وأخذ يشرح للسلطان اسباب هذه الكارثة ، قائلا ان الجسر كان له عدة سنين لم يـمد ، وان أخشابه قد تسوست لطول مكثه ، فأصبح قديما عتيقا ولم يستطع حمل رجال السلطان بعتادهم . فاقتنع السلطان بما ذكره « أمير الكرك » وخلع عليه خلعة سنية اثباتا لرضائه عنه ، ودفعا لكل شك حك فى صدره .

واستقر المقام بالسلطان ، وأمر بأن ينادى فى سكان الكرك أن لا يبقى منهم أحد فى القلعة ، كما طلب الى الرجال أن يخرجوا جميعا الى خارج المدينة ثم يعودون ومع كل منهم ثلاثة أحجار . وما كادوا يفعلون ذلك تلبية لأمر السلطان حتى صدرت الأوامر باغلاق باب القلعة ، وعندما عاد الرجال ومعهم الأحجار وجدوا الباب موصدا ، وقيل لهم كل من له ولد أو حـريم عليه أن يستدعيه ، فخرج من بالقلعة جميعا بمتاعهم وأولادهم وأموالهم، وما أمسى المساء حتى لم يبق فيها أحد غير الناصر ومماليكه ، ويقال أن السلطان قد فعل ذلك لكى يأمن على نفسه لأنه كان

يخشى أن يتآمر عليه أهالى الكرك ويسلمونه الى « سلار »
و « بيبرس » .

وجمع « الناصر » من كان معه من الأمراء ، وعرفهم انه لن يذهب الى الحج ، وأنه قرر الاقامة فى الكرك ، وترك السلطنة ، وخلع نفسه منها حتى يستريح من متاعبها ، ويريح غيره منه ، وقد بكى الأمراء عند سماعهم ذلك ، وقبلوا الأرض بين يديه ، وكشفوا عن رءوسهم متضرعين اليه أن يعدل عن هذا الرأى ، ولكنه أصرّ عليه ، وأمر الأمراء بالعودة الى مصر ، وأعطاهم الهجن التى كانت معه برسم الحج وكانت عدتها خمسمائة هجين، كما أعطاهم أيضا الجمال والمال الذى أهداه له الأمراء عند خروجه من مصر ، وقد طلب اليهم أن يعرفوا « سلار » و « بيبرس » والأمراء هناك أنه قد عدل عن الحج هذا العام ، وأقام بالكرك ، ونزل عن السلطنة ، وهو يرجو الانعـام عليه بولاية الكرك والشوبك . ثم استدعى كاتب السر وأمره أن يكتب خطابا الى سلار وبيبرس احتفظ لنا به المؤرخ ابن تغرى بردى فى كتابه « النجوم الزاهرة » وهذا هو نص الخطاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

حرس الله تعالى نعمة الجنابين العاليين ، الكبيرين ، الغازيين، المجاهدين ، وفقهما الله تعالى توفيق العارفين .

أما بعد فقد طلعت الى قلعة الكرك ، وهى من بعض قلاعى وملكى ، وقد عولت على الاقامة فيهـا ، فان كنتم مماليكى ،

ومماليك أبى فأطيعوا نائبى « سلار » ولا تخالفوه فى أمر من الأمور ، ولا تعملوا شـيئا حتى تشاورونى فأنا ما أريد لكم الا الخير ، وما طلعت الى هذا المكان الا لأنه أروح لى ، وأقل كلفة ، وان كنتم ما تسمعون منى فأنا متوكل على الله والسلام » .

وقد جاء فى رد أمراء المماليك على النـاصر ما يأتى بعد الديباجة :

« ... ما علمنا ما عولت عليه ، وطلوعك الى قلعة الكرك ، واخراج أهلها ، وتشييعك نائبها ، وهذا أمل بعيد . فخلّ عنك شغل الصبى ، وقم واحضر الينا ، والا بعد ذلك تطلب الحضور ولا يصح لك ، وتندم ولا ينفعك الندم ، فيا ليت ، لو علمنا ما كان وقع فى خاطرك ، وما عولت عليه ، غير أن لكل مُلْك انصرام ، ولانقضاء الدولة أحكام ، ولحلول الأقدار سهام ، ولأجل هذا أمرك غيك بالتطويل ، وحسن لك زخرف الأقاويل ، فالله الله حال وقوفك على هذا الكتاب ، يكون الجواب حضورك بنفسك ومعك مماليكك ، والا تعلم انا ما نخليك فى « الكرك » ، ولو كثر شاكروك ، ويخرج الملك من يدك والسلام » .

وعندما قرأ الناصر رد الأمراء عليه قال : « لا اله الا الله ! كيف أظهروا مافى صدورهم ؟ » ثم أمر باحضار آلة الملك مثل العصائب ، والسناجق وغيرها مما كان معه من شعارات الملك وأرسلها الى مصر مع الرسول الذى حمل اليه رد الأمراء عليه ، وقال للرسول : « قل لسلار ما أخذتُ لكم شيئا من بيت المال ، وهذا الذى أخذته قد سيرته اليكم ، وانظروا فى حالكم ، فأنا

ما بقيت أعمل سلطانا وأنتم على هذه الصورة ، فدعونى أنا فى هذه القلعة منعزلا عنكم الى أن يفرج الله تعالى اما بالموت واما بغيره » .

ولنترك « الناصر » مؤقتا فى الكرك لنعود مع الرسول الى مصر حيث قابل الأميرين « سلار » و « بيبرس » وسلم لهما رد « الناصر » فعلقا عليه قائلين ان الناصر ما عاد — فى نظرهما — يصلح للعرش ، وانه اذا ما أعادته الظروف الى حكم مصر فلا يمكنهما أن يأمنا غدره . ثم أخذا يتشاوران مع باقى الأمراء ، ومع الخليفة العباسى ومع القضاة ، واجتمعوا معا فى مجلس حيث قرىء عليهم كتاب « الناصر » سالف الذكر ، وشهد القضاة بنزول « الناصر » عن العرش ، وترك سلطنة مصر والشام ، وأثبتوا ذلك ، ثم استقر الرأى على أن يعهد للأمير « سلار » بالملك ، ولكنه اعتذر بأنه لا يصلح له ، والذى يصلح فى نظره هو الأمير « بيبرس » ثم نهض من مجلسه ، واتجه الى حيث كان « بيبرس » جالسا ، وبايعه بالملك وسارع الأمراء بعده الى « بيبرس » يبايعونه ويقولون «لقد صدق الأمير سلار فيما قال».

ولكن « بيبرس » اشترط أنه لا يقبل الملك الا اذا كان « سلار » نائبا للسلطنة ، وعندئذ تقدم الأمراء الى « سلار » يرجونه قبول هذه الوظيفة فقبلها بعد تمنع شديد .

ودقت البشائر فى قلعة الجبل باختيار الأمير « بيبرس » سلطانا على البلاد ، ومشى الأمير سلار والأمراء جميعا بين يديه ، وساروا معه حتى وصل الى العرش ، فتقدم منه وجلس عليه وهو

يبكى بحيث يراه الناس . وهكذا انتهت سلطنة « الناصر » الثانية بعد أن حكم عشر سنين وخمسة أشهر وسبعة عشر يوما .

وعرف الناس بتنازل « الناصر » عن العرش ، وتوقعوا نشوب الفتنة بين مماليك « سلار » ومماليك « بيبرس » فقد كانا هما أقوى الأمراء جميعا ، وهما اللذان يطمعان فى الملك ، وقد توهموا انهما سوف يتنازعان على العرش ، ولكن اختيار « بيبرس » على الصورة التى أشرنا اليها قد قضى على هذا الوهم .

وطيّر خبر اختيار « بيبرس » للسلطنة الى أمراء الأقاليم ومعه مقاليد جديدة بتعيينهم فى وظائفهم صادرة من السلطان الجديد ، ومن بينها تقليد للملك الناصر بنيابة « الكرك » وفيه منشور باقطاعه مائة فارس وكتاب من السلطان « بيبرس » يقول فيه : « لقد أجبت سؤالك فيما اخترته ، وقد حكم الأمراء على فلم أتمكن مخالفتهم » . وعندما استلم الناصر هذا الكتاب وما معه من تقليد ومنشور أظهر البشر ، وأمر الحراس أن يصيحوا باسم « الملك المظفر بيبرس » وخطب له فى يوم الجمعة على منبر جامع الكرك .

ولم يرحب بعض الأمراء الآخرين بسلطنة « بيبرس » ترحيب « الناصر » ، فنائب دمشق (الأفرم) عندما حضر اليه رسول السلطان « بيبرس » قال : « بئس والله ما فعله الملك الناصر بنفسه ، وبئس ما فعله « بيبرس » ! وأنا لا أحلف لبيبرس — وقد حلفت للملك الناصر — حتى أبعث الى الناصر » . وبالفعل نجد أن « الأفرم » قد بعث الى الناصر فى الكرك يسأله فى هذا الأمر ،

فرد الناصر بالشكر والثناء على « الأفرم » وبأنه قد ترك الملك فليحلف لمن يولونه . وعلى أثر ذلك قرىء تقليد الظاهر للأفرم على دمشق فى المسجد على العادة وخطب باسمه فى المسجد .

ونائب « حماه » طلب الى رسول « بيبرس » اليه ابراز كتاب تنازل الناصر عن العرش ، ولما أطلع عليه أنكر أنه بخط « الناصر » ، وقال ان الانسان حتى ولو كان وكيلا فى قرية لا يعزل نفسه بطيبة خاطر ، وأضاف انه لابد لهذا الأمر من سبب .

ونائب « حلب » اعتذر بأنه أقسم للملك « الناصر » ألا يخونه ، أو يتحالف مع غيره عليه ، أو يتواطأ عليه ، أو يفسد ملكه ، فكيف يقسم لبيبرس يمين الولاء ، وختم كلامه للرسول قائلا : « والله لا يكون هذا أبدا ، ودعوا يجرى ما يجرى ، وكل شىء ينزل من السماء تحمله الأرض ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » .

وكتب بعض أمراء الشام ممن لم يوافقوا على سلطنة « بيبرس » خطابات الى الناصر يوجهون فيها اللوم اليه لتنازله عن العرش دون أن يشاور أحدا منهم ، وقد وعدوا بأن يعيدوه الى ملكه أو يموتون دون ذلك : « فاما نأخذ لك الملك واما نموت على خيولنا » .

وعندما قرأ « الناصر » خطابات هؤلاء الأمراء قال لمن حوله ان هؤلاء الأمراء لا يمكنهم ارجاعه الى العرش لأن الأغلبية أصبحت مع بيبرس ، ووافقت على تعيينه سلطانا على مصر

والشام ، وعندما اعترض أحد الحاضرين على ذلك وقال بل ان هؤلاء الأمراء قادرين على ارجاعه الى العرش تبسم الناصر وتمثل بقول الشاعر :

كن جـريا اذا رأيت جبـانا وجبـــانا اذا رأيت جـريا
لا تقاتل بواحـد أهل بيت فضعيفان يغلبـــان قـويا

وأردف بعد انشاده هذا الشعر قائلا : « ان الأمــر لا يتم الا بحسن التدبير وبالمداراة ، وبالصبر على الأمور » ثم بعث الى هؤلاء الأمراء الموالين له بخطابات يشكرهم فيها على ولائهم ، ويطلب اليهم التأنى والصبر ، ونكتفى هنا باثبات الكتاب الذى بعث به الى والى « حلب » حيث يقول الناصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم

حرس الله تعالى نعمة المعز العالى الأبوى الشمسى ، ومتعنا بطول حياته ، فقد علمنا ما أشار به ، وما عول عليه ، وقد علمنا قديما وحديثا انه لم يزل على هذه الصورة ، وأريد منك أن تطول روحك علىّ ، فهذا الأمر ما ينال بالعجلة ، لأنك قد علمت انتظام أمراء مصر والشام فى سلك واحد ولا سيما (الأفرم) ومن معه من اللئام ، فهذه عقدة لا تنحل الا بالصبر ، وان حضر اليك أحد من جهة المظفر (بيبرس) وطلب منك اليمين له فقدم النية انك مجبور ومغصوب ، واحلف ، ولا تقطع كتبك عنى فى كل وقت ، وعرفنى بجميع ما يجرى من الأمور قليلها وكثيرها » .

ويكشف لنا هذا الخطاب عن سياسة « الناصر » وبعد نظره، فهو من غير شك لم يكن زاهدا فى الحكم ، ولكنه كان يريده

خالصا له ، مبرءا من كل شائبة ، ومن هنا دبر حياة الخروج الى الحج ، ومن هنا كذلك لم يستخفه كلام الأمراء بمعاونته على استرداد عرشه لأنه كان يرى ضعفهم أمام قوة «بيبرس» ، ولذلك لم يكن الوقت الذى وصلت اليــه فيه خطابات التأييد ملائما للقيام بأى حركة ضد المغتصبين ، ولعل « الناصر » عندما قال لنائب حلب « ان هذا الأمر لا ينال بالعجلة » كان يطمع فى أن تخدمه الظروف فيقع الشقاق بين « سلار » و « بيبرس » ، وتتعقد الأمور أمام الســلطان وتكثر المشاكل لديه ، ويضيق الشعب بحكمه ، ويستاء الأمراء من تصرفاته ، فرأى أن يصبر بعض الوقت لتنكشف حقيقته ، وحينئذ يسهل القضــاء عليه ، واسترداد العرش الذى اغتصبه .

وينبغى أن أشير هنا الى ما قد يتخيله بعض القراء من وجود تشابه بين قبول السلطان «كتبغا» لأن يصبح واليا على صفد ، وقبول السلطان « الناصر » لأن يصبح واليا على « الكرك » فهو تشابه فى الظاهر فقط أما فى الحقيقة فالبون شاسع بين الحالتين ، والفرق واضح لا يفتقر الى ايضاح .

وطبيعى أن يعرف بيبرس بأمر هؤلاء الأمراء الذين عارضوا فى بيعته ولم يوافقوا على سلطنته وقد تضايق من تصرفهم هذا ، وشاور « سلار » فى أمرهم وفيما ينبغى عمله مع هؤلاء الخارجين عليه ، فأشار عليه أن يكتب لهم كتبا رقيقة يقــرهم فيها على ولاياتهم ، ويعفيهم من دفع أى شىء .

ولكن « بيبرس » عارض هــذا الرأى فى أول الأمر ، وقال

« اذا فرقت البلاد عليهم ما يساوى ملكى شــيئا » . فرد عليه « سلار » ردا يكشف بأوضح صورة عن خلق المماليك اذ قال له : « وكم من يد تقبل عند الضرورة وهى تستحق القطع ، فاسمع منى ، وأرضيهم فى هذا الوقت ، فاذا قدرت عليهم بعد ذلك افعل بهم ما شئت » . فاقتنع « بيبرس » بهذه النصيحة ، ووافق على اقتراح « سلار » وبعث الى ولاة الأقاليم المعارضين له بالتقاليد ومعها الخلع والهدايا وخطاب رقيق يبرر فيه تربعه على عرش السلطنة ويقول انه لم يقبلها الا بعد تنازل « الناصر » عنها ، ثم يرجوهم أن يكونوا عونا له ، وقد احتفظ لنا المؤرخون بخطابه الى والى « حلب » الذى كان من أشد المعارضين له ، وقد جاء فيه : « ... وأنت تعلم أن البلاد لا تكون بلا سلطان ، فلو لم أقبل أنا كان غيرى يتقدم ، فاجعلنى واحدا منكم ، ودبرنى برأيك ، وهذه حلب وبلادها لك ولمماليكك » .

ولم يكن أمراء الشام وحدهم على صلة بالملك الناصر ، بل كان هناك أيضا بعض أمراء مصر ممن كانوا ناقمين على الحكم القائم فيها ، وراغبين فى عودة الناصر الى عرشه ، وقد كان هــؤلاء كذلك على صلة بالناصر يكاتبونه طوال مدة اقامته فى الكرك ، ولقد وصل اليه بالفعل بعض المماليك الناصرية تاركين فى مصر أولادهم وبيوتهم — على حد قول ابن اياس فى بدائع الدهور — ولم يخف هذا الأمر على « بيبرس » فكتب الى الناصر يطلب ما عنده من الخيل ، ومن لديه من المماليك ويهدده بالنفى ان لم يكف عن الاتصال بالأمراء . وقد كان كتاب التهديد هذا بمثابة

الشرارة التى أشعلت الحرب على « بيبرس » ، وكانت بداية العمل الثورى الذى بدأه « الناصر » لاسترداد ملكه .

ذلك أنه كتب الى نواب الشـام يستنجز وعدهم بمعاونته على استرداد عرشه ، وقد احتفظ لنا ابن اياس فى الجزء الأول من تاريخه بهذا الخطاب نذكر منه ما يأتى : —

« ... لما اشتد علىّ الضنك من الأمراء ، خرجت من مصر ، وتركت لهم الملك ، ورضيت من الدنيا بأحقر المساكن ، وأضيق الأماكن ، ليستريح خاطرى من النكد ، فما تراجعـوا عنى ، وأرسل المظفر بيبرس يهددنى بالنفى الى القسطنطينية مثل أولاد الظاهر بيبرس ، وأرسل يطلب منى ما لا أقدر عليه ، وأنتم تعلمون ما لوالدى الملك المنصـور عليكم من حق العتق والتربيـة ، وما أظنكم ترضون لى بهذا الحال . فاما أن تكفوا عنى أذى هؤلاء الأمراء الذين يتعصبون علىّ ، واما انى أتوجه الى بعض بلاد التتار ، وألتجىء اليهم قبل ما يرسلنى الملك المظفـر الى الكفـار » .

وقد كان لهذه الرسالة أبلغ الأثر فى نفوس بعض الأمراء فكتبوا اليه يقولون انهم ، ومماليك أبيه طوع يده . متى أراد أن يتحرك للتوجه الى الديار المصرية .

وأخذ هو فى الاستعداد لاسترداد عرشه ، وعرف المصريون كما عرف « بيبرس » بهذا الاستعداد ففرح الشعب وأخذ يترقب عودة السلطان الشرعى اليه ، أما « بيبرس » فقد اشتد غمـه وضاقت عليه الأرض بما رحبت ولم يجد طريقة للتنفيس عن هذا

الضيق الا أن يبعث الى الناصر برسول لكى يأخذ ما عنـده من مماليك ومن خيل .

ولم يكن هذا الرسول لبقا فى تبليغ رسالته ، بل لعله قد أوحى اليه أن يكون فظا فى مخاطبة « الناصر » ، شرسا فى معاملته. وطبيعى أن يقابل « الناصر » الفظاظة بمثلها ، والشراسة بما هو أشد منها وأنكى ، فأمر بأن يُجر هذا الرسول من حضرته ، وأن يرمى من فوق أسوار القلعة ، وأشبعه المماليك الحاضرون سبا وتجريحا ثم أخذوا يجرونه — تنفيذا لأمر الناصر — الى السور لالقائه منه ، ولكن الناصر تمالك نفسه فى اللحظة الأخـيرة ، واستدعى الرسول وقال له « لقـد تركت لبيبرس ملك مصر والشام ، أما كفاه هذا حتى بعثك لتأخذ فرسا عندى أو مملوكا لى ، قل له ان لم يتركنى ذهبت الى بلاد المغول ، وأعلمتهم انى تركت مُلك أبى ، وأخى ، وملكى لمملوكى وهو مع ذلك يتابعنى ، ويطلب منى ما أخذته » . ثم ترك الرسول يعود الى مصر ماشيا على قدميه .

ولما وصل الرسول الى مصر ، ومثل بين يدى « بيبرس » وصف له كل ما وقع له وأخبره بكل ما قاله « الناصر » ، غضب ، واشتد قلقه ، وبعث الى سلار يستشيره فى الأمر ، وبينما هما يتشاوران وصلت اليهما اشاعة تقول ان الناصر قد خرج من قلعة الكرك ولم تعرف وجهته . فأصدرا أمرهما بالاستعداد للحرب والتحفظ على جميع الطرقات المؤدية الى مصر .

وعرف « بيبرس » أيضا أن جماعة من أمراء المماليك فى مصر

قد دبروا مؤامرة لقتله ، ولكن أمرها قد انكشف وخاف الأمراء على أنفسهم فهربوا الى الكرك . فبعث وراءهم بخمسمائة جندى بغية القبض عليهم قبل وصولهم الى الكرك ، ولكن يبــدو أن الجنود كانت قلوبهم مع المتآمرين فتباطأوا فى سيرهم حتى يتركوا الفرصة للهاربين لكى يختفوا عن الأنظار ، ثم وصل الجنود الى « غزة » دون أن يلتقوا بالهاربين ، وأقاموا فى غزة اياما ثم رجعوا الى مصر ودخــل زعمــاؤهم الى « بيبرس » واخبروه انهم لم يستطيعوا اللحاق بالمتآمرين ، وانهم عرفوا انهم انضموا فعلا الى الناصر فى الكرك . فاشتد غيظ « بيبرس » وزاد كربه ، وكاد أن يقتله الحنق فأمر لفوره بالكتابة الى « النــاصر » لاعادة هؤلاء الأمراء الفارين ، وختم كتابه هذا بتهــديد قال فيه : « وان لم تسيرهم ، سرت اليك ، وأخذتك معهم وأنفك راغم » .

واما الامراء الهاربون فقد وصلوا الى الكرك ، ومثلوا بين يدى الناصر وأنشد واحد منهم :

انت المليك وهــــذه اعناقنــــــا
خضعت لعز علاك يا ســـــلطانى

أنت المرجّى يا مليك فمن لنــــــا
أســدا ســواك ومالك البــلدان

ولم يسكت « الناصر » على تهديد « بيبرس » بل بعث اليه بكتاب انخدع به بيبرس وظن أن الناصر قد خضع له وخاف من تهديده ، ومن شدة فرحته بهذا الخطاب عرضه على نائبه «سلار» وبعد أن قرأه هذا التفت الى « بيبرس » وقال له « ألم أقل لك

ان الملك الناصر ما بقيت له قدرة على المعاندة ، وقد أصبح ملك الشام ومصر طوع يدك » أما هذا الخطاب الذى يدلنا على أن « الناصر » كان سياسيا بارعا فقد جاء فيه :

« المملوك محمد بن قلاوون يقبل اليد العالية المولوية السلطانية المظفرية ، أسبغ الله ظلها ، ورفع قدرها ومحلها ، وينهى بعد رفع دعائه ، وخالص عبوديته وولائه ، أنه وصل الىّ المملوك « نوعيه ومغلطاى » وجماعة من المماليك ، فلما علم المملوك بوصولهم ، أغلق باب القلعة ، ولم يمكن أحد منهم يعبر اليه ، وسيرت اليهم ألومهم على ما فعلوه ، وقد دخلوا على المملوك بأن يبعث ويشفع فيهم ، فأخذ المملوك فى تجهيز تقدمة (هدية) لمولانا السلطان ويشفع فيهم ، والذى يحيط به علم مولانا السلطان أن هؤلاء من مماليك السلطان ، وقد استجاروا بالمملوك ، والمملوك يستجير بظل الدولة المظفرية ، والمأمول ألا يخيب سؤاله ، ولا يكسر قلبه ، ولا يرده فيما قصد ، وفى هذه الأيام يجهز المملوك تقدمة مع المماليك الذين طلبهم مولانا السلطان ، وأنا ما لى حاجة بالمماليك فى هذا المكان ، وان رسم مولانا ، مالك الرق ، أن يسير نائبا له (بالكرك) ينزل المملوك بمصر ، ويلتجىء بالدولة المظفرية ، ويحلق رأسه ، ويقعد فى تربة الملك المنصور ، والمملوك قد وطن نفسه على مثل هذا ، وقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه « ما أقرب الراحة من التعب ، والبؤس من السقم ، والموت من الحياة » . وقال بعضهم : « اياك وما يسخط سلطانك ، ويوحش اخوانك ، فمن أسخط سلطانه فقد تعرض للمنية ، ومن

أوحش اخوانه فقد تبرأ عن الحرية » . والمملوك يسأل كريم العفو والصفح الجميل ، والله تعالى قال فى كتابه الكريم وهو أصدق القائلين : « والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » . والمملوك ينتظر الأمان والجواب » .

وهكذا استطاع « الناصر » أن يخدع « بيبرس » ، وأن يعطيه صورة كاذبة عن نفسه ، فقد أخذ عقب ارساله هذا الخطاب يستعد ليوم الفصل ، اليوم الذى يسترد فيه عرشه ، وخرج بالفعل من الكرك قاصدا دمشق .

* * *

على أننا ينبغى أن نعرف موقف أمراء الشـــام من حركة « الناصر » قبل أن يقدم هو الى بلاد الشام .

أما نائب صفد الأمير « بكتمر الجوكندار » فقد طرد رسول الناصر اليه ولم يجتمع به كراهية منه للناصر لأنه سبق أن أساء اليه وتسبب فى نقله من مصر كما أسلفنا ، ولكنه عندما علم بأن معظم الأمراء قد أصبحوا فى جانب الناصر غير موقفه السابق وانضم هو الآخر الى الناصر .

وأما نائب حلب فقد أحسن استقبال رسول الناصر وأكرم وفادته ، ووافق على أن يقوم الناصر بحركة فى سبيل استرداد عرشه ، ووعده بالسير الى دمشق لمقاومته وأما نائب حماه فقد كتب الى الناصر يقول انه مع نائب حلب فى كل ما يقرره .

وأما نائب دمشق « الأفرم » فقد كتب اليه الناصر يقول « السلطان الناصر يسلم عليكم ويقول ما منكم أحد الا وأكل خبز

الشهيد والده وخبزه ، وما معكم الا من انعامه ، وأنتم تربية الشهيد والده ، وانه قاصد الدخول الى دمشق ، والاقامة فيها ، فان كان فيكم من يقاتله ويمنعه العبور فعرفوه » . ورد «الأفرم» على هذا الخطاب قائلا بعد الديباجة : « كيف يجيء الناصر الى الشام أو الى غير الشام ، كأن الشام ومصر الآن تحت حكمه ! أنا لما أرسل اليّ المظفر (أى بيبرس) أن أحلف له ما حلفت حتى بعثت أقول له كيف يكون ذلك وابن أستاذنا باق ؟ فأرسل يقول « أنا ما تقدمتُ عليه حتى خلع نفسه ، وكتب خطه ، وأشهد عليه بنزوله من الملك ، فعند ذلك حلفتُ له . ثم فى هذا الوقت تقول من يردنى من الشام ؟ » . وقد ختم « الأفرم » خطابه بأنه سيكتب الى « بيبرس » ويرجعه عن طلب الخيل والمماليك ، وهو يعنى بذلك أن يكف « بيبرس » عن مضايقة « الناصر » ، وأن يرضى « الناصر » بما هو فيه من ولاية « الكرك » .

ولكن حركة « الناصر » فى السير نحو دمشق قد اشتدت ، وبعثت الرعب فى نفس « الأفرم » فكتب الى « بيبرس » يشرح له الموقف ، ويسأله أن يبعث اليه بجيش يشترك مع عسكر دمشق فى ايقاف « الناصر » عند حده ، ثم أثنى الى الأمراء والقضاة وجمعهم ، ونادى فيهم : « يا معشر أهل الشام ما لكم سلطان الا الملك « المظفر » فصرخ الناس فيه : « لا ! لا ! ما لنا سلطان الا الملك الناصر » ، وأسقط فى يد « الأفرم » ، وعرف أن الأمر قد انفرط من يده ، وأشار عليه بعض الأمراء أن يكتب للناصر يستغفره فيما بدر منه ، وبعث اليه « الناصر » بكتاب الأمان ،

ولما قدم الناصر الى دمشق نزل عن فرسه وأقبل على « الأفرم » الذى أكبر نزول السلطان له ، فتقدم منه وهو يرتجف من الخوف، وقبل الأرض بين يديه ، ويقول المؤرخون انه كان يحمل كفنه تحت ابطه . ورأى العامة آيات الذعر الشديد مرسومة على وجه « الأفرم » فأخذتهم الشفقة عليه وصاحوا : « يا مولانا السلطان بتربة والدك الشهيد لا تؤذيه » ، وبكى الحاضرون ، واستجاب السلطان لهذا النداء فأكرمه ، وخلع عليه ، وأقره على نيابة دمشق ، فضج الناس بالدعاء له وهكذا استولى « الناصر » على دمشق بغير قتال .

ولنترك « الناصر » فى دمشق يدير امره ونعود نحن الى مصر لنرى ما كان من امر « بيبرس » فانه منذ ان تولى الحكم والظروف السيئة قد اصطلحت عليه كما اصطلحت على الأمير كتبغا من قبل ، فجاء النيل منخفضا ، وارتفع سعر القمح ، وتحكم الأمراء فى الثمن الذى يشتريه به العامة ، وتفشت بين الناس أمراض كثيرة ، وعز الحصول على الدواء اللازم فضاق الناس ذرعا بهذه الحياة وتمنوا زوالها .

ولقد ازدادت كراهيتهم لسلطانهم الذى اقترن بحكمه هذا البلاء انه قرر ابطال الخمور من البلاد ، وندب أحد أمرائه لتنفيذ ذلك ، وطلب اليه ألا يراعى فى التنفيذ أحدا وأن يستوى لديه الأمير والحقير ، ولا يدع بيتا بمصر والقاهرة سواء كان بيوت أعلى الناس أو بيوت أدناهم دون أن « يكبسه » متى علم أن فيه خمرا ، ويريق تلك الخمر ويكسر أوانيها . وانتهز بعض الناس

هذه الفرصة فكانوا يكيدون لبعضهم البعض عن طريق الارشاد عن وجود الخمر فى المنازل ، كما انتهز الجنود والعامة فرصة تفتيش المنازل بحثا عن الخمر فنهبوا وسلبوا أشياء نفيسة وحصلوا من ذلك على ما أغناهم — على حد تعبير المقريزى — ولما اشتدت وطأة هذا التفتيش سعى الأمـراء الى السلطان لكى يمنعـه فاستجاب الى طلبهم .

ولقد ترجم الناس عن كراهيتهم لهذا السلطان بأغنية كانوا يرددونها فى المناسبات المختلفة ، ولم ينسوا فيها أن يعبروا عن حبهم للناصر وعن تفاؤلهم به ، ولعله من الطريف أن نثبتها هنا فهى دليل جديد على مدى حب الشعب للسلطان « الناصر » . تقول الأغنية :

سلطاننا ركين (يقصدون « بيبرس » لأن لقبـه كان ركن الدين) .

ونائبنا دقين (يقصدون « سلار » فلم يكن فى لحيته غير شعرات قليلة) .

يجينا الماء من أين (يقصدون « الناصر » فقد أصيب بعرج

تجيبوا لنا الأعرج فى ساقه الأيمن) .

يجى الماء يتدحرج

وهكذا لم يهنأ « بيبرس » بالحكم ، فالشعب يكرهه ، وبين الأمراء من كان يخافه ولا يحبه ، والوساوس أخذت تشغل باله من ناحية « سلار » فقد ترامى الى سمعه أنه يتواطأ مع «الناصر» ضده . وأكثر من كل هذا أنه قد وصلت اليه أخبار تفيد خروج

« الناصر » من الكرك واتجاهه الى دمشق فزاد اضطرابه ، واشتد نحيب قلبه ، وتضاعفت مخاوفه ، فصار لا يهنأ له نوم ، ولا يطيب له عيش ، ولقد كان أجدى عليه بعد أن رأى أن جميع الظروف ضده أن يبادر بالتنازل عن العرش الذى اغتصبه ، ولكنه ركب رأســه .

وحاول أن يلقى آخر ما فى جعبته من سهام ، فأصدر أمره بتجهيز الجيش للسفر الى بلاد الشام لملاقاة « الناصر » هناك ، واعتذر هو عن الخروج مع الجيش كما جرت العادة بذلك ، بأنه يكره الفتنة وسفك الدماء !!

وخرج المنادون فى أرجاء البلاد ينادون « سلطانكم هو الملك المظفر ، وطيبوا قلوبكم ، ومن تكلم فيما لا يعنيه قتل » .

ولا شك أن مثل هذا النداء يدل على أن الشعب كان ايمانه قد تزعزع فى السلطان الجالس على العرش ، وهو فى الحقيقة لم يخلص له الولاء يوما ما ، بل كان قلبه دائما مع سـلطانه الشرعى « الناصر محمد بن قلاوون » ، ولذلك كان عندما يسمع نداء المنادين لبيبرس يبتسم ابتسامة تنم عن معنى الاحتقـار والازدراء .

ولجأ « بيبرس » الى الخليفة العباسى لكى يعاونه فى محنته هذه ، ويساعده على تثبيت قواعد عرشه الذى بدأ يهتز تحتـه اهتزازا عنيفا ، وأخذت تظهر أمام عينيه بداية النهـاية التى لا مفر منها ، وأشار الخليفة العباسى بتجديد البيعة له ، وبالفعل اجتمع فى القصر مع الأمراء والأعيان ، وحضر القضاة والفقهاء ،

وجددوا جميعا الأيمان للسلطان « بيبرس » وأكدوا أنهم باقون على طاعته ، ملتفون حول عرشه .

وأصدر الخليفة عهدا جديدا لبيبرس محاولا بذلك العمل على أن يزيل مخاوفه ، ويثبت أقدامه على العرش ، وهذا العهد يعطينا صورة من التقاليد (أى المراسيم) التى كان يصدرها الخلفاء العباسيون عادة عندما يثب الى العرش سلطان جديد ، وقد جاء فيه : « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين ، أبى الربيع سليمان بن أحمد العباسى لأمراء المسلمين وجيوشها ، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم . وانى رضيت لكم بعبد الله تعالى الملك المظفر ركن الدين « بيبرس » نائبا عنى لملك الديار المصرية والبلاد الشامية ، وأقمته مقام نفسى لدينه ، وكفايته ، وأهليته ، ورضيته للمؤمنين ، وعزلت من كان قبله بعد علمى بنزوله عن الملك ، ورأيت ذلك متعينا علىّ ، وكلمت بذلك الحكام الأربعة ، واعلموا رحمكم الله ، أن الملك عقيم وليس بالوراثة لأحد خلف عن سالف ، وكابر عن كابر ، وقد استخرت الله تعالى ووليت عليكم الملك المظفر فمن أطاعه فقد أطاعنى ، ومن عصاه فقد عصانى ، ومن عصانى فقد عصى أبا القاسم ابن عمى صلى الله عليه وسلم . وبلغنى أن الملك الناصر ابن الملك المنصور شق العصا على المسلمين ، وفرق كلمتهم ، وشتت شملهم ، وأطمع عدوهم فيهم ، وعرض البلاد الشامية والمصرية الى سبى الحريم والأولاد وسفك الدماء ، وتلك دماء

قد صانها الله من ذلك ، وأنا خارج اليه ، ومحاربه ان استمر على ذلك ، ولأدفع عن حريم المسلمين وأنفسهم وأولادهم هذا الأمر العظيم ، وأقاتله حتى يفيء الى أمر الله تعالى ، وقد أوجبت عليكم يا معشر المسلمين كافة الخروج تحت لوائى — اللواء الشريف ، فقد اجتمعت الحكام على وجوب دفعه وقتاله ان استمر على ذلك ، وأنا مستصحب معى لذلك السلطان المظفر ، فجهزوا أرواحكم والسلام » .

وصدرت الأوامر الى خطباء المساجد بأن يقرأوا هذا التقليد يوم الجمعة فى المساجد ، وقد استقبلته العامة بفتور واضح ، وعلقوا عليه أبلغ تعليق يكشف عن شعور الشعب ، ويترجم عن موقفه فى تلك الآونة من مجرى الأمور فى بلاده ، اذ صاحوا معا قائلين : « لا ما نريده ! لا ما نريده » عندما ذكر الخطيب اسم الملك المظفر « بيبرس » . أما عندما ذكر الخطيب اسم الملك الناصر هتفوا من أعماق قلوبهم قائلين « نصره الله ، نصره الله » . ويعلق المؤرخ « العينى » على هذه الحادثة فى كتابه « عقد الجمان » ان خطبة الجمعة بطلت بسبب ما أظهره العامة من الصياح وعدم الانصات .

واضطربت الأحوال فى البلاد اضطرابا شديدا ، وكان « بيبرس » قد وافق على تأمير سبعة وعشرين مملوكا ، وأعدت العدة للاحتفال بهذه المناسبة ، وذهب المماليك الى المدرسة المنصورية لكى يلبسوا خلع الامارة كما جرت العادة بذلك ، واجتمعت العامة لمشاهدة الاحتفال ولكن لأمر ما صدرت الأوامر

بتأجيل الاحتفال وانفض العامة وهم يرددون فيما بينهم « يا فرحة ما تمت » . وسقطت هيبة السلطان فى النفوس وفقد احترامه عندهم ، وشاع بين العامة التهجم على مقامه ، الأمر الذى حمل الحكومة على القبض على جماعة من الناس اتهموا بسب السلطان وقد حكم عليهم بالجلد والتشهير ، ولكن هذا الحكم لم يزد العامة الا غليانا وكرها للسلطان القائم وحكومته .

وازدادت الحالة سوءا واستدعى « بيبرس » نائبه « سلار » والأمراء لكى يتشاوروا فيما ينبغى عمله ازاء ما تعانيه البلاد من فوضى . ورأى « سلار » أن يتنازل « بيبرس » عن العرش ، ويكتب الى الناصر كتابا يرجوه فيه الصفح ويلتمس تعيينه فى مكان يتوجه اليه هو وعياله ، فليس من المستبعد أن يستجيب الناصر لهذا الرجاء . وقد بنى رأيه هذا على ما شاهده من انصراف عدد من أمراء المماليك الى الناصر وانضمامهم اليه ، ومن عزم الناصر على استرداد عرشه ، ومن خشيته — ان لم ينفذ « بيبرس » ما اقترحه عليه أن يفوت الوقت وتقع الكارثة .

وقد أمن الأمراء الحاضرون على ما قاله « سلار » ، وفكر « بيبرس » قليلا ثم انضم معهم فى الرأى وقام لساعته وكتب الى الناصر خطابا يتضمن ما أشار به « سلار » وقد ختمه بهذه العبارة: « ... فان حبستنى عددتُ ذلك خلوة ، وان نفيتنى عددتُ ذلك سياحة ، وان قتلتنى كان ذلك لى شهادة » .

وعلى اثر ذلك أعلن « بيبرس » خلع نفسه من السلطنة

بحضور قضاة مصر الأربعة ، وأصدر « سلار » أمرا باسقاط اسمه من خطبة الجمعة والعيدين واعادة اسم الناصر اليها .

وأخذ « بيبرس » من خزائن الدولة من الذهب والخيل ما أحب وما استطاع أن يحمله ، وخرج مع مماليكه من القلعة . وسرعان ما ذاع خبر نزوله عن العرش وخروجه من القلعة فى البلاد ، فأسرع العامة الى القلعة ، واجتمعوا له هناك متربصين خروجه ، وما كاد يبرز لهم حتى صاحوا عليه بأنواع السباب ، وتبعوه وهم يرددون تلك الهتافات العدائية ، وأسرفوا فى ذلك اسرافا شديدا بل أقدم بعضهم الى ما هو أشد من الكلام فأخذ يلقى عليه الحجارة ، وشق ذلك على مماليك « بيبرس » وهموا بالرجوع الى العامة ، ووضع السيف فى رقابهم ولكن بيبرس منعهم من ذلك وأمر بأن ينثر عليهم المال حتى ينشغلوا بجمعه عنه وعنهم ، فأخرج كل واحد من المماليك حفنة من الذهب ونثرها فلم يلتفت العامة لذلك وتركوا الذهب وواصلوا جريهم وراء بيبرس ورجاله وهم يفحشون فى أقوالهم مما اضطر المماليك الى تجريد سيوفهم والهجوم على العامة فهرب هؤلاء وسافر بيبرس ومماليكه الى الصعيد .

ولقد عبر الشعر عن مدى كراهية الشعب لبيبرس وتعلقهم بالناصر أحسن تعبير وأصدقه اذ يقول أحد الشعراء :

ولى المظفر لما فاته الظفر

وناصر الحق وافى وهو منتصر

وقد طوى الله من بين الورى فتنا
كانت على عصبة الاسـلام تنتشر
فقـل لبيبرس ان الدهـر ألبسـه
أثواب عارية فى طولهـا قصـر
لمـا تولى تولى الخـير عن أمـم
لم يحمـدوا أمره فيها ولا شكروا
وكيف تمشى به الأحوال فى زمن
لا النيل أوفى ولا وفاهـم مطـر

القسم الخامس

الناصر محمد بن قلاوون
فى
سلطنته الثالثة

عودة الناصر الى عرشه
الناصر والمؤامرات
الناصر فى حياته الخاصة
الناصر فى حياته العامة :
الناصر والمماليك
الناصر والشعب
الناصر وكبار موظفى دولته
الناصر والتعصب الدينى
الناصر والدول الأجنبية .
الناصر والتعمير
الناصر والتقدم الاقتصادى
بداية النهاية
وفاة « الناصر »

عودة الناصر إلى عرشه

عاد الناصر الى عرشه ، وتربع عليه للمرة الثالثة ، وكان عمره خمسة وعشرون عاما ، فهو لم يعد — كما كان من قبل — ذلك السلطان المغلوب على أمره ، الذى لا يملك من أمره شيئا ، تعصف به العواصف فتقصيه عن ملكه ولما يمض عليه فى سلطنته الأولى أكثر من سنة ، ثم يستقر فى محبسه فى قلعة الجبل تارة ، وفى قلعة الكرك تارة أخرى .

ويستدعيه الأمراء من الكرك ليجلس على العرش مرة ثانية ، ويستمر عشر سنوات أو تزيد قليلا تحت وصاية الأمراء ، ثم تعصف به العواصف مرة ثانية ، ولا يطيق البقاء محجورا عليه ، فيلجأ الى الحيلة ، ويخرج الى الكرك بحجة أنه خارج للحج .

أما الآن فقد أنضجته التجـارب التى مرت به ، وفتحت الحوادث التى وقعت له جميع ملكاته المختلفة ، فاستطاع أن يعود الى العرش قويا ، موفور الكرامة ، واستطاع أن ينفرد بالحكم دون منازع .

ولقد كانت الدروس التى تلقاها فى ماضى حياته ماثلة أمام عينيه ، لا تغيب عن خاطره ، فكان حريصا على ألا يترك نفسه لعبة فى أيدى أمراء المماليك ، فتتكرر مأساة حياته السابقة عندما كانوا يجلسونه على العرش تارة ، ويصرفونه عنه تارة أخرى ، ثم

يردونه اليه ، ويستأثرون من دونه بالسلطة والنفوذ ، فيضيق صدره عندما يحس فى أعماق نفسه أنه أضعف من أن يحقق لنفسه أتفه الأمور ، أو يؤثر فى مجرى الحوادث فى بلاده ، ويرى من الحكمة عندئذ أن يترك الميدان مؤقتا ويغادر البلاد ، ولكن عينيه كانت مفتوحة عليها ، يتبع أحوالها ولا يغفل عن مجريات الأمور فيها ، ثم يترقب الفرصة المناسبة للعودة ، حتى اذا سنحت هذه الفرص — كما رأينا — اقتنصها ، وعاد الى عرشه أصلب عودا ، وأوسع خبرة ، وأقوى على مواجهة المشكلات من ذى قبل .

* * *

فلنخرج الآن معه من محبسه فى قلعة الكرك ، ولنذهب معه الى دمشق حيث تلقاه الأمراء الذين وقفوا الى جانبه ضد « بيبرس » بالترحاب ، وخرجت اليه العامة مهللة ، مكبرة ، صائحة « ينصر الله الملك الناصر » ، وحيث يردد خطباء المساجد اسمه على المنابر بعد أن أسقطوا اسم « بيبرس » استجابة لأمر « سلار » الذى أسلفنا الاشارة اليه فى آخر الفصل السابق .

ولقد لبست « دمشق » أبهى حلاها وتزينت للسلطان الجديد بأجمل زينة ، وهرع الأهالى على اختلاف طبقاتهم الى السلطان مهنئين ، مقدمين له الهدايا المختلفة من ثياب ، وخيول ، ومماليك ، فكان يلقاهم بالبشر ، وينعم عليهم كل بحسب منزلته .

وسار الناصر ومن معه من الأمراء الى عاصمة ملكه ، الى القاهرة ، وعندما وصل الى مدينة « غزة » استقبله الناس أحسن استقبال .

ثم واصل السير حتى وصـــل الى القاهرة ، فتلقاه الشعب بالبشر والفرح ، وأقيم له احتفال عظيم بُدىء فيه بتلاوة القرآن الكريم فبدأ المقرىء قراءته بترتيل الآية الكريمة : « قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير » .

ثم تبارى الشـــعراء فى انشاد قصائدهم ، مترجمين فيها عن فرحة الشعب بعودة سلطانه الحبيب ، ولا تتسع هذه الصفحات لاثبات هذه القصائد جميعا ، ومن أرادها يجدها فى كتب مؤرخينا القدامى من العرب أمثال المقريزى وابن تغرى بردى وابن اياس وغيرهم ، أما نحن هنـــا فنكتفى من تلك القصـــائد الكثيرة بقصيدتين تؤرخ كل واحدة منهما للأحداث المختلفة التى مرت بالناصر وبالبلاد ، أما الأولى فنذكر منها :

وحين آل اليـــك الملك وامتثلت
منه المراســـيم فى ورد وفى صدر
اعرضت عنه لأســـباب علمت بها
وخبر شـــهرتها يغنى عن الخـــبر
وعدت ثانية يقظان محترســـــا
وبت من كيد من تخشى على حـــذر

وهذه العودة الغـــراء ثالثـــــة
يقضى لك الحق فى أيامـــك الأخر
فارقت ملكك مختـــارا لفرقتـــه
بنية العـــود تسليما الى القـــدر
وبعدما سرت عن مصر وســـاكنها
وغبت عنها وعنهم غيبة القمــــر
لاموك فى كل ما دبرت من حيـــل
أليفة وصــفوها منــك بالضـجر
فالشمس أحسن ما تجلى اذا بزغت
من بعد غيبتها ليلا عن النظــــر

وأما القصيدة الثانية فنختار منها :

الملك عـــاد الى حمـاه كما بدا
ومحمــد بالنصر سرّ محمـــــدا
وايابه كالسيف عـــاد لغمـــده
ومعـــاده كالورد عـــاوده النـدى
الحق مرتجـــع الى أربـــابه
من كف غاصـــبه وان طال المـدى
يا ناصرا من خـير منصـــور أتى
كمهند خلف الغـــداة مهنـــدا

آنست ملكا كان قبلك موحشـــا

وجمعت شـملا كان منه مبـــددا

فالناس أجمع قد رضـوك مليكهم

وتضرعوا ألا تزال مخــــلدا

* * *

وكان فى الحفل الشاعر « ابن المرحّل » ، وقد أقبـل على السلطان وقبّل يده ، فالتفت اليه السلطان وسأله : ألم تقل فى قصيدة لك : « ما للصبىّ وما للملك يكفله » ، فارتبك الشاعر وأقسم بالله انه ما قال هذا ، وانما هم الأعداء الذين أرادوا اتلافه فزادوا فى قصيدته هذا البيت ، ثم التمس العفو من السلطان فعفا عنه ، ويعقب المقريزى على هذه الحادثة بأن هذا الشاعر كان قد مدح بالفعل السلطان « بيبرس » الذى اغتصب ملك الناصر كما عرفنا ، بقصيدة عرّض فيها بذكر « الناصر » منها هذا البيت الذى ذكر « الناصر » صدره .

ما للصبى وما للملك يكفـــله

شـأن الصبىّ بغير الملك مألوف

واستأذن شاعر آخر كان فى الحفل هو (ابن عدلان) فى أن يدخل على السلطان ليهنئه فلم يأذن له السلطان وأرسل اليه من

يذكره بأنه قد سبق له أن قال ان السلطان « خارجى » وان قتاله جائز ، ولا يصح له بعد ذلك أن يمثل بين يدى السلطان .

وقد علق السلطان على طلب (ابن عدلان) بأنه يكفيه ، ويكفى الشاعر (ابن المرحل) ما قاله فيهما الشاعر الماجن «الشارمساحى» عندما ذكر فى قصيدة له :

ومن يقوم ابن « عـدلان » بنصرته
و « ابن المرحل » قل لى كيف ينتصر ؟

ودخل الخليفة على السلطان ، وتقدم اليه لتهنئته ، فالتفت اليه السلطان وسأله « كيف تحضر وتسلم على خارجى ؟ هل كنت أنا خارجيا و « بيبرس » من سلالة ابن العبـاس » فلم ينطق الخليفة بشىء ولاذ بالصمت ، ولم ينصر « الناصر » له هـذا الموقف ، وأعرض عنه كل الاعراض وما زال يكدر عليه المشارب ويتلمس له الأخطاء حتى وصل الى علمه أنه يكثر من اللهو ويتدخل فى شئون الدولة ، فأمر باعتقاله فى القلعة لمدة خمسة شهور وبضعة أيام ثم أخرج منها وأرسل به الى قوص .

والتفت السلطان الى القاضى « ابن عبد الظاهر » وكان هو الذى كتب تقليد الخليفة الثانى للسلطان السابق ، وقال له : « يا أسود الوجه » فقال القاضى من غير توقف : « يا خوند ! ابلق خير من أسود » فقال له « الناصر » : « ويلك ! ألا تترك رنكه أيضا » ، وكان « الناصر » يعنى بذلك أن هذا القاضى كان

ممن ينتمى الى الأمير « سلار » ، وكان رنك « سلار » (أى شعاره) أبيض وأسود .

ثم التفت السلطان الى قاضى القضاة (ابن جماعه) عنـــدما تقدم اليه لكى يهنئه بعودته الى عرشه ، وسأله : « يا قاضى ! كنت تفتى المسلمين بقتالى ؟ » فأجاب القاضى : « معاذ الله أن تكون الفتوى كذلك ، انما الفتوى على مقتضى كلام المستفتى » .

الناصر والمؤامرات الداخلية

وانتهت حفلات الاستقبال ، وهدأت أصوات المهللين ، وساد السكون فى البلاد ، وابتدأ « الناصر » يضع خطة يثبت بها قواعد عرشه حتى لا تعصف به العواصف من جديد .

وطبيعى أن يعمل أول ما يعمل على تأمين نفسه ضد الطامعين فى ملكه ، والمتآمرين على حياته والراغبين فى الحيلولة بينه وبين تحقيق أمانيه .

وأخذ فى النظر فى أمر « بيبرس » و « سلار » اللذين اغتصبا ملكه ، وضيقا عليه الخناق . وبدأ بيبرس فأمر بالقبض عليه ، وحمل اليه وهو مقيد بالحديد ، وعندما مثل بين يديه ، قبل الأرض ، وأمره « الناصر » بالجلوس ثم أخذ فى تأنيبه ، وصار يعدد له ذنوبه ، فيقول : « أتذكر يوم صحت علىّ بسبب فلان ، ورددت شفاعتى فى حق فلان ، ويوم منعت عنى بعض ما طلبته من المال ، ويوم حرمتنى السكر والحلوى باللوز » وكان «بيبرس» أثناء ذلك صامتا لا ينبس ببنت شفة ، ولكنه عندما سكت السلطان بدأ يستعطفه قائلا :

« يا مولانا السلطان ، كل ما قلته فعلته ، ولم يبق الا مراحم السلطان ، وايش يقول المملوك لأستاذه » .

وهنا رد عليه الناصر قائلا :

— يا ركن ! أنا اليوم أستاذك ، وأمس كنت تقول لى عندما طلبت أوزا مشويا « ايش يعمل بالأوز ، هو الأكل عشرون مرة فى النهار »

وسكت بيبرس عن الجواب ، وأمر السلطان بخنقه ، وعندما مات دفن خلف القلعة ، وعفى أثر قبره مدة من الزمن ، ثم أمر « الناصر » بنقل رفاته الى تربته التى شيدها لنفسه وألحقها بالخانقاه التى أنشئت للصوفية ولا تزال حتى اليوم قائمة فى حى الجمالية وتعد من أروع العمائر الاسلامية وأفخمها ، ولها واجهة تعاون فى ابداعها حذق المهندس مع براعة الصانع فخرجت من بين أيديهما قطعة من الفن يغمرك جمالها كلما تأملت فى دقائقها .

وجاء دور « سلار » الذى طلب الى السلطان عقب عودته من الكرك أن يعفيه من وظيفة « نائب السلطنة » وأن يعينه حاكما على منطقة « الشوبك » فأجابه الى طلبه وعين مكانه الأمير « بكتمر الجوكندار » .

ولم يمكث « سلار » فى منصبه الجديد طويلا بل استدعاه السلطان الى حضرته ، فتردد فى الذهاب اليه لأنه أحس أن ساعة القصاص قد دنت ، وخطرت له فى تلك الآونة أفكار شتى يتفادى بها لقاء السلطان ، فكر فى الالتجاء الى المغول ، وفكر فى الهرب الى برقة أو الى اليمن ، ولكنه خرج من حيرته هذه بقرار السفر الى السلطان والله يفعل ما يشاء .

وما كاد يصل الى القاهرة حتى قبض عليه بأمر السلطان ، وأودع السجن فى قلعة الجبل . ثم طلبه السلطان وأخذ يعاتبه على

ما فعله فكان يتنصل من كل تهمة ، وأصدر السلطان أمره بأن يرد الى بيت المال جميع الأموال التى اغتصبها ، فبعث الى خزانة الدولة بأكثر من خمسين حِملا من الذهب والفضة والجواهر والدنانير ، واللجم المفضضة ، والأقمشة المزركشة .

وقد كان « سلار » من أغنى أمراء المماليك مع أنه لم يتربع على العرش ، الأمر الذى جعل المؤرخ ابن اياس يتساءل عن مصدر ثروته الطائلة ومتى جمعها ؟ وقد حاول هذا المؤرخ تعليل هذا الغنى الفاحش بأحد أمرين : اما أن يكون سلار قد وقع على كنز من كنوز القدماء ، واما أنه أخذ تلك الثروة العظيمة من خزائن بيت المال عندما خرج الناصر الى الكرك وترك الأمر له ولزميله « بيبرس » وقد أصبحت بذلك مفاتيح بيت المال فى يده .

وأمر « الناصر » بأن يترك « سلار » مسجونا على أن يحرم من الطعام أو الشراب ، وبعد أن مضى عليه سبعة أيام ، واشتد عليه ألم الجوع والعطش أخذ يطلب الطعام والماء فلا يجاب الى طلبه ، وأخيرا قدمت اليه ثلاثة أطباق ، بعث منظرها الأمل فى نفسه ولكنه عندما كشف عنها وجد فى واحد منها ذهبا ، ووجد فى الثانى فضة ، ووجد فى الثالث لؤلؤاً وجواهر ، فاشتد غمه ومات بعد قليل ، وحمل الى تربته التى أنشأها لنفسه قبل وفاته والواقعة بالقرب من جامع ابن طولون ، ولا تزال قائمة حتى اليوم تطل على شارع مراسينة بقبتها الجميلة ومئذنتها الرائعة .

* * *

وما كاد « الناصر » ينتهى من أمر « بيبرس » و « سلار »

حتى علم بمؤامرة على عرشه يدبرها بكتمر الجوكندار نائب السلطنة الذى خلف « سلار » فى وظيفته ، بالاشتراك مع بعض الأمراء . وقد اتفق هؤلاء المتآمرون على تولية الأمير « موسى ابن على بن قلاوون » (الذى رقاه عمه « الناصر » أميرا فى أول سلطنته الثانية) على عرش البلاد بدلا من عمه « الناصر » .

وبعث « الناصر » فى استدعاء ابن أخيه الأمير موسى ، ولكن هذا الأمير أحس بأن المؤامرة قد انكشف سرها فهرب خوفا من بطش عمه ، فأمر « الناصر » بالنداء عليه فى القاهرة ، ورصد مكافأة سنية لمن يقبض عليه ، وأوضح المنادون أنه اذا كان القابض عليه من المماليك رقى الى رتبة الامارة ، أما ان كان من عامة الشعب فانه يمنح ألف دينار .

وتجاهل الناصر اشتراك «بكتمر» فى هذه المؤامرة مع أنه يعلم أنه كان الرأس المدبر لها ، وتظاهر بالعطف عليه بل لعله ضاعف هذا العطف ، انتظارا لفرصة مناسبة تسنح له للقضاء عليه . وسرعان ما قبض على الأمير موسى ، وسيق الى القلعة حيث سجن كما سجن كذلك بعض الأمراء الذين كانوا معه فى مؤامرته .

وتحدد يوم لتنفيذ حكم الاعدام فى المتآمرين جميعا بتسميرهم على نصب من الخشب بجوار أسوار القلعة حتى يكونوا عبرة لغيرهم .

وحضر جمع غفير من الناس ، من بينهم أهالى المتهمين وأصدقاؤهم الذين حضروا كى يشهدوا نهاية أقربائهم ، وما كاد المتآمرون يظهرون أمام الناس حتى سرت موجة من العطف عليهم

رغم جسامة الجرم الذى ارتكبوه ، وأخذوا يتحسرون على هذا الشاب الذى سيقضى عليه بعد قليل ، ويولولون لمصير هؤلاء المساكين .

وارتفع صوت بكائهم الى عنان السماء ، وكان « الناصر » يشرف على الجميع من عل فشاهد آيات الحزن مرتسمة على الوجوه ، وسمع نحيب الباكين ، ومست استغاثة المستغيثين به شغاف قلبه ، فتأثر لهذا المنظر المؤلم غاية التأثر ، ولم يتمالك نفسه من اصدار أمره بالعفو عن المذنبين ، ولعله قدر فى نفسه انهم كانوا مغلوبين على أمرهم وأن « بكتمر » هو الذى استهواهم لهذه المؤامرة متهورا .

وما أن وصل خبر العفو الى أسماع الناس حتى هللوا فرحا ، وضجوا بالدعاء له ، والثناء على أريحيته . والواقع أنه كان لهذا العمل النبيل أثر عميق فى الشعب فازداد حبا لهذا السلطان

واتجه الناصر بعد ذلك الى « بكتمر » وقد كان فى رأيه الرأس المدبرة لهذه المؤامرة ، وأخذ يتحين الفرصة المناسبة للقضاء عليه ، ففى ذات يوم ذهب — على عادته — الى المكان المخصص للطيور التى تستخدم فى الصيد بقصد تفقد أحوالها ، وتمضية بعض الوقت فى مشاهداتها وهى تقوم بتمريناتها على الصيد ، وقد كان « بكتمر » فى صحبته فى ذلك اليوم فمال عليه «الناصر» وقال له :

— يا عمى : ما بقى فى قلبى من أحد الا فلان وفلان—وذكر له اسم اثنين من الأمراء — فقال له « بكتمر » : يا خوند !

ما تطلع من هذا المطعم (أى المكان الذى كانت تطعم فيه طيور الصيد) ألا وتجدنى قد أمسكت بهذين الأمـيرين . ولكن السلطان قال له :

— لا ياعمى ! ألا دعهما الى يوم الجمعـة فتمسكهما فى الصلاة . فأجابه بكتمر : « السمع والطاعة » وأنعم السلطان على بكتمر فى ذلك اليوم بخلع سنية امعانا فى ستر ما أضـمره له من غدر .

ولما كان يوم الجمعة ، وقد حضر الأميران المذكوران الى المسـجد ، قال السلطان لنائبـه « بكتمر » ، والله يا عمى انى لأستحى أن أراهما ، وعليك أنت أن تمسك بهما اذا ما انتهت الصلاة ودخلت أنا الى الدار ، ثم تتوجه بهما الى حيث تجـد هناك أميرين فى انتظارك فلتسلمهما اليهما واذهب أنت الى حال سبيلك .

ونفذ « بكتمر » أمر السلطان بدقة ، ووقع فى الفخ الذى أعد له ، اذ انه بعد أن قبض على الأميرين ، وتوجه بهما الى المكان الذى حدده له السلطان ، ووجد هناك بالفعل الأميرين اللذين ذكرهما له ، قد قاما اليه وقالا له :

— عليك السمع والطاعة لمولانا السلطان ثم أخذا سيفه . فقال لهما : أخشى أن تكونا مخطئين ، فلقـد فارقت السلطان الساعة ، وقد طلب الىّ أن أمسك هذين الأميرين وأحضر بهما اليكما . فقالا له : نحن نعرف جيدا ما تفعل والمقصود القبض عليه

هو أنت ، ثم أمسكاه وأطلقا سراح الأميرين اللذين أحضرهما ، وكان ذلك آخر العهد به .

وهكذا تخلص الناصر من بكتمر بطريق الغدر كما رأينا ، وسوف نرجىء نظرتنا الى هذا التصرف وتقريرنا له حتى ننتهى من عرض جميع المؤامرات التى قامت خلال سلطنة الناصر الثالثة وطريقة قضائه عليها .

* * *

وأحس السلطان بأن « قراسنقر » الذى أصبح الآن نائبا لدمشق لا يخلص له الولاء ، وكان يحس نحوه بشيء من الكراهية ويخشى قيامه ضده فى يوم من الأيام لذلك أخذ يعمل على التخلص منه — ولكن « قراسنقر » أحس بكراهية السلطان له وخشى هو الآخر أن يدبر له أمرا يقضى به على حياته ، فكتب الى صديقه « الأفرم » الذى أصبح الآن نائبا لطرابلس ، يكشف له ما يحس به نحو السلطان ، وزيّن له الالتجاء معه الى المغول فرارا من بطش « الناصر » . وراقت الفكرة للأفرم ، واستجاب الى اغراء صديقه ، وحضر اليه ، وصح عزمهما على الخروج ، وعندما أخذا الأهبة لذلك بدا التردد على « الأفرم » وأخذ يبكى ، وتمثل بقول الشاعر :

سيذكرنى قومى اذا جدّ جدهم
وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

ولكن « قراسنقر » سرعان ما أخرجه من تردده ، ورد عليه قائلا :

— « امش بلا فشار (أى بلا فشر كما يقول العامة عندنا اليوم) ، تبكى عليهم وهم لا يبكون عليك » .

فرد عليه الأفرم قائلا : « والله ما بى الا فراق ابنى موسى » .

واتفق الصديقان على أن يبعثا بولديهما وحريمهما الى « الناصر » ، وقد طلبا الى الرسول المرافق لأسرتيهما أن يبلغ السلطان انه ما حملهما على دخول بلاد العدو الا الخوف منه ، وان الأولاد والحريم وديعة عنده ، فليفعل معهم ما يليق .

ولقد استاء الناصر أشد الاستياء من تصرفهما هذا ، ولكنه لم يأخذ الأولاد والحريم بجريرة رب الأسرة ، فأكرم وفادة العائلتين ، وألحق الولدين بالخدمة .

وعندما وصل هذان الأميران الى بلاد المغول ، رحبوا بهما ترحيبا عظيما ، وبالغوا فى اكرامهما ، ورتبوا لهما الرواتب السنية ، وقد حسّن « قراسنقر » للمغول غزو بلاد الشام ، وضمن لهم تسليم البلاد بغير قتال ، وأمّن « الأفرم » على هذا القول ، ولكنه حذرهم من قوة « الناصر » ، وكثرة عساكره .

واستجاب المغول لاغراء « قراسنقر » وصديقه ، ووصلت الى « الناصر » أنباء تفيد انهم يستعدون لغزو بلاد الشام ، فأخذ هو يعد العدة للقائهم ، وسافر بنفسه الى بلاد الشام ، وعندما علم المغول بقدومه عادوا من حيث أتوا .

ولم يقف « قراسنقر » عند حد فراره والتجائه الى المغول ، وتأليب المغول على السلطان ، بل نراه يرسل الى مصر من يحاول اغتياله ، فقد أبلغ رجل من العامة أولى الأمر أنه رأى شخصا

غريبا اشتبه فى سلوكه ، ويخشى أن يكون وراءه شر مبيت ، وقبض على الشخص الغـريب وسيق هو والمبـلغ الى والى القاهرة ، وعندما حقق معهما قال الرجل المصرى ان هذا الغريب معه أشخاص خطرون ولما سئل الغريب فى ذلك اعترف بأن معه أربعة أشخاص من جهة « قراسنقر » وقد بعثهم هذا الأمير لكى يقتلوا السلطان الناصر ، وأرشد عنهم فقبض عـلى اثنين منهم فقط وفر الآخران عندما انكشف أمرهما ، وحمل الرجلان الى السلطان وأقرا أمامه بأنهما فعلا موفدان من « قراسنقر » لقتله ، فأمر السلطان باعدامهما .

وأخـذ السلطان يحترس عـلى نفسه فى تجواله ، ومنـع المتفرجين على موكبه عند ركوبه الى الميدان ، كما منعهم من الجلوس فى الطرقات ، وألزم الناس باغلاق طاقات البيوت عند مروره .

* * *

ومضى على الحادث السابق زمن ليس بالقصير ، نعمت فيه البلاد بشيء من الهـدوء ، حتى اذا كانت سـنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٢ م) عزم « الناصر » على الحج ، ولكنه عرف وهو يعد العدة لذلك أن الأمير « بكتمر الساقى » يتآمر مع عدد من الأمراء عـلى قتله ، فقرر أن يفتـك به قبل أن تنجح مؤامرته ، ولجأ الى الحيلة فى ذلك كما كانت عادته ، وقد حالفه التوفيق فى تحقيق أغراضه .

وقد خرج بالفعل الى الحج ومعه الأمير سالف الذكر وعدد

كبير من العلماء والقضاة ، وفى الطريق تمارض « الناصر » وأبدى أنه يريد العودة الى مصر ولا يتم فريضة الحج ، ووافقه الأمراء على ذلك الا « بكتمر الساقى » فانه أبدى أن عودة السلطان دون الحج ليست أمرا مقبـولا وحبذ اتمام الحج حتى تظل مكانة « الناصر » فى النفوس عظيمة لا تشوبها شائبة ، ورأى «الناصر» أن يأخذ بوجهة نظر « بكتمر الساقى » فيستمر فى طريقه الى الحج ، ولكنه أصبح شديد التحرز على نفسه منه بحيث انه كان يتنقل فى الليلة الواحدة عدة مرات من مكان الى آخر دون أن يعلم أحد موضع مبيته ، ولم يعلم أحد من حاشيته المقربين اليه بشىء ، وظل على هذه الحال حتى وصل الى ينبع ، واستقبله الأمراء هناك استقبالا حسنا ، ثم واصل سيره الى مكة ، وخلال ذلك فرّ من مماليكه نحو ثلاثين مملوكا اتجهـوا فى فرارهم الى العراق ، ولعلهم كانوا من المتآمرين مع بكتمر على اغتيـال السلطان وأحسوا أو تخيلوا ان السلطان قد كشف أمرهم فخافوا من فتكه بهم ، ولم يذع السلطان خبر فرار هؤلاء المماليك بل ظل متكتما له حتى دخل مكة واستقبله أمراؤها فأنعم عليهم ، كما أفاض على الجنود ، وعلى أهل مكة الكثير من الخيرات العميمة .

وبعد أن أدى مناسك الحج ، استعد للعودة الى مصر ، وعرج فى طريقه على المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول ، وعندما وصل اليها قامت عاصفة هوجاء ، واظلم الجو ظلاما دامسا ، واشتد هبوب الرياح فألقت بالخيام ، واضطرب الناس اضطرابا شديدا ، ولكن ما كادت الشمس تشرق فى الصباح ويطلع النهار حتى

سكنت الريح ، وحضر أمير المدينة الى السلطان ، وقدم المماليك الذين فروا جهة العراق اذ قبض عليهم ، ففرح السلطان ، وهنأه على يقظته وهمته ، وخلع عليه ، وكافأه بكل ما كان يحمله هؤلاء المماليك من مال ومتاع . ثم أصدر أمره بارسال هؤلاء المماليك الى الكرك مقبوضا عليهم .

أما « بكتمر الساقى » وولده أحمد الذى رافقه فى هــذه الحجة . فقد أصيبا بمرض شديد لم يمهلهما طويلا فقد مات الابن ولحق به الأب بعد يومين من وفاته وأغلب الظن أن الناصر قد دس لهما السم فى ماء شربا منه ، وهكذا استراح « الناصر » من بكتمر وقضى عليه قبل أن يقضى هو عليه . أما الابن المسكين فقد ذهب ضحية تآمر أبيه على قتل السلطان .

وانتشرت بين الناس اشاعات مختلفة قبل أن يعود السلطان من حجه ، ففريق يقول ان السلطان قد ألمّ به مكروه ، وفريق يبالغ فيقول انه قد مات بالفعل ، وفريق يقول انه لم يمت والذى مات هو الأمير بكتمر الساقى وقد دس السلطان له السم وتخلص منه لأنه دبر مع بعض المماليك مؤامرة لقتل السلطان . وظلت الاشاعات المتباينة تتردد بين الناس حتى نادى المنادى بعــودة السلطان فخرجوا جميعا الى لقائه ، وترقبوا رؤيته بنفوس جزعة حتى اذا رأوه اطمأنت نفوسهم ، وساد الفرح والانشراح الجميع ما عدا زوجة الأمير « بكتمر الساقى » فقد كان لخبر موت زوجها وابنها وقع أليم عليها ولم تتمالك نفسها من أن تصيح فى وجه السلطان :

— يا ظالم ! أين تروح من الله ؟ ولدى وزوجى !! أما زوجى فقد كان مملوكك ، ولكن ولدى ، ماذا كان بينك وبينه .

وعلى الرغم من أن « الناصر » كان موفقا فى القضاء على المؤامرات التى دبرت لاقصائه عن العرش ، أو لاغتيال حياته الا أن هذا النجاح لم يجعله يتهاون قط فى التحرز على نفسه بل لعله قد بالغ فى ذلك مبالغة كبيرة ، فصار يأخذ بالظنة ، وصار يصدق كل وشاية ، لا يثق فى أحد مهما كان مركزه عنده ، ومن هنا كان يضطرب أشد الاضطراب ، ويقيم الدنيا ويقعدها ان جاءه خبر يشتم منه رائحة دسيسة أو مؤامرة .

ولقد عرف ابنه « آنوك » نقطة الضعف هذه فيه فاستغلها بقصد أن يشغل والده عنه بالانصراف فى تحقيقاته وتحرياته ، وبذلك يستطيع هو أن ينصرف الى معشوقته التى حرمه منها ، ولكن هذا الاستغلال الصبيانى قد جرّ على آنوك المرض ، وكلفه حياته .

ولم تهدأ حياة « الناصر » من هذه التحقيقات والتحريات حتى لفظ نفسه الأخير ، فقبل أن يلقى ربه بسنة وجد ذات يوم فى فراشه ورقة مكتوبا فيها « المملوك بيرم ناصح السلطان ، يقبل الأرض ، وينهى اليه انى أكلت رزقك ، وأنت قوام المسلمين ، ويجب على كل واحد نصحك ، وأن « بشتاك » ، « آقبغا » اتفقا على قتلك مع جماعة من المماليك فاحترس لنفسك » .

وثار غضب السلطان ، واضطربت أعصابه ، وأمر بأن يستدعى له كل من كان يحمل اسم « بيرم » ، وذاع الخبر بين الناس ،

وتردد فى أنحاء مصر والقاهرة ، وحضر الى القلعة كل من كان يسمى « بيرم » ، واستكتبوا جميعا بغية الاهتداء الى كاتب الورقة سالفة الذكر ولكن لم يأت هذا الاجراء بفائدة .

واشتد قلق السلطان وكثر انزعاجه بحيث انه لم يستطع أن يستقر فى مكان واحد ، وطلب الى والى القاهرة أن يراقب تجار الأسلحة ، وصناعها مراقبة شديدة ، وأطلق المنادين فى الطرقات يهددون من يعمل فى صناعة الأسلحة بالشنق ، كما منع الأمراء من الركوب بالسلاح .

وفى ذات يوم ، والناس فى هذا الهول الشديد وصل الى القصر رجل يعرف « بابن الأزرق » وطلب الى أولى الأمر أن يمكنوه من رؤية الورقة التى وجدها السلطان فى فراشه لعله يستطيع الاهتداء الى كاتبها ، وأدخل الرجل الى السلطان ، وعرضت عليه الورقة ، وبعد أن قرأ ما جاء فيها قال للسلطان : « يا خوند ! هذا خط « أحمد الخطائى » ، وهو رجل يعمل عند صهر « النشو »[1] ، ويلعب معه النرد ، ويعاقره الخمر » .

فأمر السلطان باحضار هذا الرجل فى الحال للتحقيق معه ، وقد أسفر هذا التحقيق عن اعترافه بكتابة الورقة سالفة الذكر ، وقال ان صهر « النشو » هو الذى طلب اليه ذلك .

وأحضر صهر « النشو » ، وواجهه المحقق بالخطائى ، فأنكر ذلك ، وطلب الاطلاع على الورقة موضوع التهمة ،

---

(١) سوف نتحدث عن هذا الموظف الكبير المسمى «بالنشو» فيما بعد عند الكلام على الناصر وموظفى دولته .

ولما رآها وتأمل فيها قال انها من خط « ابن الأزرق » ، وأضاف الى ذلك أنه كتب هذه الورقة انتقاما لأبيه الذى قتله «النشو» .

واستحضر « ابن الأزرق » ، وأعيد التحقيق معه فاعترف أخيرا بأنه كاتب الورقة بالفعل ، وأنه قصد من كتابتها أن يثأر لأبيه ، وعفا « الناصر » عنه ، ولكنه أمر بحبس « ابن الخطائى » لاعترافه كذبا بكتابة الورقة ، ولعل السلطان التمس العذر « لابن الأزرق » فيما فعل فكان العفو عنه .

* * *

وخيل للناصر قبل وفاته ببضعة أشهر أن هناك مؤامرة تدبر للقضاء على حياته ، وان الأمير « تنكز » هو أكبر رأس فى هذه المؤامرة .

والأمير « تنكز » هذا كان نائبه على بلاد الشام ، وهو فى الأصل من مماليك الأمير « لاجين » اشتراه صغيرا فنشأ فى البلاد ، وتعلم كما كان يتعلم المصريون حينئذ فسمع صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وحدث ، وقرأ على المحدثين .

وقد أصبح من مماليك «الناصر» بعد مقتل الأمير «لاجين» ، وأنعم عليه بلقب الامارة ، وقد قاتل معه ضد المغول ، وأبدى من البسالة ما يذكر له بالفخر ، وعرّض حياته للخطر يوم تزعم حركة ارجاع « الناصر » الى عرشه بعد أن لجأ الى الكرك فى سلطنته الثانية .

وقد ولاه « الناصر » نيابة الشام بعد عودته الى سلطنته

الثالثة ، وأعلى مكانته فى تلك البلاد التى أقام فيها ثمانية وعشرين عاما ، عمل فى خلالها على تعمير البلاد واصلاحها .

وقد كان موضع ثقة السلطان ، فطلب فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة (٧٢٤ م) الى نواب حلب ، وحماة ، وحمص ، وطرابلس ، وصفد ألا يكاتبوا السلطان مباشرة وانما يكاتبون الأمير « تنكز » نائب الشام ، ويكون هو الذى يكاتب السلطان فى أمرهم ، فشق ذلك على هؤلاء الأمراء ، واحتج نائب صفد فعزله السلطان واستدعاه وسجنه فى قلعة الجبل .

ولكن سرعان ما تغير السلطان على « تنكز » ، وبدأت الوحشة بينهما ، وأخذ يرصد عليه العيون ، ويهتم بحركاته وسكناته اهتماما عظيما ، ولم يعد مقربا عنده كما كان من قبل فأخذ نجم تنكز فى الافول ، ويصف ابن تغرى بردى ذلك فى نجومه الزاهرة فيقول :

« على قدر الصعود يكون الهبوط ، ، ما لتلك الاحسان والعظمة ، والمحبة الزائدة لتنكز قبل تاريخه ، أى قبل سنة أربعين وسبعمائة (١٣٣٩ م) الا هذه الهمة العظيمة فى أخذه ، والقبض عليه ، ولكن هكذا شأن الدنيا مع المغترين بها » .

ترى ما الذى أغضب « الناصر » على « تنكز » ؟ وكيف انقلب هذا الحب ، وهذا التقدير الى عداوة مريرة وكراهية شديدة ؟

لقد وصل الى علم السلطان — على قول ابن تغرى بردى — أن تنكز قال لبعض خاصته يوما : « والله لقد تغير عقل أستاذنا ،

وصار يسمع من الصبيان الذين حوله ، والله لو سمع منى لكنت أشرت عليه بأن يقيم أحدا من أولاده سلطانا ، وأقوم أنا بتدبير ملكه ، ويبقى هو مستريحا » .

وسواء كان هذا القول قد افتعله بعض الحاسدين لتنكز وهم كثيرون رغبة فى الوقيعة بينه وبين السلطان ، أو كان هـذا القول قد صدر فعلا من تنكز فى معرض تحدثه مع خاصته عن شئون البلاد ، وتبسطه فى الحديث بما يراه صالحا للبلاد ، فقد صدقه الناصر ، وفسره على أن تنكز طامع فى الملك ، يريد أن يغتصبه ، ومن هنا بدأ يوجس منه خيفة .

وتشاء الظروف أن يقع فى ذلك الوقت فى دمشق حريق مهول استمر يومين بلياليهما وذهب ضحيته كثير من الأنفس والأموال.

وعندما تحرى تنكز عن أسباب هذا الحريق تبين له أن بعض النصارى هم المتسببين فيه ، فأمر بمصادرة أموالهم ، وأجرى عن ذلك تحقيقا رفعه الى السلطان ، وقد أثبت لنا المقريزى فى السلوك ملخصا لهذا التحقيق جاء فيه : « ان الرشيد سـلامة النصرانى ، كاتب الأمير علم الدين سنجر البشمقدار ، أشـهد عليه أنه حضر اليه فى منتصف شوال يوسف بن مجلى كاتب الأمير بهادر ، ويوسف عامل الجيش ، وبصحبتهما راهبان أحدهما اسمه «هيلانى» والآخر اسمه «عازر» وقد قدما من القسطنطينية ليجاهدا فى الملة الاسلامية ومعابدها ، وانهما يعلمان صناعة النفط ، فاجتمعوا فى بستان يوسف بن مجلى ، وأحضر لهم ما يحتاجون اليه من النفط ، وعملوا كعكات ، وجعلوا تأثيرها لا يظهر الا بعد

أربع ساعات من ذلك من استعمالها ، أى انها لا تلتهب الا بعد مضى هذه المدة » . (وهذا فى الواقع يذكرنا بما يعرف فى زماننا هذا بالقنبلة الزمنية التى لا تنفجر الا بعد زمن محدد . فهل كانت فكرة هذه القنبلة معروفة لأجدادنا فى العصور الوسطى كما يتساءل الدكتور محمد مصطفى زيادة فى تعليقه على هذا النص فى كتاب السلوك للمقريزى ؟) ونعود الى تحقيق المقريزى فنجده يقول « ان هؤلاء النصارى قد تنكروا فى لبسهم ، ونزلوا الى المدينة ، وتفرقوا فى أنحائها ، وابتاعوا منها قماشا دفعوا ثمنه لصاحبه ، وتركوا القماش عنده وديعة بعد أن دسوا فيه تلك الكعكات المصنوعة ، فوقع منها الحريق » .

وقد كان طبيعيا ، أمام هذه الأدلة ، أن ينزل « تنكز » العقاب بهؤلاء النصارى ، وبغيرهم ممن ثبت اشتراكهم أو معاونتهم فى هذه الجريمة الشنعاء . وقد كان من بين المتهمين شخص يدعى « سبيل الله » ، ويتحدث المقريزى عن هذا الرجل فيقول انه كان فى القاهرة ، وكان يلبس زيا غريبا اذ يرتدى جلدا ، ويحمل على كتفه زيرا نحاسيا أندلسيا ، وبيده شربات كذلك ، ويقول بلسان غتمى « سبيل الله » ، ويسقى الناس ، بغير جُعل ، فمن الناس من اعتقده ، ومنهم من اتهمه بأنه جاسوس ، ثم خرج من القاهرة للحج ، وقدم دمشق ، وأقام بها يسقى الماء حتى دخل مع النصارى فيما قاموا به من أمر الحريق .

وعندما وصل محضر التحقيق هذا الى السلطان الناصر ، كتب الى تنكز ينكر عليه قتل النصارى ، ويلفت نظره الى أن فى هذا

العمل اغراء لأهــل القسطنطينة لكى يقتلوا من يرد اليهم من التجار المسلمين . ثم طلب منه أن يحمل اليه ما صادره من أموال هؤلاء النصارى ، وأن يسارع فى تجهيز بناته اللائى عقد عليهن لأولاد السلطان (١) . ورد تنكز على السلطان معتذرا عن تجهيز بناته بما شغله من عمارة ما ضاع فى الحريق ، وان المال المصادر قد جعله لعمارة المسجد الأموى . ولكن هــذا الرد لم يعجب السلطان ، وأعلن أن تنكز خرج عن طاعته ثم أصدر أمره بعزله من نيابة الشام ، وبعث اليه من قبض عليه ، وجىء به مقيدا الى مصر ، واغتبط السلطان بذلك وارتاح وذهب قلقه فقد كان لا ينام الليل منذ وقعت الجفوة بينه وبين « تنكز » . وبعث الى تنكز يهدده حتى يعترف بما عنده من المال ، ويذكر له كل من كان موافقا له على العصيان من الأمراء . وكان رد تنكز لمن جاءوا يحققون معه انه ما مال عنده سوى ثلاثين ألف دينار هى وديعة لديه لأيتام الأمير « بكتمر الساقى » . وأنكر بشدة أنه متآمر على السلطان أو أن هناك أمراء متآمرين معه على العرش .

والواقع أن اجابات تنكز على المحققين معه لم يرد فيها الا كل ما يبيض صحيفته ، ويدحض كل تهمة وجهت اليه الأمر الذى جعل هؤلاء المحققين يرجون السلطان أن يسمح لتنكز أن يقضى ما قدر له من العمر فى هدوء وسكينة بعيدا عن الحكم . ولكن هذا الرجاء ذهب أدراج الرياح ، ولم يجــد من السلطان أذنا

---

(١) سنذكر ذلك فيما بعد عند الــكلام عن حياة الناصر الخاصة .

صاغية فسرعان ما أصدر أمره بنفيه الى الاسكندرية ، حيث أذيق ألوانا من العـذاب لكى يعترف بأسماء شركائه فى المؤامـرة — حسب اعتقاد السلطان — ولكن بغير جدوى ، وانتهى الأمر باعدامه ، واعدام أصدقائه من الأمراء .

والآن هل كان الناصر مخطئا فى تلك التصرفات مع أولئـك الذين تآمروا عليه أوشك هو فى أنهم متآمرون عليه ؟ هل يؤخذ عليه انه التجأ الى الحيلة للايقاع بهم والقضاء عليهم أو التجأ الى السم للتخلص منهم ؟ أو لجأ الى التعذيب للحصول على اعترافات كاذبة منهم وعلى أساس هذه الاعترافات أمر بقتلهم ؟

الواقع ان الناصر لم يكن بطبيعته قاسـيا ، غليظ القلب ، بل لعله كان ، على العكس ، رقيق الاحساس شفيقا بدليل عفوه ، فى آخر لحظة ، عن الأمراء الذين تآمروا عليه مع ابن أخيه موسى بن على ، وكان على رأسهم « بكتمر » . وهو فى الحقيقة لم يخـرج فى تصرفاته سالفة الذكر عما كان مألوفا فى عصره ، ولم يشذ عما كان يتبعه الناس فى ذلك الوقت فى مثل هذه الظروف فهو فى الحقيقة ابن وراثته وبيئته .

ترى ألا يذكرنا تصرفه مع « تنكز » مثلا بتصرف الخليفة العباسى هرون الرشيد مع البرامكة فى العراق ، وتصرف السلطان ابن الحسن مع بنى سراج فى الأندلس ، وتصرف غير هذين من حكام الشرق والغرب ممن يضيق المجال عن حصرهم عنـدما يحسون بمن يهدد ملكهم ؟

أغلب الظن ان تصديق الحاكم للوشايات التى تصل اليه ،

وأخذه فى تصرفاته بالظنة ، وامعانه فى تعذيب المتهمين بالتآمر عليه ، ونسيانه ساعات الصفاء والود التى نعم بها واياهم هذه جميعا ليست صادرة عن قسوة فى القلب ، أو شذوذ فى الطبع ، ولكنه تصرف أملاه الاحساس بالخطر الذى يتهدده ويتهـدد ملكه ، تصرف دفعته اليه غريزة المحافظة على النفس وعلى الملك .
وقد يلتمس للناصر ولغيره من هؤلاء الحكام المستبدين العذر فيما اقترفوه ، لأنهم مهما بلغوا من القوة ففيهم ضعف الرجل المستبد الذى اذا اشتبه فى شخص يعمل للقضاء عليه ، أو أحس بالخطر يأتيه من أى مكان ثارت نفسه على أولئك الذين قد شك فيهم مهما كانت مكانتهم من نفسه ، ونسى كل رباط كان يربطه بهم فى الماضى ، وسيطرت عليه فكرة واحدة هى ابعاد الخطر عن نفسه وملكه بأى ثمن ، ووقف منهم موقف الدفاع عن النفس الذى تقره جميع الشرائع والقوانين .

الناصر فى حياته الخاصة

لنترك حديث المؤامرات ، والغدر ، والقتل ، ولندخل مع « الناصر » الى قصره أو على الأدق ، الى جناحه الخاص فى قصره لنرى كيف كان يعيش الناصر الرجل بين أهله ، فان الحياة الخاصة كثيرا ما تنعكس على الحياة العامة وتلقى ضوءا على سلوك الانسان فى تلك الحياة .

لقد بلغ « الناصر » الآن الخامسة والعشرين من عمره أو تزيد قليلا ، فاستدار هلاله بدرا ، وتجلت شخصيته بصورة واضحة ، وأرخى لحيته فاذا له هيبة يحس بها كل من يلقاه ، واذا له فى الحديث طريقة كاد أن ينفرد بها عمن سواه ممن هو فى مثل مكانته ومركزه ، اذ كان عف اللسان ، لا يفحش فى القول سواء أكان غاضبا أم منبسط الوجه ، ينادى الناس بأحسن أسمائهم وأجل ألقابهم ، ولا يؤاخذهم فيما يتورطون فيه عن حسن قصد بل يقابل أعمالهم بصدر رحب ونفس سمحة فى أثناء حجته التى قام بها سنة تسع عشرة وسبعمائة قابل أشراف العرب فى مكة وفى المدينة وفى ينبع وغيرها من المدن الرئيسية التى مر بها ، وكان العرب يتحدثون معه من غير مراعاة للآداب الواجبة للملوك ، وهو يحتملهم فى غير ضجر ، بل لقد تمادى صبى منهم فمد يده الى لحية الناصر وقال له : « يا أبا على ، بحياة هذى ، الا ما أعطيتنى

الضيعة الفلانية انعاما عليّ » ، فصرخ فيه « ناظـر الجيش » وقال له « شل يدك ! قطع الله يدك ! واياك أن تمد يدك الى السلطان ! » فتبسم الناصر وقال : « هذه عادة العرب اذا قصدوا كبيرا فى شيء ، فيكون عظمته عندهم مسك لحيته ، يريدون انهم قد استجاروا بذلك الشيء فهو سنة عندهم » .

وكان « الناصر » رزينا غير متهور ، اذا غضب على أحـد لا يظهر له ذلك بل يتروى فى أمـره ثم يعفـو عنه أو يعاقبه فيما بعد .

وكان لا يميل الى الهزل فى موضع الجد ، فاذا خرج أحد على هذه القاعدة واستغل حلم الناصر غضب أشد الغضب . كان ذات يوم يروح عن نفسه مع بعض الأمراء فى البستان المنصورى بما فيه من أزهار وخضرة وساقية ترفع الماء فدخل عليه أحـد مماليكه وكان يدعى « عزيز » وكان ممن يرفهون عن السلطان بالمزاح (مضحك الملك) . فأخذ يهزل على عادته أمام السلطان ولكنه اتخذ من « الروك الناصرى » مادة لمزاحه فغضب السلطان ولم يظهر الارتياح لهذا المزاح ، ولكن « عزيز » لم يفطن لذلك بل تمادى فى مزاحه فاشتد غضب السلطان وصاح فى مماليكه أن يخلعوا عنه ثيابه ويربطوه فى قواديس السـاقية ، وضربت الأبقار حتى تسرع فى الدوران ، فأخذ « عزيز » تارة ينغمر فى الماء وتارة يظهر ، وصار يستغيث ولا مغيث ، وقد رأى الموت بعينيه ، والسلطان عابس الوجـه ، والأمراء لا يجسرون على الشفاعة فيه حتى مضى نحو ساعتين ، وانقطع فيها حسه فتقدم

أحد الأمراء الى السلطان قائلا : « يا خوند ! هذا المسكين لم يرد الا أن يضحك السلطان ويطيب خاطره ولم يرد غير ذلك » وما زال بالسلطان يرجوه حتى أمر بالافراج عنه بعد أن أشفى على الهلاك ، وأمر السلطان بنفيه من مصر .

وكان لا يميل الى الزخرف فى لباسه ، فترك معظم ما كان يتحلى به سلاطين المماليك قبله من الملابس الغالية الثمن ، الكثيرة الزخرف ، واكتفى منها بما كان معتدلا فى قيمته ، متناسقا فى زينته ، لا بهرج فيه ولا مغالاة .

وآثر من السلع ما كان يزدان بالفضة لا بالذهب ، على أن هذا الاعتدال لم يكن ليمنعه من أن ينعم على أمرائه ، وأخصائه بفاخر الثياب ، وغالى السلع ولم يكن فى الوقت نفسه يمانع من تطور الملابس فى عصره ، وقد استجدت فى أيامه بالفعل أنواع جديدة من الملابس ، ومن الحلى ، لم تكن معروفة من قبل ، فعلى سبيل المثال « القباء السلارى » الذى استمد اسمه من الأمير «سلار » الذى عرفناه من قبل أثناء سلطنة « الناصر » الثانية ، وهو قباء بدون أكمام ، ومنها العمائم الناصرية ، وهى عمائم صغيرة شاع استعمالها فى هذا العصر ، ومنها « الشرابيش » وهى غطاء للرأس مثلث الشكل ، يلبس بغير عمامة ، كان يمنحه السلطان لمن يرقى الى رتبة الادارة من المماليك . ومنها «الطرح» التى ظهرت منها أنواع فاخرة ارتفعت اثمانها الى مبالغ خيالية . منها الأزر الحريرية ، ومنها الأطواق المنزلة بالجواهر الثمينة ، القباقيب المرصعة ، ومنها قلائد العنبر التى ذاعت فى تلك الأيام

ذيوعا كبيرا حتى انه — على حد قول المؤرخين — لم توجد امرأة فى مصر الا ولها قلادة منه .

وقد كان « النـــاصر » نفســـه يعنى بذاته ، فيتجمل فى غير اسراف ، وقد حدث ذات يوم أن نزل به مرض الزمه الفراش أياما ، فلما عوفى منه دخل الحمام ، وهناك رأى ان يحلق رأسه كله ، وخرج من الحمام وهو حليق ، ولما رآه الأمراء على هذه الصورة بادروا الى تقليده فحلقوا رءوسهم ، ومنذ ذلك الوقت أبطلت عادة ارخاء ذوائب الشعر التى كانت مألوفة لدى المماليك من قبل .

وأسرف نساء ذلك العصر فى التبرج اسرافا جعل الحكومة تتدخل لكى تحد منه ، ففرضت ضرائب فادحة على من يسرفن فى التبرج ، وعهد الى بعض السيدات ان يراقبن ذلك ، أى اننا فى الحقيقة أمام « بوليس نسائى » ظهر فى مصر منذ سته قرون .

كما اسرفن أيضا فى التردد على المنجمين ، وعلى الكتاب ، أما ترددهن على المنجمين فكان لايمانهن الشديد بقوة الأحجبة ، والسحر ، وتسخير الجان لخدمة الانسان ، والمنجمون وحدهم هم القادرون وحدهم على تحقيق هذه الرغبات بشتى الوسائل التى يحذقونها ، ففى قدرتهم — كما كان يعتقد كثير من الناس فى ذلك العصر — ان يقلبوا الكره حبا والحب كرها ، ويجلبوا المرض للأعـــداء كما يجلبوا الصحة للأحبـــاب ، ويحضروا الغائب أو يرشدوا الى مكان وجوده ، وغير ذلك من الرغبات التى تتردد فى نفوس الناس .

وأما كثرة ذهاب النساء الى الكتاب فمرده الى أن الأميـــة

كانت حينئذ متفشية لا سيما بين بنات حواء ، لذلك كن يلجأن الى هؤلاء الكتاب لكى يكتبوا لهن الرسائل والشكاوى وكل ما كن فى حاجة اليه .

ولم يرض الفقهاء عن هذا الاسراف فى تردد الكثير من النساء على هذين النوعين من الناس نظرا لما كان يقترن بذلك من امور تتنافى مع الأخلاق القويمة ، فتوجهوا ، بالنقد المر الى هذه الظاهرة الاجتماعية ، وقسوا فى لومهم ومعهم كل الحق فى هذه القسوة لأن كثيرا من الشبان كانوا يذهبون الى الكتاب والمنجمين ولا قصد لهم الا أن يلتمسوا الوسيلة للتحدث مع امرأة حضرت لكشف نجم أو لكتابة رسالة تريدها ، فيشاكلها شاب من هؤلاء الشبان ، ويتمكن من الحديث معها بسبب جلوسه ، وجلوسها فى انتظـــار دورهم لمقابلة الكتاب أو المنجمين .

وقد كانت فى الناصر نزعة للتدين يشهد بها ان علامته التى كان يوقع بها على اوراق الدولة كانت « الله املى » ، ويدل عليها أداؤه لفرائض الدين ، وحرصه على أن يحج الى بيت الله الحرام كلما سنحت له ظروف اعماله الكثيرة . ولعله كان ممن يؤمنون بأن الحج يغسل ما تقدم من الذنب فكان يهرع الى تلك البقاع المقدسة ليغسل عن نفسه ما تورط فيه من ذنوب ، ويستمد العون من الله على مواصلة جهاده فى سبيل شعبه .

فما كاد يمضى عليه فى سلطنته الثالثة أربع سنوات حتى شد الرحال الى الاراضى المقدسة ، وبعد ان قام بمناسك الحج ، وزار قبر النبى الكريم فى المدينة المنورة ، عرج فى عودته على دمشق ،

واخترق شوارعها على ظهر ناقة ، وكان يرتدى بشتا من ملابس العرب ، وحول رأسه لثام ، وفى يده حربة ، وقد كان لدخوله دمشق على هذه الصورة يوم مشهود .

وبعد الحجة السابقة بست سنوات ، تحرك فى نفسه الشوق من جديد لزيارة البلاد المقدسة واداء فريضة الحج ، فطلب الى ناظر خاصته « كريم الدين » ان يصدر امره الى دار الطراز بالاسكندرية لاعداد كسوة الكعبة من الحرير الأطلس ، وأن يعد العدة للحج .

واذيع فى أنحاء المملكة عزم السلطان على الحج ، فجاءت اليه الوفود من الشام تحمل الهدايا وفيها الخيل والهجن ، وحمل « تنكز » من دمشق خمسمائة حمل على الجمال ما بين حلوى وفواكه ، وأوان لحفظ الحلوى ، ومائة وثمانين حمل لوز ، وما يحتاج اليه من أصناف البطيخ ومن الاوز ألف طائر ، ومن الدجاج ثلاثة آلاف طائر .

وأخذ ناظر الخاصة « كريم الدين » فى الاستعداد للسفر الى الحجاز ، فأمر بعمل قدور من ذهب ، وفضة ، ونحاس لكى تحمل وتطبخ فيها الطعام للسلطان . واحضر الخولة (الجناينية) لعمل ورود ورياحين فى أحواض من خشب تحمل على الجمال ، فتسير مزروعة فيها ، وتسقى بالماء ، ويصحن فيها ما تدعو الحاجة اليه أولا بأول ، من البقل ، والكرات والكسبرة ، والنعناع ، وأنواع المشمومات والريحان شيء كثير . وجهزت الأفران ، وصناع الكماج (وهو الخبز الحمر المصنوع من الدقيق الأبيض) .

وأعد فى البحر الأحمر مركبين الى ينبع ، ومركبين الى جدة . وسافر الحمل كالمعتاد وركب السلطان من القلعة ، ووصل الى مكة ، وما كاد يرى الكعبة حتى تجلت فى محياه آيات التواضع والخشوع ، وقال لأحد أصحابه ، من الأمراء : « لا زلت أعظم نفسى الى أن رأيت الكعبة المشرفة ، وتذكرت تقبيل النـاس الأرض لى ، فدخلت فى قلبى مهابة عظيمـة ما زالت عنى حتى سجدت لله تعالى » . وقد حسّن له أحد القضاة المرافقين له أن يطوف بالكعبة راكبا كما فعل النبى صلوات الله عليه ، فالتفت اليه « الناصر » وقال له فى خشوع : « ومن انا حتى اتشبه بالنبى صلوات الله عليه ، والله لا طفت الا كما يطوف الناس » . ثم أمر الحراس المحيطين به ألا يمنعوا الناس من الطواف معه ، فصاروا يزاحمونه وهو يزاحمهم كواحـد منهم فى مدة طوافه وفى تقبيله للحجر الأسود . وقد غسل الكعبة بيده ، وصار يأخذ أزر احرام الحجاج ويغسلها لهم فى داخل البيت العتيق بنفسه ثم يدفعها لهم . وقد كثر الدعاء له لهذا التواضع ، وتلك التقوى .

والتقى وهو فى حجته هذه بأمراء العرب وأشرافهم فى مكة والمدينة ، وأنعم عليهم وأصدر أمره بابطال سائر المكوس المفروضة على الحرمين الشريفين ، وعوض أميرى مكة والمدينة عنها باقطاعات فى مصر والشام يحصلان عـلى ريعها ، وأكثر من الصدقات ، وأحسن الى أهل الحرمين احسانا عظيما .

والواقع أنه كان شديد العطف على أهل الحجاز ، يدل على

ذلك ما وقع بمكة من قحط شديد فى عام اثنين وعشرين وسبعمائة (١٣٢٢ م) لعدم نزول المطر ، وقدم صاحب الحجاز الى مصر وأخبر الناصر بأنهم استسقوا ثلاث فلم يسقوا ، فرسم السلطان أن يحمل الى مكة القمح بكميات وفيرة ، ولما وصلت الغلال أمر بالتصدق بها .

وبعد ثلاثة عشر عاما من الحجة السابقة تجدد الحنين لزيارة بيت الله الحرام فخرج السلطان مع الأمراء والفقهاء والقضاة واصطحب معه زوجته المحبوبة «طغاى» وابنه «آنوك» . ولكنه علم بعد تحرك القافلة بمؤامرة يدبرها ضده الأمير « بكتمر الساقى » (وقد أشرنا اليها من قبل) فأمر بأن يسير زوجه وابنه الى الكرك أما هو فقد مضى فى سبيله الى الأراضى المقدسة لتأدية فريضة الحج ، وبعد أن أتم مناسكه ذهب الى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول ثم عاد الى القاهرة ، وكان الناس فى لهفة لرؤيته بعد أن انتشرت الشائعات بأنه مات أو أصيب .

وعندما توسط موكبه بين الناس صاحت العامة « هو اياه ، ما هو اياه ، بالله اكشف لنا لثامك ، وأرنا وجهك » فعند ذلك حسر اللثام عن وجهه فصاحوا جميعا : « الحمد لله على السلامة » . وبالغوا فى اظهار الفرح به ، والدعاء له وسر السلطان كثيرا بهذا الحب المنطلق من قلوب العامة ، ودخل القلعة ، وأقيمت الأفراح ثلاثة أيام .

* * *

وكان « الناصر » يكره شرب الخمر ، ويمقت شاربيها ، ولعل هذا راجع الى شدة تمسكه بالدين ويروى عنه أنه قبض على أحد الأمراء فى سنة سبع عشرة وسبعمائة وأمر بضربه واخراجه من مصر لشربه الخمر ، كما عوقب خازن دار هذا الأمير ، وقطعت ألسنة جماعة من أصحابه ، وكحل جماعة منهم .

ولكنه كان يعنى بالطعام عناية ملحوظة ، فقلما يخلو سماطه كل يوم من المآكل الفاخرة ، وأنواع الطيور ، واللحوم المشوية لا سيما من الضأن والغزلان والأرانب ، كما كان يتضمن أنواعا شتى من الحلوى ، ولا ننسى أنه لام الأمير « بيبرس » الذى اغتصب عرشه على أنه كان يحرمه من لذيذ الطعام الذى كانت تشتهيه نفسه .

* * *

ولقد كان « الناصر » عطوفا ، كريما ، يسعى الى زيارة أمرائه ومماليكه اذا نزل بهم المرض ، ويغمرهم بالخير فى المناسبات المختلفة .

وقد كان يحب من أمرائه أن يكونوا فى مثل كرمه لا سيما بالنسبة لمن هم دونهم ، وكان لا يرتاح اذا بخل أحدهم بالعطاء . بعث ذات مرة بثلاثة كباش الى واحد من أمرائه على سبيل الهدية ، فأعطى هذا الأمير الخادم الذى أحضر له الكباش عشرة دراهم ، وعلم الناصر بذلك فغضب ، وبعث الى الأمير المذكور من يوبخه على بخله هذا ويأمره أن يجزل العطاء للخادم ،

فاستجاب الأمير لهذا التوجيه ، ومنح الخادم خلعة من قماش من أغلى أنواع الأقمشة التى كانت تنتجها الاسكندرية فى ذلك الوقت .

وقد كان فى « الناصر » ذكاء وقاد ، يعرف جميع مماليك أبيه وأولادهم بأسمائهم ، كما يعرف مماليكه هو ولا يغيب عنه اسم واحد منهم ولا وظيفته عنده .

* * *

وكان يحب العلم والعلماء ، ويكفى للدلالة على ذلك معاملته للمؤرخ المشهور « اسماعيل أبو الفدا » التى تنم عن مدى تقديره له ، فقد كان يخاطبه بلفظ « أخ » ، وقلده ولاية «حماه» ، وأنعم عليه بلقب سلطان ، وألبسه شارات الملك ، وهذا فى الحق مثال نادر فى بابه يدل على وثوق السلطان من نفسه من جهة ، وعلى سمو مكانة العلماء فى نظره من جهة أخرى .

وكان رقيق الشعور ، محبا للموسيقى والغناء ، قرب اليه المغنى « كثيلة بن مرافعان » ، كما أنعم على مغنية قدمت من دمشق مع الأمير « تنكز » ، فأرسل اليها بدلات زركش وثلاثين تعبية من قماش ، ومقانع مع خمسمائة دينار .

وقد كان الناصر يؤمن بما كان يؤمن به أهل عصره من خرافات ، لا يشذ عنهم فى ذلك ، فلقد نشأ بينهم ، وعرف عاداتهم ، وليس بمستبعد أنه كان مثلهم يمتنع عن زيارة المريض ،

أو أكل السمك ، أو دخول الحمام فى أيام معينة ، وكان مثلهم يحرص على استعمال البخور فى يوم الجمعة ، وكان مثلهم يتشاءم ، ويتطير ، واذا ما أقدم على عمل فتح « المصحف » ونظر فى أول سطر يخرج له فاذا صادف آية تنطوى على العذاب والوعيد تخوف ، وتشاءم من هذا المشروع ، وكان مثلهم يؤمن بالسحر والصنعة أى الكيمياء .

وفد عليه رجل من الشام يَدَّعِى تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب وكان اسمه « يوسف الكيماوى » ، وصدقه «الناصر » فيما يدعيه ، وأنعم عليه ، وبالغ فى اكرامه ثم تبين له آخر الأمر أنه كاذب خداع ، ولعل من الطريف أن نلخص هذه القصة هنا ، لنرى فيها لونا من ألوان النصب والاحتيال كان شائعا فى تلك العصور ، ولا يزال شائعا بيننا حتى الآن فى صورة أولئك النصابين الذين يخدعون السذج من الناس ، ويوهمونهم بوجود كنوز فى باطن الأرض عليها حارس عتيد ، لا يمكن التغلب عليه الا باطلاق البخور ، وقراءة الأدعية الخاصة ، واستعمال السحر ، ويصدقهم هؤلاء المساكين ويدفعون لهم من المال ما هم فى أشد الحاجة اليه . ذلك ان هذا « الكيماوى » المولود فى مدينة الكرك وفد الى دمشق حيث قابل نائبها « تنكز » وأخبره بما حباه الله به من قدرة خارقة يستطيع بها أن يحول المعادن الخسيسة الى ذهب ، فرأى تنكز أن يبعث به الى السلطان مزودا بتوصية منه . ومثل « يوسف » بين يدى الناصر ، وأجرى أمامه تجربة أذهلته ، وزادته ايمانا بصدق الرجل فيما يدعيه ، ذلك أنه أحضر

بوتقة ملأها بالنحاس والقصدير والفضة وأوقد عليها النار لمدة ساعة حتى ذاب ما فيها من معادن ثم ألقى عليها شيئا من أصباغ كانت معه ، ثم أفرغ ما فيها بعد ذلك فاذا هى سبيكة ذهب كأجود ما يكون الذهب ، وقد سر السلطان سرورا عظيما ، وأنعم على « يوسف الكيماوى » هذا بالسبيكة التى عملها .

وذاعت المسألة فى جوانب القصر ، وأقبل خدم السلطان على الرجل يقدمون له أشياء كثيرة بغية تحويلها الى ذهب ، واستخف الرجل بعقولهم — كما يقول المقريزى — حتى ملكها بكثرة خداعه ، واستولى منهم على أموال طائلة .

وسبك « يوسف » للسلطان سبيكة ثانية من ذهب ، فازدادت مكانته عند الناصر ، وصار يستدعيه ليلا ليتجاذب واياه أطراف الحديث ، واستغل الرجل هذه المكانة السامية التى وصل اليها بخداعه ، فأقبل على اللهو ولكنه أدرك أن حيلته قد تنكشف ففكر فى الهرب فالتمس من السلطان أن يأذن له بالسفر الى الكرك لكى يحضر نباتا من هناك ضروريا للتجارب التى يقوم بها ، فأذن له السلطان ، وزوده بتوصيات الى نوابه وموظفيه فى «غزة» وفى الكرك ، وأمرهم أن يعطوه من الديوان الخاص كل ما يسألهم اياه .

وغاب « يوسف » الكيماوى فى الكرك أكثر مما كان متوقعا، وسرعان ما انكشف أمره ، وظهر خداعه وكذبه ، فقبض عليه وأرسل الى القاهرة ، وأودع السجن ولكنه نجح فى الفرار منه ، وخرج المنادى يذيع بين الناس خبر فراره ، وأرسلت الأوامر

لولاة الأقاليم للقبض عليه حيثما كان ، وقبض عليه فى مدينة أخميم ، وحمل مقيدا الى القاهرة ، ووضع فى قلعة الجبل ، ثم مثل بين يدى السلطان الذى سأله عن سر صنعته فكان جوابه : « كل ما كنت أفعله انما هو خفة يد » . وعوقب بالضرب وبالسجن حتى مات ، ثم سمر على نصب من الخشب وهو ميت ، وطيف به فى القاهرة على ظهر جمل لكى يكون عبرة لغيره .

ولقد عرفنا من زوجات « الناصر » أربع : اردكين ، والأميرة المغولية ، و « طغاى » وابنة الأمير تنكز .

وكانت « أردكين » تحب أخيه السلطان الأشرف خليل وقد مرّ بنا ذكرها من قبل ، ولما قتل أخوه اضطر للزواج منها حفظا لكيان الأسرة ، ورعاية لها ، فهو زواج دفعت اليه عوامل غير الحب ، ولذلك لم يقدر له أن يعيش طويلا وان كان قد أتى ثماره اذ أنجبت له « عليا » فى سنة ثلاث وسبعمائة (١٣٠٣ م) أى فى سلطنته الثانية وقد أراد «الناصر » أن يحتفل بمولده سبعة أيام ولكن الأميرين « بيبرس » و « سلار » لم يوافقا على ذلك واكتفى بيوم واحد فقط .

وعنيت « اردكين » بولدها أشد العناية لأنه كان فى الواقع الرباط الوحيد الذى يشيدها الى الناصر ، ولكن شاءت الأقدار أن تنتهى حياة « على » وهو لا يزال فى سن الطفولة ، فحزنت عليه أمه حزنا عميقا : حزنت على فراقه ، وحزنت على مصيرها بعده ، فقد توقعت انصراف « الناصر » عنها بعد أن انقطعت الصلة التى كانت تربطهما ببعضهما البعض ، وقد تحقق بالفعل

ما كانت تخشاه ، فقد هجرها الناصر ، ثم طلقها وأنزلها من القلعة لتعيش فى القاهرة ورتب لها الرواتب المختلفة . وانصرفت هى للبكاء على حظها فى الحياة ، وأوقفت على قبر ولدها — فى القبة الناصرية — ما خصها من ميراث زوجهـا الأول « السلطان خليل » ، ورتبت عنده القراء لا ينقطعون عن تلاوة القرآن وظلت حتى ماتت .

أما الأميرة المغولية ، وكانت تسمى طلنبـاى أو طلوبيـه أو دلبيه كما يقول المقريزى ، فقد كان زواج الناصر بها زواجا سياسيا ، ذلك أنه أحب أن يبدأ مع المغول صفحة جديدة يمحو بها معالم ما كان بينه وبينهم من عداوة أشرنا اليها فى القسم الثالث من هذا الكتاب ، ومع انه أحرز عليهم نصرا مبينا الا أنه كان يحس أثر ما تركه هذا النصر من مرارة فى نفوس المغول ، وكان يدرك أن ملكهم « غازان » انما مات بحسرة هزيمته أمام جيوش المصريين ، ويعلم أنه لا يمحو أثر هذه المرارة ، أو على الأقل يضعف من حدتها مثل الاستجابة الى طلب الصلح الذى تقدم به اليه « أبو سعيد » الذى كان على عرش المغول وقد تولاه بعد وفاة « أولجاتيو » الذى جلس على العرش بعد موت « غازان ».

ترى كيف طاوعت « أبو سعيد » نفسه على أن يطلب الصلح وهو سليل هؤلاء المغول الذين دوخوا العالم؟ أغلب الظن عندى أنه أحس بعدم استطاعته الانتصار على المصريين ، وشـعر بأن استعداده الحـربى لا يمكن أن يرتفع مستواه الى مسـتوى استعداد جيش مصر ، يضاف الى هذا ان الأمور كانت غـير

مستقرة فى بلاده ، فأقبل على طلب الصلح رجـاء أن تتحسن العلاقات بينه وبين المصريين .

ولم يكن « الناصر » أقل رغبة من « أبى سعيد » فى الصلح فقد كان بطبعه يميل الى السلم ، ويرغب فى أن يسود السلام جميع البلاد ، وأن ترفرف الطمأنينة والأمن على النفوس ، فرحب بدعوة الصلح ، وظهرت فى الجو فكرة الزواج باحدى أميرات البيت المغولى ، ولم يعارضها « الناصر » توثيقا للروابط فأرسلت الرسل الى « أزبك » أمير المغول حينئذ لكى تخطب احد بنات بيت جنكيزخان ، ولكن تحركت فى نفوس المغول نعرة التعـالى القديمة ، وثارت فيهم حميتهم الكاذبة فعادت الرسل الى مصر وبصحبتهم رسل من لدن « أزبك » تحمل شروطا لهذا الزواج تكاد تكون معجزة ملخصها : مهر قدره ألف ألف دينار وألف ألف فرس وألف عدة كاملة للحرب ، ويضـاف الى كل ذلك ضرورة حضور جماعة من أمراء مصر مع نسائهم لكى يصحبوا العروس من بلادها الى مصر .

وأحس « الناصر » بما فى هذه الشروط من روح التعالى عليه ، فعدل عن الزواج ، ولكن لم يكد يمضى على ذلك سنوات ثلاث حتى بعث « أزبك » من تلقاء نفسه وبدون أن يطلب منه أحد شيئا ، بعث بآنسة من أحفاد « جنكيزخان» الى مصر فى صحبة بعض أمراء المغول ، ومائة وخمسين رجـلا ، وكان فى خدمتها ستون جارية ، وكان مع الوفد هدايا فاخرة للناصر من بينها أقمشة ثمينة نسجت فى بلاد الصين خصيصا لهذه المناسبة ونقش عليها

اسم السلطان الناصر ، ولا يزال فى متحفنا الاسلامى بالقاهرة وفى بعض متاحف أوربا بقايا من هذه الأقمشة .

وقد كان سفر هذه العروس وحاشيتها الى مصر عن طريق البحر ، ومرت فى طريقهــا على القسطنطينية ، وبالغ امبراطور الدولة البيزنطية فى اكرامها هى ومن معها ، وعندما وصلت الى الاسكندرية فى ربيع الأول من سنة عشرين وسبعمائة (١٣٢٠ م) ، واستقبلها رسل السلطان أحسن استقبال ، وخرج اليها فى عرض البحر الأمراء فى الحراريق (المراكب) لكى يحتفوا بها ، كما خرج اليها أيضا ناظر الخــاص « كريم الدين » ومعــه عربان وجمال لاستقبالها ، ونزلت الى البر ، ونصبت لها الخيام المصنوعة من الحرير لكى تستريح من سفر البحر ، ثم حملت فى مركب فخم يسير بها فى النيل الى مصر ، وهناك نزلت الى البر ، وركبت عربة الى الميدان ، والحجاب يمشون أمام عربتها ، ونصبت لها الخيام مرة ثانية ، وأقامت فيها ثلاثة أيام ، ثم حملت من الميدان الى القلعة فى عربة تجرها العجل وموشاة بالذهب ، ومزينة بالطنافس الثمينة ، أشبه ما تكون بالقبة المغطاة بالديباج .

وبعد يومين من وصولها الى القلعة ، مثل رسل « أزبك » بين يدى السلطان ، وكان كبيرهم مقعدا لا يقدر على القيام ولا المشى ، وسلّم للناصر كتابا يحمله من مولاه ، وقال له انه سبق للسلطان أن طلب احدى بنات أسرة جنكيزخان ، ولما لم يتحقق هــذا الطلب حينذاك تكدر خاطر السلطان ولذلك رأى مولاه «أزبك» أن يرسل له هذه العروس ، وهو يأمل أن تحوز اعجابه ورضاه ،

وقد ختم كلامه بقوله : « وان لم تعجبك فاعمل بقول الله تعالى ، ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » .

وقد رد « الناصر » على ذلك بقوله : « نحن لا نريد الحسن ، وانما نريد كبر البيت ، والقرب من أخى ، ونكون نحن واياه شيئا واحدا » .

وبدأت مراسم الزواج ، وتولى قاضى القضاة عقد القران على مهر قدره ثلاثون ألف دينار ، المعجل منها عشرون والمؤجل عشرة آلاف .

وقد خلع السلطان بهذه المناسبة خلعا كثيرة على المحيطين به ، وبنى على العروسة فى تلك الليلة ، ولكن يظهر انها لم ترق له فتركها فى الصباح ، وخرج للصيد ، وأمر بتجهيز الرسل ، وكان من بينهم رسل امبراطور بيزنطة الذين حضروا مع العروس عندما نزلت بالقسطنطينية وبالهدايا والانعامات وتسفيرهم .

وقد ظلت هذه الزوجة المغولية فى عصمة « الناصر » ثمانى سنوات ثم سرحها ، وبعد أن انقضت عدتها زوجها من أحد الأمراء .

وقدمت رسل من « أزبك » بعد الزواج بمدة طويلة ، وكانوا يحملون للناصر كتابا يعتب فيه على « الناصر » تطليقه لهذه الأميرة وتزويجها من بعض أمراء المماليك ، وقد طالب « أزبك » فى كتابه هذا بعودتها اليه ، ولكن هذه الأميرة كانت قد ماتت عند ورود هذا الكتاب ، وكانت قد تزوجت بعد طلاقها من السلطان بثلاثة

أمراء واحدا بعد الآخر . وقد أعاد الناصر رسل السلطان «أزبك» محملين بالهدايا دون خطاب منه .

وأما « طغاى » أو « الخوندة الكبرى » أو « أم أنوك » كما يسميها المقريزى ، فقد كانت أحب زوجات الناصر اليه ، وأقربهن من قلبه ، كانت فى الأصل جارية تركية اشتراها الأمير « تنكز » وبعث بها الى السلطان فى مصر ، ولكن سيدها الأصلى شق عليه فراقها لشدة شغفه بها فسافر الى مصر ، واحتال حتى حظى بمقابلة السلطان الذى طيب خاطره ، ومنحه آلفى دينـــار أخذها وعاد من حيث أتى .

وقد كانت بديعة الحسن ، باهرة الجمال ، ولم يدم « الناصر » على محبة امرأة سواها ، فتنعمت بنعم لم يصل سواها لمثلها ، ورأت من السعادة مالم يره غيرها من نساء السلاطين المماليك فى مصر .

ويتجلى مدى اعزاز « الناصر » لها فيما أمر بعمله لها أثناء حجها ، اذ حملت لها البقول فى محاير من الطين على ظهـــور الجمال ، وأخذ لها الأبقار الحلوب فسارت معها طوال الطريق لاجل اللبن اللازم للشرب ولعمل الجبن ، وكان يقلى لها الجبن فى الغذاء والعشاء .

وقد كان الأمراء والعلماء المرافقون لها فى هذا الحج يترجلون عند نزولها ، ويمشون بين يدى محفتها ، ويقبلون الأرض لها كما يفعلون للسلطان .

وعندما عادت من الأقطار الحجازية خرج السلطان للقائها ،

ومد سماطا عظيما بهذه المناسبة وخلع على الأمراء ، وعلى كبار الموظفين وعلى نساء القصر . وقد كان يوم عودتها هــذا يوما مشهورا ولم يسمع بمثل تلك الحجة فى كثرة خيراتها ، وسعة العطاء فيها ، ويقال انه بلغت نفقتها ما يقرب من الثمانين ألف دينــار .

وفى الحق لقد ظلت هذه السيدة كثيرة الخير والصــدقات ، عفيفة طاهرة الذيل ، تفعل المعروف ، ولم تطغها هذه النعمــة العظيمة التى وصلت اليها .

وقد أنجبت للسلطان ابنه آنوك ، فى نصف جمادى الآخرة من سنة احدى وعشرين وسبعمائة (١٣٢١ م) وأقام لهــا بهذه المناسبة احتفالا عظيما .

* * *

وأما ابنة الأمير « تنكز » وتدعى « خوند مطلونبك » فقد كانت من المقربات الى السلطان بحكم الصلة الوثيقة التى كانت تربطه بوالدها الأمير « تنكز » ، تلك الصلة التى ظلت تقوى على الأيام الى أن تغير قلب السلطان على صديقه القديم قبيل وفاته ببضعة أشهر كما ذكرنا من قبل ، ولم يعش السلطان طويلا بعد أن أمر بتعذيب تنكز ثم قتله .

ولعل من أقوى الأدلة على قيام هذه الصداقة المتينة ، والصلة الوثيقة بين السلطان وأميره ما وقع بينهما فى آخر زيارة للأمير « تنكز » لمصر ، فلقد أبدى فيها السلطان من العطف على أميره ، وعمق محبته له ما كان يستبعد معه وقوع ذلك الغدر من جانب

السلطان ولما يمض على هذه الزيارة الا وقت قصير ، ولكن لعل للناصر عذره فى ذلك ، فليس من المستبعد أن تكون الشبهات التى حامت حول بعض تصرفات « تنكز » قوية بعثت القلق فى نفس السلطان ، وأن يكون الوشاة قد أحكموا تدبيرهم فى تصوير « تنكز » بصورة الطامع فى العرش بحيث لم يستطع الناصر أن يغمض عينيه عن خيانة صديقه ، ولا شك أن حزنه كان شديدا ولكن حنقه كان أشد وأعمق فلم يترك فى نفسه مجالا للعفو أو التخفيف من العقاب .

ولكنا قد خرجنا بعض الشيء عما نحن بصدده من عرض الجانب الخاص من حياة « الناصر » ، والواقع ان اثبات ما وقع فى زيارة تنكز لمصر التى أثارت هذا الاستطراد يكشف لنا عن جانب محبب من حياة هذه الشخصية التى نترجم لها .. فلقد قدم تنكز الى مصر ومعه للسلطان هدايا عظيمة تجل عن الوصف — كما يقول المقريزى — فيها أوانى البللور ، وفيها الأقمشة ، وفيها الخيل والسروج ، وفيها الجمال وفيها غير ذلك مما يضيق المجال عن ذكره . وبعد أن قام بتقديمها الى السلطان اصطحبه هذا معه الى داخل الدور السلطانية حتى يرى ابنته — وهى كما ذكرنا احدى زوجات السلطان — وما كادت ترى والدها حتى قامت اليه وقبلت يده .

وأمر السلطان بخروج جميع بناته اليه ، وطلب اليهن تقبيل يد « تنكز » وكان يقول لهن واحدة بعد أخرى : « بوسى يد عمك » .

واختار السلطان اثنتين من بنــاته لتكونا زوجتين لولدى « تنكز » ، ولم يسع تنكز أمام هذا الموقف الا أن يقبل الأرض بين يدى السلطان .

وانتهت زيارة « تنكز » لأسرة الســلطان وهم بالخــروج فلم يتركه السلطان يخرج منفردا بل اصطحبه حتى أوصله الى الباب الخارجى للدور السلطانية وظل يحادثه طوال الطريق ، وهذا تكريم لم يحظ به أحد من قبل .

وخرج الناصر للصيد بعد ذلك وذهب فى تلك المــرة الى الصعيد ، واصطحب تنكز معه ، وبعد أن انتهى الصيد عادوا سويا الى القلعة ، وما كادا يستقران فيها حتى نادت البشائر بأن ابنة تنكز زوجة السلطان قد وضعت بنتا ، وفرح تنكز بذلك ، وفى حضرة السلطان سجد لله شكرا ثم قال للسلطان :

— يا خــوند ! كنت أتمنى أن يكون المولود بنتا ، وقد حقق الله أمنيتى ، ولو أن ابنتى وضعت ذكرا لكنت أخشى من تمام السعادة ، فان السلطان قد تصدق علىّ بما غمرنى به من السعادة فخشيت كمالها .

وظل « تنكز » ينعم فى قصر السلطان بضعة أيام ثم أخــذ يستعد للعودة الى مقر عمله فى دمشق ، واستأذن فى الدخــول الى السلطان لتوديعه فسأله :

— هل بقى لك حاجة تريد أن أقضيها لك قبل سفرك ؟

فقبل تنكز الأرض وقال : « والله يا خوند ما بقى فى نفسى شىء أطلبه الا أن أموت فى أيامك » . فقال السلطان : « لا !

ان شـاء الله تعيش أنت ، وأكون أنا فداءك أو أكون بعـدك بقليل ! » .

فقبل « تنكز » الأرض وانصرف محملا بالهدايا والخلع ، وقد حسده سائر الأمراء وكثر حديثهم فيما واتاه له من اكرام زائد .

ولقد حرصنا على أن نثبت هذه الصورة بشيء من التفصيل وبلغتها التى حفظها لنا المؤرخون وذلك لكى نصور للقارىء بالألفاظ ، هذه العلاقة الوطيدة التى كانت بين الناصر وتنكز والتى أفسدتها الوشاية بعد قليل أو أفسدها الخوف من ضياع السلطان .

* * *

ولقد رزق الناصر الكثير من البنين والبنات ، أما البنـون فكانت عدتهم نحو ستة عشر ولدا ، ولى السلطنة منهم ثمانية ، وتوفى منهم فى حياته ثلاثة كان آخرهم « آنوك » الذى حزن عليه حزنا شديدا لعله كان من أسباب التعجيل بوفاته .

وأما البنات فنذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر خوندتتر الحجازية ، التى لها فى المتحف الاسلامى بالقاهرة تحف جميلة تذكرنا بها وبعصر أبيها الزاهر . ولقد زوجهن بأمرائه وكان يقيم لكل واحدة فرحا عظيما تتجلى فيه عظمة مصر حينئذ ورخاؤها الذى كان مضرب الأمثال .

ونذكر على سـبيل المثال زواج ابنته على الأمير « عـلى ابن أرغون» الذى كان فىشعبان من سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة

(١٣٢٣ م) ، فلقد اعتنى السلطان بجهاز ابنته عناية فائقة ، وعمّر لها فى مناظر الكبش عمارة جديدة ، ونقل جهازها اليها ، وكان بنفسه يشرف على ترتيب هذا الجهاز ، وأقام لها حفلا استمر ثلاثة أيام حضره نساء الأمراء بهداياهم واشترك فى الحفل ثمانى فرق من مغانى القاهرة ، وعشرون جوقة من جوارى السلطان والأمراء وخص كل فرقة من فرق القاهرة خمسمائة دينار ، ومائة وخمسون تفصيلة حرير ، ولم يحصر ما حصل عليه جوارى السلطان وجوارى الأمراء لكثرته .

ولما انفض الحفل بعث السلطان لكل من نساء الأمراء تعبية قماش على قدرها ، كما منح الأمراء الخلع المختلفة ، وفضل من الشمع بعدما استعمل منه مدة العرس ألف قنطار . ولقد أنعم السلطان على والد العريس « الأمير أرغون » بمنية بنى خصيب زيادة فى اقطاعه .

وبعد ذلك بأربع سنوات أى فى جمادى الآخرة من سنة سبع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٦ م) أقام السلطان حفل زواج بنت أخرى من بناته على الأمير قوصون (صاحب المسجد المشهور بشارع محمد على بالقاهرة الذى يعرفه العامة باسم جامع قيسون) وقد كان جهازها شيئا عظيما ، وقد عمل الفرح سبعة أيام ، وذبح فيه خمسة آلاف رأس من الغنم الضأن ، ومائة رأس من البقر ، كما ذبح فيه أيضا خمسون فرسا ، ومن الدجاج والأوز ما لا يحصى كثرة .

وقد يبدو ذبح الفرس غريبا أمام القارىء فى عصرنا الحديث ،

ولكن غرابته تزول اذا ما عرف ان لحم الخيل كان يقدم فى عصر الناصر بل فى عصر المماليك عامة ، فى الولائم الكبرى ، وليس ببعيد أن يكون ذلك راجع فى أصله الى عوائد المماليك فى البلاد التى كان معظمهم يجلبون منها (حول نهر الفولجا) ، فقد كانت لحوم الخيل فى تلك الجهات تقدم فى ولائم الأعياد والمواسم .

وقد استعمل أيضا فى هذا الحفل من السكر برسم الحلوى « وتحالى الأطعمة والمشروب » كميات هائلة .

وبلغ وزن الشمع الذى أحضره الأمراء ثلاثمائة وأحد عشر قنطارا ، وعمل برج بارود ونفط ، أى ألعاب نارية بلغتنا الحديثة ، وحصل المغنيات على « نقوط » بلغ مقداره عشرة آلاف دينار ، وقدم جميع أمراء مصر والشام هدايا جليلة .

ولا تختلف هاتان الصورتان اللتان قدمناهما هنا كثيرا عما اتبع فى زواج بنات السلطان الأخريات .

أما فى زواج الأبناء فالأمر يختلف بعض الشىء ، فعند زواج الأمير « آنوك » مثلا حمل المهر من خزانة الخاص الى بيت الأمير « بكتمر الساقى » والد العروس ، وكان يتكون من عشرة آلاف دينار ومائتين وخمسين تفصيلة حرير ومائة وعاء لحفظ المسك ومائة مثقال عنبر خام ومائة شمعة موكبية (أى شمعة كبيرة برسم المواكب) وثلاثة خيول مسرجة ملجمة وخمسة مماليك على يد كل مملوك بقجة . وقد عقد العقد فى القصر السلطانى على صداق قدره اثنا عشر ألف دينار من الذهب ، المقبوض منها عشرة آلاف والمؤجل ألفان .

وقد كتبت الدعوات لهذا الحفل ، وبعث بها الى شتى الجهات ؛ وصدرت الأوامر باستحضار جميع من بالقاهرة ومصر من أرباب الملاهى الى الدور السلطانية . واستمر الفرح سبعة أيام بلياليها ، ودعى اليه حريم جميع الأمراء ، وفى ليلة العرس جلس السلطان على باب القصر ، وأشعلت الشموع بأسرها ، وجلس العريس تجاه والده ، وأقبل الأمراء جميعا ، يحمل كل أمير بنفسه شمعة ، وخلفه مماليكه تحمل الشموع ، وتقدموا على قدر مراتبهم من السلطان ، وقبلوا الأرض بين يديه واحدا بعد واحد . واستمر الحفل طوال الليل ، وفى آخره نهض السلطان وعبر الى حيث مجتمع النساء ، وكن فى أبهى حللهن ، وأفخر ثيابهن ، فقامت نساء الأمراء جميعا وقبلن الأرض بين يدى السلطان واحدة بعد أخرى ، وقدمن له التحف الفاخرة ، و « النقوط » وما كاد ينتهى ذلك حتى رسم السلطان بأن يرقصن كلهن عن آخرهن ، فرقصن واحدة بعد واحدة ، والمغنيات يضربن بالدفوف ، وأنواع المال من الذهب والفضة ، وشقق الحرير كانت تلقى على الفتيات ، فحصل لهن ما يجل عن الوصف وأخيرا زفت العروس .

وفى بكرة الغد ، جلس السلطان ، وخلع على الأمراء والموظفين ، ورسم لامرأة كل أمير من الأمراء بتعبية قماش على قدر منزلة زوجها فى الدولة .

وقد ذبح فى هذا العرس من الغنم والبقر والخيل والأوز والدجاج ما يزيد على عشرين ألف رأس ، وعمل فيه من السكر برسم الحلوى والمشروب ثمانية عشر ألف قنطار ، وبلغت قيمة

ما حمله الأمير «بكتمر» (والد العروسة) من الشورة (أى الجهاز) ألف ألف دينار ، وقد حمل « الجهاز » على ثمانمائة جمل ، ستة وثلاثين قنطارا من البغـــال ، وبلغ الذهب فى المصاغ والملابس والزركش ثمانين قنطارا . ومع ذلك فقد استصغره « الناصر » عندما رآه ، وقال انه رأى « شوار » بنت الأمير سلار وهو أحسن من هذا بكثير .

* * *

ولقد كان « الناصر » مثال الزوج الوفى والأب الحكيم ، فعلى الرغم من كثرة مشـــاغله ، لم يكن ينسى أن عليه واجبـــا لزوجاته لا يقل عن واجبه لدولته ، وعليه واجب لأولاده لا يقل عن واجبه كسلطان ، فهو زوج وأب كما هو سلطان للبلاد ، ولذلك كان يخرج للنزهة مع زوجاته وبناته وكانت « منطقة الجيزة والأهرام » أحب البقاع اليه ، كثيرا ما يغشاهما للاستجمام كلما سمحت له أعماله الكثيرة بذلك ، وكان عندئذ يستدعى « الحريم » اليه من القلعة لقضاء بعض الوقت فى النزهة ، وكن اذا خرجن أخليت الطرقات لهن من المارة ، وغلقت الحوانيت وقت مرور موكبهن .

وكانت زوجته المحبوبة « طغاى » أو الخونده الكبيرة ، اذا خرجت الى النزهة ركبت فرسا ، وأمسك بزمام الفرس أمير من الأمراء ، وسار حولها سائر الخدم مشاة منذ تركها القلعة حتى وصولها الى النيل ، وهناك تكون « حراقة » فى انتظارها ، فتنزل اليها ، وتسير بها المركب حتى بر الجيزة .

وفى بعض الأحيان كان يدعى الى هذه النزهة نساء الأمراء المتصلين بالسلطان لكى يكنّ فى معيـة نسائه ويقطعن الوقت معهن فيما اعتاد النساء أن يتحدثن فيه فى ذلك الوقت ، ويظل الجميع هناك فى أهنأ عيش حتى يعودن الى قصورهن .

* * *

وكان عطف السلطان على بنيه وبناته مشربا بالحزم ، فقد كان يعنى بتوفير وسائل الحياة الرغدة لهم ، ولكنه لم يكن يسمح لهم قط بأن يخرجوا — بحكم كونهم أبناء السلطان — عن الطريق السوى أو أن يستغلوا هذه الصلة فى انتهاك حرمات الآخرين ، بل لعله كان يطمع فى أن يكونوا مثالا يحتذى فى الأخلاق الطيبة ، وقدوة لغيرهم فى السلوك الحسن .

وكان اذا علم عن أحد منهم ما يشينه أوقع به أقسى العقاب ليردعه عن غيه ، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجده عندما عرف أن ابنه الأمير « أحمد » قد أساء السيرة فى الكرك بعث يستدعيه اليه ، ولم يدع أحدا من الأمراء يخرج الى استقباله كما جرت العادة بذلك ، حتى يشعره أنه مغضوب عليه ، ولما دخل عليه فى القصر ، وقبل الأرض بين يديه ثم اعتدل فى وقفته تركه واقفا ما يقرب من ساعة ، وهو يتشاغل عنه بأمور تافهة ولا يأذن له بالتقدم منه لكى يقبل يده كما كان يفعل دائما ، وأخيرا انتبه له السلطان ، ولم يسمح له بتقبيل يده فمضى الى الدور السلطانية حزينا كاسف البال . ومضت على هـذا الحادث سنتان واذا بالسلطان يغضب من جديد على الأمير « أحمد » لسبب

لم يفصح عنه المؤرخون ، فأمر السلطان بتسفيره الى الكرك ، وأصدر أمره للوالى ألا يسمح له بأى حديث فى شئون الدولة ، وألا يجعله حكما بين اثنين .

* * *

ولعل حزمه فى تربية أولاده يظهر بشكل أوضح فيما جرى له مع ابنه « انوك » وقد كان أحب أبنائه الى نفسه ، وأعزهم عليه ، يفضله على أولاده جميعا تفضيلا جعله يفكر جديا فى جعله وليا للعهد ، ولا عجب فى هذا الحب فقد كان « آنوك » ابنه من أحب زوجاته اليه ، وأقربهن الى نفسه ، من « طغاى » التى أسلفنا الاشارة اليها .

ولكن هذا الحب العظيم لابنه ما كان ليمنعه من تأديبه ، ذلك أن « آنوك » كان يلهو كغيره من الشبان ، وقد اتخذ للهوه مكانا على بركة الحبش حيث بنى لنفسه بيتا صغيرا يلتقى فيه مع المغنيات والراقصات . وقد كان مشغوفا بمغنية تعرف « بالزهرة » لا يطيق عن فراقها صبرا .

وعلم السلطان — عن طريق رجاله الذين كانوا منبثين فى كل مكان — بما كان يأتيه ولده ، ولم يرض عن سلوكه هذا ، ورأى فيه خروجا لما ينبغى أن يكون عليه شباب الأسرة الحاكمة الذين يجب أن يكونوا قدوة طيبة لغيرهم من شباب الأمة .

ولم يشأ « الناصر » أن يجابه ولده بما عرفه من سلوكه ، لا خوفا منه ، ولكن حرصا على توجيهه بالحسنى ، وعدم اهدار كرامته فى عين أبيه . فأوعز سرا الى أحد موظفيه أن يستدعى

المغنيات والراقصات ، ويلفت نظرهن الى أن عملهن انما ينبغى أن يكون مقصورا على المناسبات العامة ، وفى الحفلات التى يحضرها خلق كثيرون ، ويوجه انتباههن الى أنه محرم عليهن آن يزاولن الغناء والرقص فى الحفلات الخاصة التى يقتصر حضورها على الشبان دون أسرهم وهددهن بتوقيع أقصى العقـوبة عليهن ، وبالزامهن بدفع غرامة كبيرة اذا هن لم يستجبن فى عملهن الى هذا التوجيه .

وقد حذر « الناصر » موظفه هذا بأن يكون حريصا أشد الحرص على أن لا يترك مجالا للظن بأن هذا التوجيه كان بايعاز من السلطان . ونفذ الموظف الأوامر التى صدرت اليه على أحسن وجه ، وآتت هذه الأوامر ثمارها فامتنعت « الزهرة » عن الذهاب الى « عش الغرام » على بركة الحبش ، وحاول آنوك أن يعرف سر امتناعها عن الحضور فلم يفلح ، فشق عليه غيابها ، وزهدت نفسه فى الطعام والشراب ، وبان ذلك فى وجهه ، ولم يخف أمره على أمه التى أخذت تستوضحه السبب وهو يلوذ بالصمت حتى أفلحت أخيرا فى حمله على الكلام ، وعندما عرفت السبب طيبت خاطره ، ووعدته بالعمل على تحقيق رغبته وبالفعل نراها ، اشفاقا عليه من التلف ، قد مكنته سرا من هواه .

ولكن آنوك كان يحسب حساب والده ، ويخشى أن يفتضح سره أمامه فتسقط منزلته فى نظره ، ففكر فى طريقة تشغل السلطان عنه ، وهداه شيطان الشباب أو أوحى اليه والى بعض أصدقائه بحيلة استغلت فيها نقطة الضعف فى الناصر أحسن استغلال ،

وتصور آنوك أن هذه الحيلة سوف لا تترك لدى السلطان وقتا يتعقب فيه أفعاله وبالتالى سوف تتيح له فرصة يحقق فيها نزواته ، ذلك أنه كتب أو استكتب أحد أصدقائه ورقة يحذر فيها السلطان من الأميرين « بشتك » و « آقبغا » وألقى بالورقة الى فراش السلطان

وعرف الأمير « أقبغا » بهذه الحيلة ، وأسرع الى السلطان ليكشفها له ، وأطلعه على الدافع الى كتابتها ، فغضب السلطان أشد الغضب ، وأمر ببيع « عش الغرام » ثم استدعى اليه ولده « آنوك » ، وأشبعه لوما وتعنيفا ، وهمّ بقتله لولا أن حالت دون ذلك أمه وجواريها .

ودخل آنوك غرفته وهو يرتعد من الخوف ، ولزم فراشه أياما يعانى من هذه الصدمة العصبية التى ترتب عليها مرض عضال تمكن من آنوك ، ولم يغادره الا بعد بضعة أشــهر عندما هصر الموت غصن شبابه .

ودفن آنوك فى التربة الناصرية فى « بين القصرين » حيث دفن أخوه علىّ من قبل وكان لموته يوم مهول ، اشترك فى جناز جميع الأمراء ، وحزنت أمه عليه حزنا شديدا فباعت ثيابه وتصد بثمنها على الفقراء ، ورتبت القراء على قبره ، وأوقفت أعيانا كثيرة ، وأقامت سنة تعمل كل ليلة جمعة على قبره يحضره القراء لقراءة الختمة ، وتمد لهم الأسمطة الجليلة

وقد كان موت « آنوك » بالنسبة لوالده ضر

ظهره ، وكسرت نفسه ، فظل حزينا ، كاسف البال حتى لحق به بعد بضعة أشهر .

* * *

ولقد كان « الناصر » مشغوفا بالخيل شغفا ملك عليه كل أوقات فراغه ، وكان يبذل فى سبيل الحصول على أحسن الخيول كل ما يملك ، ولا يبخل على اقتنائها بشىء ، له عيون من الأعراب يدلونه على كل فرس أصيلة ، ويرشـــدونه الى أحسن أنواع الخيول فى شتى البقاع .

وكان طبيعيا وهذا الشغف لديه أن تتوافر لديه معرفة واسعة بالخيل ، وأنسابها ، وحسناتها وعيوبها ، وأغلب الظن أنه خدم هوايته هذه بالاطلاع على كل ما كتب عن الخيول العربية وهو ليس بالقليل .

وكان اذا عرضت عليه فرس للشراء ، فحصها فحص الخبير فاذا أعجبته لم يتردد مطلقا فى أن يدفع فيها ما قدره بائعها من الثمن .

وأمام هذه العناية الكبيرة بالخيل كان لابد له من أن يعنى بالاسطبلات فجعل منها مؤسسة سلطانية لها أهميتها فى الدولة ، وجعل على رأسها ناظرا ، ولها موظفون لضبط أسماء الخيل ، وساعات ورودها ، وأسماء بائعيها ، ومقدار أثمانها . وكان طبيعيا كذلك أن يعلو شأن تجار الخيل فى أيامه ، ويزداد ثراؤهم فيلبس رجالهم الحرير المزركش ، وينعمون بالقماش المرقوم ، ويتباهون بالخلع المصنوعة من القماش الاسكندرانى المطرز بالذهب ، ويتحلى نساؤهم بأطواق الذهب ، والأساور المرصعة بالجواهر واللآلىء ،

والبراقع المزركشة بعد أن كن ورجالهن ، لا يلبسون الا الخشن من الثياب .

وقد كان عدد خيول الناصر ثلاثة آلاف فرس ، يعرض كل سنة نتاجها عليه ، فيعنى بها ويسلمها لمن يعلمها ويروضها . ومن لوازم العناية بالخيل ، العناية بالسباق وقد كان « الناصر » شديد الاهتمام به اذ كان يرسل كل عام ما ينيف على مائة وخمسين فرس بقصد السباق فى ميدان القبق خارج القاهرة وفى الميدان الناصرى .

* * *

وكان الناصر — على عادة الملوك والسلاطين والأمراء — مشغوفا بالصيد ، يخرج اليه كلما سنحت له ظروف أعماله فيقصد الى الصعيد أو الى البحيرة أو الى قليوب أو الى غير هــذه من الأماكن التى عرفت بوفرة صيدها ، وقد كان يجعل فى هــذه الأماكن صيادين مقيمين يكونون على أهبة الاستعداد فى أوان الصيد . وقد كان خروجه للصيد سببا فى أنه عرف على الطبيعة معظم نواحى البلاد ، وعرف ما تحتاج اليه من اصلاح فعمل على تحقيقه كما سنرى عند كلامنا على التعمير .

وكان اذا خرج للصيد يصطحب معه بعض خاصته ليتبارى واياهم فى هذه الهواية ، وفى ذات يوم خرج الى قليوب يريد الصيد وكان معه فريق من أمرائه ومماليكه ، ولسبب ما وقع عن فرسه وهو يجرى به فانكسرت يده ، وغشى عليه ، وظل نحو ساعة وهو ملقى على الأرض ، وعندما أفاق من غشيته وجد نفسه محاطا بالأمراء والمماليك الذين أقبلوا على خدمته ، وعادوا به

محمولا الى القلعة حيث استدعى الأطباء والمجبرين لعلاجه . وكان من بين المجبرين رجل أقبل عليه ، وكلمه فى حدة وغلظة أدهشت الحاضرين ، وأغضبت السلطان ، لأنها لم تكن متوقعة من رجل مثله ، ولكن الرجل لم يبال بما ارتسم على الجوه من استغراب ممزوج بالسخط ، وقال للسلطان بلهجة جافة :

— هل تريد أن تشفى سريعا ؟ اسمع منى !! فقال له السلطان فى غضب :

— قل ما عندك . فقال الرجل :

— لا تدع أحدا يداويك غيرى ، بمفردى والا فسدت حال يدك ، وقد سلمت رجلك لابن السيسى فأفسدها . أما أنا فلن يمضى عليك شهر حتى تركب وتلعب الكرة بيدك ، فلم يجب السلطان بشىء بل سلمه يده فى سكون ، وتولى هذا الرجل علاجه بمفرده ، واستغرق ذلك سبعة وثلاثين يوما ، شفى بعدها السلطان من كسره .

ومن كلام هذا الرجل نستطيع أن نفهم أن « الناصر » قد سبق له — فى وقت لا نعرفه — أن أصيب بكسر فى رجله اليمنى وأن الذى أشرف على علاجه « ابن السيسى » ولم ينجح فى مهمته ولعل هذا القول يفسر لنا ما جاء فى المقريزى عند وصفه للناصر من أنه كان مصابا بقصر فى ساقه اليمنى ولا يكاد يصل من قدمه الى الأرض الا أطراف أصابعه ، وأنه كان لا يمشى الا متكئا على أحد أو متوكئا على عصا .

ولما علم الشعب بشفاء السلطان زينوا القاهرة ، وتفاخروا فى الزينة الى حد كبير ، ويصف ابن بطوطة فى رحلته — هذه الزينة بأن التجار قد تفننوا فى تزيين الأسواق ، فعلقوا فى حوانيتهم الحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياما . وأقيمت الأفراح سبعة أيام فى القلعة وسائر بيوت الأمراء ، وصدحت الموسيقى ، وأنعم السلطان على الأمراء ، وفرق عدة اقطاعات على الأيتام ، وأقام سماطا جليلا خلع فيه على الموظفين خلعا شتى . أما المجبر فقد كوفىء وحده بعشرة آلاف درهم ، وطلب اليه أن يدور على جميع الأمراء ، فأفاضوا عليه المال والملابس ، وحصل على شىء كثير يجل عن الوصف .

وقد استلزمت هواية السلطان للصيد أن يجلب الطيــور الجوارح التى تساعد على الصيد مثل الصقور والشواهين والبزاة والسناقر ، وقد كثرت هذه الأخيرة فى البلاد كثرة تستلفت النظر فقد أصبح عند كل أمير منها عشرة أو أقل أو أكثر بعد أن كان لا يملك الا واحدا ، ويكفى أن نذكر أن قلاوون ، والد الناصر ، لم يكن عنده الا سنقر واحد بينما ترك الناصر بعده عددا كبيرا منها .

كما استلزمت أيضا هذه الهواية اقامة الخدام لهذه الطيور التى تعين على الصيد ، وقد أقطعهم السلطان الاقطاعات العظيمة ، وأجرى عليهم الرواتب من اللحم والعليق والكساوى وغير ذلك ، ولم يعرف عن سلاطين مصر — قبل الناصر — أنهم وجهوا مثل

هذه العناية نحو الصيد . ولا ننسى هنا أن السلطان قد وجه اهتمامه كذلك الى كلاب الصيد فجعل لها فى الجبل موضعا خاصا تربى فيه .

ولم تقف هواية الناصر عند العناية بالحيوانات والطيور التى يستعان بها فى الصيد بل نراه أيضا يهتم بتربية الأغنام والأبقار والأوز ، فيستجلب منها أحسن الأنواع ، ويخصص لها الخدم للعناية بشأنها .

ويذكر المؤرخون أنه قبل وفاته بثلاث سنوات استحضر من الصعيد ألفى رأس من الضأن ، ومن الوجه البحرى مثلها ، ثم شرع فى عمل حوش برسمها ، وبرسم الأبقار سنتحدث عنه عندما نتحدث عن التعمير الذى قام به الناصر فى البلاد .

* * *

ولقد كان « الناصر » محبا للعب الكرة ، ولا ننسى أنها كانت تؤدى عادة واللاعبون على ظهور جيادهم ، فلم يكن الكسر الذى أصيب به فى ساقه اليمنى وأشار اليه « المجبر » الذى تولى علاجه بعد وقوعه عندما خرج يصطاد فى قليوب ، يمانعه من ممارسة هذه اللعبة التى كان يتبارى فيها مع الأمراء كل يوم ثلاثاء والتى من أجلها أنشأ الميدان العظيم تحت القلعة الذى سنتحدث عنه بعد قليل .

* * *

وقد كان الناصر يعنى بجمع أصناف الجواهر ، وعرف التجار عنه ذلك فتنافسوا فى احضارها اليه من شتى الأقطار .

وقد وجدت فى تركته كميات كبيرة من الياقوت المختلف الألوان ، والبلخش (نوع من الأحجار الكريمة) والزمرد ، وعين الهر (نوع من الياقوت) واللؤلؤ ، والحلى المختلفة المصنوعة من الذهب .

الناصر فى حياته العامة

الناصر والمماليك

لقد كان المماليك عصب الحكومة ، ومادتها الرئيسية كما أوضحنا ذلك فى القسم الثانى من هذا الكتاب .

واذا كان قلاوون — والد الناصر — قد عنى بهم عناية ملحوظة فان الناصر كانت عنايته بهم أعظم ، ولقد أحس بعد أن صارت أمور الدولة كلها بين يديه ، أنه من الضرورى أن يستكثر منهم ، وأن ينشئهم التنشئة التى تضمن له ولاءهم ، لذلك نراه قد سير التجار الى بلاد أزبك ، وبلاد الروم وغيرهما لجلب المماليك ، وكان التاجر اذا أتاه بالحلية منهم ، بذل له أغلى الأثمان ، ومن هنا كان تنافس التجار فى احضار أحسن المماليك اليه .

ولقد كان من أشهر تجار الرقيق الذين اتصلوا به وكان لهم شأن عظيم عنده شخص يدعى اسماعيل بن محمد كان يذهب الى بلاد المغول ويعود بالرقيق وغيره ولقد ساهم فى اقرار الصلح بين الناصر والمغول ، وكان الناصر يكلفه بكثير من المهام فى الخارج فيؤديها له على أحسن وجه .

واختلفت سياسة الناصر مع مماليكه عن سياسة أسلافه معهم ، فكان يرى أن ينعم على المماليك عند أول حضورهم للبلاد

بالملابس الفاخرة والخيول المطهمة ، والعطايا الجزيلة حتى يرضيهم ويملأ عيونهم سعادة ونفوسهم غبطة ورضى فينسون بلادهم الأصلية ويقبلون على أستاذهم (أى سيدهم الذى اشتراهم) يخلصون له الود ويدافعون عنه اذا اقتضى الأمر .

والواقع أنه شمل برعايته كبيرهم وصغيرهم على السواء ، وجمع فى معاملته لهم بين الحب المشبع بالعطف ، والتوجيه المشبع بالحزم ، والشواهد على ذلك كثيرة يخطئها العد نكتفى منها بعطفه على مملوكه « الطنبغا الماردانى » صاحب المسجد المشهور بحى التبانة بالقاهرة فقد كان يعوده أثناء مرضه بل ويمرضه بنفسه أثناء ذلك المرض .

ومنها ما أنزله من عقاب ببعض مماليكه الذين نزلوا من القلعة الى القاهرة ، وسكروا وارتكبوا أثناء سكرهم بعض المفاسد فأمر بضربهم ضربا مبرحا أشرف منه بعضهم على الموت ، ثم فصل مقدم هؤلاء المماليك ، وعين آخر بدلا منه جزاء وفاقا له على اهماله فى عمله .

وقد كان بطبعه لا يرتاح الى من ينصرف — من مماليكه — الى الانغماس فى الملذات وشرب الخمر ، ولا يتردد فى ردعه عن غيه بشتى الوسائل حفظا على ما ينبغى أن يتحلوا به من حسن الخلق وما ينبغى أن يتوفر لهم من حسن السمعة بوصف أنهم قدوة لغيرهم وهو فى ذلك يسير على النهج الذى كان يسير عليه أبوه من قبل وقد رفعت اليه يوما رقعة تتضمن أن أحد الأمراء المماليك يركب النيل ومعه أرباب الملاهى وعدد من المماليك

السلطانية ، وأنهم جميعا يفعلون كل فاحشة ، ويأخذون حـرم الناس . فاشتد غضبه ، وبعث فى طلب ذلك الأمير ، وهدده بالقتل ان هو عاد الى هذا السلوك المشين وأنزل العقاب بمن كان معه من المماليك السلطانية .

ولقد ألقيت ، ذات يوم ، اليه ورقة فى جناح طائر وجد باسطبل السلطان ، وفيها من العبارات ما يتضمن الانكار على السلطان فى تصرفاته ، وما يتهمه بالتفريط فى ملكه ومماليكه ، وتقول له ان العسكر (أى المماليك) قد تلف ، وباع أولاد الناس (أى أولاد المماليك) الاقطاعات التى بأسمائهم ، وصاروا يسألون الناس من الحاجة .

وما كاد ينتهى من مطالعة هذه الورقة حتى ثارت ثورة غضبه وبعث بطلب كشف بأسماء من باع من المماليك اقطاعه ، ومن أصبح منهم من غير فرش ، ونظر فى أمرهم ثم نفى منهم نحو مائة الى « الكرك » .

وتجمهر بعض المماليك — ذات يوم — عند باب القصر فى القلعة بسبب تأخر رواتبهم ، فى سنة ٧٢١ ، وكان كريم الدين هو ناظر المال وقد كان الناصر حينئذ فى جناح الحريم ، فلما أبلغ بخبر هذا التجمهر خشى أن يتطور الى ثورة فبعث اليهم أحد الأمراء لكى يتفاهم معهم ، ولكنهم لم يلتفتوا اليه ، ولم يسمعوا لنصحه ، فعاد الأمير الى السلطان يجرجر أذيال الفشل ويطلعه على نتيجة مقابلته لهؤلاء الثائرين ، وازداد حنق السلطان ، وخرج لتـوه اليهم وفى يده عصا صغيرة ، وتقدم منهم فى حزم وثبات جأش ،

وأهانهم ، وضرب بعضهم بعصاه الصغيرة وصاح فيهم بلهجة الآمر : « اطلعوا الى أماكنكم » — ولم يملك الثوار الا الطاعة ، وأغلب الظن أن المفاجأة قد أذهلتهم فلم يستطيعوا الا الخضوع اذ لم يكن يدور فى خلدهم قط أن يخرج اليهم السلطان بنفسه ، ويتقدم منهم وهو أعزل من السلاح وهم مسلحون .

وفى الحق أن بروز « الناصر » فى جماعة صغيرة من خدمه أمام هؤلاء الثائرين الذين لا رأس لهم ولا عقل — كما يقول المقريزى — لدليل ملموس على شجاعته الشخصية وشدة وثوقه من نفسه ومن قوة شخصيته .

وبعد أن هدأت الثورة أمر بالتحقيق فى أسبابها ، وطلب أن يعرض عليه أمر هؤلاء الثائرين ، وتصرف فى شأنهم تصرف الرجل الحكيم ، فأمر بتفريقهم ، اذ بعث بعدد منهم الى بلاد الشام ، وفرّق عددا آخر بين أمراء المماليك فى مصر ، وأمر بضرب بعضهم بالمقارع ، وعاقب بعضهم بتخفيض مرتباتهم . ثم التفت الى القائمين بأمر هؤلاء المماليك فعاقبهم كذلك لتفريطهم فى واجبهم واهمالهم فى توجيههم .

* * *

ولقد أحس « الناصر » بالأخطاء الجسيمة التى ارتكبها الأميران « سلار » و « بيبرس » — عندما كان فى أيديهما زمام الملك — فى حق صغار المماليك ، اذ زادوا فى اقطاعات جنودهم من المماليك زيادة كبيرة على حساب اقطاعات الجنود الآخرين مما ترتب عليه ظلم فادح ناء تحت ثقله معظم صغار المماليك ،

الأمر الذى دفع بالناصر الى اعادة النظر فى الاقطاعات جميعا تحقيقا للعدالة ، ولذلك نراه يعيد « روك » البلاد كما يقول مؤرخو العصور الوسطى ، أو يعيد مسح الأراضى الزراعية من جديد ، واعادة تقسيمها تقسيما عادلا بين الأمراء والجنود من المماليك ، أو بعبارة أخرى « فك الزمام » كما نقول اليوم بلغتنا الحديثة .

وقد عين الموظفين اللازمين لعمل هذا « الروك الناصرى » بكل جهة من جهات البلاد ، ونزل هؤلاء الموظفون الى الجهات التى عينوا فيها ، واستدعوا مشايخ القرى ، وقياسيها ، كما أحضروا سجلات كل بلد حتى يعرف ما يتحصل منه ، ومقدار ما فى زمامها من أفدنة ، وما كان يحصل عليه الجنود من الغلة ، والدجاج والأوز والخراف ، والكشك والعدس .

وأعيد مقاس الأرض ، وأثبت هذا القياس الجديد فى عدة نسخ ، حتى تم مسح البلاد بأكملها ، وعاد الموظفون المختصون بالأوراق الى السلطان .

وجلس السلطان لتوزيع الاقطاعات من جديد ، وقرر أن يخصص اليوم الواحد لتوزيع الاقطاعات على أميرين فقط وما لهما من مماليك ، وكان الناصر يستدعى كل جندى ويسأله عن اسمه وعن سيده حتى لا يخفى عليه شىء من أمره ، ثم يعطيه اقطاعا أو مثالا كما كان يسمى فى ذلك العصر يتلاءم مع حالته .

وقد كان أمراء المماليك حاضرين هذا التوزيع ، وكانوا عادة يمدحون من الجنود من يروق لهم حتى يختار السلطان لهم

اقطاعات حسنة ، ولكن الناصر فطن الى ذلك وأحس أن هـذا المديح الصادر من الأمراء قد يكون غير خالص لوجه المصلحة العامة ويخفى وراءه أغراضا خاصة وأراد ألا يتكلم أحـد فى المجلس ، لذلك أخذ يعطى الجندى الذى يمدحه الأمراء عكس ما كان يتوقعونه له ، ولما فطن الأمراء الى ذلك أمسكوا عن الكلام والشكر بحيث لم يتكلم أحد بعدها الا جوابا له عما يسأل عنه منهم .

ومن طريف ما حدث فى هذا الصـدد أن تقـدم للسـلطان مملوك فى وجهه ندبة تشبه أثر ضربة سيف ، فأعجب به السلطان ، وأعطاه اقطاعا جيدا ثم سأله :

— فى أى موقف من مواقف الحرب وقع فى وجهك هـذا السيف ؟

— يا خوند ! هذا ما هو أثر سيف ، وانما وقعت من سلم فصار فى وجهى هذا الأثر .

فتبسم السلطان ، وتركه ينصرف باقطاعه الجيد ، ولكن أحد الأمراء الحاضرين علق على تصرف السلطان قائلا : « ما بقى يصح له هذا الاقطاع » فالتفت اليه « الناصر » وقال له : « قد صـدقنى وقال الحق ، وقد أخـذ رزقه ، فلو قال أصبت فى « الواقعة » الفلانية — مَنْ كان يكذبه ؟

فارتاح الأمراء لهذا الرد ، ودعوا للسلطان ، وانصرف المملوك باقطاعه .

وتقدم رجل دميم الخلقة كان له اقطاع عظيم يدر عليه ثمانمائة

دينار فأعطاه السلطان اقطاعا آخر يدر عليه نصف هذا المبلغ ، وانصرف الرجـل باقطاعه الجديد ، ولكنه عاد بعـد قليل الى السلطان ، وقبل الأرض بين يديه ، فسأله السلطان عن سبب عودته فقال له : « الله يحفظ السلطان فانه غلط فى حقى ، فان اقطاعى القديم كانت غلته ثمانمائة دينار ، وهذا الاقطاع الجديد غلته أربعمائة دينار » . فقال له السلطان : « بل الغلط كان فى اقطاعك الأول ، فامض بما قسم الله لك » .

وقد كان السلطان حريصا على تحقيق العدالة ما أمكن فى توزيع هذه الاقطاعات ، وكان اذا رأى شيخا مسنا يخيره بين اقطاع يحصل عليه أو مرتب يجرى عليه من الدولة ، ويأمـر باعطائه ما يختاره ، واذا رأى شخصا عاجزا عن الحركة أمر بأن يرتب له ما يعوضه عن اقطاعه .

وطبيعى ان هذا التوزيع الجديد للاقطاعات لم يرض جميع المماليك ، لذلك فكر بعض الذين خيّل اليهم أنهم ظلموا أن يتقدموا بشكوى الى السلطان يلتمسون فيها أن يعيد النظر فى اقطاعاتهم ، ولكن نائب السلطان نصحهم بالعـدول عن ذلك ، وأخبرهم أن السلطان ليس لديه أى استعداد لأن يسمع أى اعتراض على ما أجراه والأفضل لهم أن يلزموا الصمت ويرضوا بما قسم لهم ، لأنه قد قرر أن كل من يحتج أو يشكو أو يتضرر من الاقطاع الذى تقرر له سـوف يقبض عليه ، ويضرب ثم يسجن ، ويؤخذ منه اقطاعه ، فأخلـد الجميع الى السكوت ، واستجابوا لنصح نائب السلطنة .

الناصر فى حياته العامة

الناصر والتعمير

واذا كان الناصر قد عنى بالمماليك عصب الحكومة ، حتى يثبت قواعد ملكه ، فانه لم ينس الشعب ، العمود الفقرى للأمة ، الذى ساانده فى محنته ، ووقف الى جواره يوم عصفت به العواصف ، ورحب به يوم انكشفت الغمة عنه وعاد الى عرشه معززاً مكرما ، وكان يقلق عليه اذا مرض ، ويفرح اذا شفى أو نجا من مكروه ألمّ به .

فما كادت تستقر له الأمور حتى أمر أن يجدد الجلوس بدار العدل فى كل يوم اثنين ، ودار النقباء على القضاة وغيرهم من أهل الدولة يعلمونهم بأن السلطان سيجلس بدار العدل فى ذلك اليوم من كل أسبوع . ونودى فى الناس ان من له ظلامة منهم فليرفع قصته (أو بتعبيرنا الحديث شكواه) الى دار العدل ، فخاف الأمراء وغيرهم من ذلك ، وأدوا ما عليهم من الحقوق حتى لا يشكوهم الناس ، ورفع الناس قصصهم الى السلطان الذى جلس بدار العدل فى جمادى الأولى من سنة احدى عشرة وسبعمائة (١٣١١) فقرئت عليه ، وحكم بين الناس ، وأنصف المظلومين ثم أخذ يتجسس مواضع الظلم التى تحيق بهذا الشعب ليمحوها ،

ويتلمس مواطن الضيق فى عيشة ليوسع عليه ، ويسهل عليه سبيل حياته حتى يحيا حياة لينة هادئة . وقد اهتدى الى أن الظلم كامن فى تلك الضرائب الكثيرة التى تثقل كاهله ، ورأى أن الأعراب فى الصعيد كانوا لا يزالون يعكرون عليه صفو حياته باغاراتهم المتعددة عليه ، ونهبهم لموارد رزقه . ولاحظ أن أمراء المماليك كانوا سيستغلونه أسوأ استغلال ، ويكادون يقاسمونه خيرات أرضه وقوته وقوت عياله بغير حق ، لذلك أخذ يعمل على ازالة هذه المساوىء .

أما الضرائب فقد بدأ فى النظر فيها ، وأصدر أمره بتنازل الحكومة عن كل ما كان متأخرا لها فى ذمة الناس منها حتى آخر عام أربعة عشر وسبعمائة ، أى بعد توليه سلطنته الثالثة بخمسة أعوام . ثم أخذ ينظر من جديد فى هذه الضرائب المختلفة ، فخفف بعضها وألغى بعضها مثل مكس الملح ومكس ساحل الغلة وقد كان الناس يضيقون بهما ، حتى تتحقق العدالة الاجتماعية بقدر ما كان يفهمه الناس فى ذلك الوقت من تلك العدالة .

وفى الحق لقد كان الشعب يحس فى أعماق نفسه بخروج كثير من هذه الضرائب عن جادة العدل ، وكان يئن فى صمت تحت عبئها الثقيل حتى جاء النصر فعزّ عليه أن يتألم هـذا الشعب الذى أحبه من كل قلبه ، وأخلص له الاخلاص العميق الذى لمسه فى مناسبات مختلفة ، فعمل على محو الظلم لتصفو قلوب الناس لحكامهم ، ولا يحملون لهم بين جنوبهم غلا ولا حقدا . وما فعله الناصر — على حد قول أحد المؤرخين القدامى — من ابطال

هذه المظالم والمكوس ، دليل على حسن اعتقاده ، وغزير عقله ، وجودة تدبيره وتصرفه حيث أبطل هذه الجهات القبيحة التى كانت من أقبح الأمور وأشنعها ، وعوضها جهات لا يظلم فيها الرجل الواحد « فأبطل لذلك ما قبح ، وأحدث ما صلح من غير تكلف وعدم تخوف ، فلله دره عمّر البلاد وغمر الاحسان العباد » .

وهذه شهادة حق صدرت من مؤرخ لم يكن معاصرا للناصر حتى يتهم فيما يقول ولكنه عاش بعده بأكثر من نصف قرن .

وإذا نظرنا الى هذه الضرائب وجدنا انها كادت أن تشمل كل قطاعات الشعب ، لا تترك قطاعا الا مسته : فالتجار ، والسماسرة ، وأصحاب السفن ، والمسافرون فيها من الأغنياء والفقراء على السواء ، وأصحاب المعاصر ، وزراع القصب ، والأرامل اللائى كانت تلزمهن الدولة بتربية الكتاكيت لها ، والمساجين الذين كان يحكم عليهم ولو ليوم واحد ومع ذلك كان يؤخذ من كل سجين ستة دراهم كل يوم ، وأولئك الذين كانوا يعملون فى تنظيف المجارى وكسح الفضلات من المنازل والمساجد والمدارس ، وممن كانوا يقيمون الأفراح ، بل ومن البغايا وغيرهن .

ولقد عمل الناصر على ابطال معظم هذه المكوس وتخفيف القليل منها ، فألغى المكس على الملح ، وأبطل ما كان يجبى من زارعى القصب ، أو من أرباب المعاصر ، أو من يحتفلون بالأفراح ، وما كان يؤخذ من البغايا ، وما كان مقررا من طرح الفراريج الأمر

الذى كانت تقاسى منه الأرامل الشىء الكثير من العنت ، فقد كانت الدولة تقرض لهن « الكتاكيت » لتربيتها ثم يأخذها موظف الدولة المكلف بذلك ، ولا يمكن لأحد أن يشترى فروجا الا من هـذا الموظف .

وألغى الناصر أيضا ما كان يحصـل من الذين يعملون فى تنظيف المجارى وأعفى أصحاب السفن مما كانوا يدفعونه من مكوس ، وألغى كذلك ما كان يجبى من المسافرين بهذه السفن ، وأعفى التجار مما كانوا يدفعونه للمشرفين على الأسواق .

أما السماسرة فقد أمرهم ألا يأخذوا من الناس الا نصف ما كان مقررا لهم من قبل ، أى أن الدرهم الذى كان مفروضا للسلطان عن كل مائة درهم قد أبطل تحصيله .

وأما الأعراب الذين عادوا للتنغيص على الشعب بعد أن كسر السلطان شوكتهم فى سلطنته الثانية فقد حرص هذه المرة على تأديبهم تأديبا لا تقوم لهم بعده قائمة حتى يستريح الشعب من فسادهم ولا يعودون لحرمانه من نتيجة كده وتعبه ، فأشاع بين الناس أنه خارج للصيد فى الصعيد — موطن القوة لهـؤلاء الأعراب — وكلف قبل خروجه من القلعة بعض الأمـراء بأن يذهبوا مع جنودهم لسد طريق السويس ، وطريق الواحات ، ثم انقض هو على العربان ، وقتل منهم عددا كبيرا ، وأسر عددا كبيرا ونجحت خطته فى القضاء على هذا العدو الداخلى الذى حرم الناس الأمن والطمأنينة .

هذا وقد حرص « الناصر » على ألا يترك أمراء المماليـك

يستبدون بالشعب ، فما كان يعلم عن استبداد واحد منهم أو استغلاله لمركزه أو وظيفته أو صلته بالسلطان حتى يسارع بوقفه عند حده ولو كان أقرب المقربين اليه .

وعندما علم أن ولاة الأقاليم كانوا يستهدون الناس الهدايا المختلفة فى المناسبات المختلفة أمر بتحريم ذلك عليهم .

وعندما شكا اليه الفلاحون فى ناحية الغربية من ريح سوداء هبت على بلادهم ، فأظلم منها الجو ، وسقط بسببها برد كثير كبير الحجم ، أتلف الزرع الذى كان قد قرب حصاده ، وأهلك الكثير من الماشية والغنم وذلك فيما يقرب من ثمانية وعشرين بلدا فى تلك الناحية — أصدر أمره الى والى الغربية بأن يكشف تلك البلاد ، ويبين ما لحق بأهلها من خسارة ، ويحط الخراج عن الفلاحين .

وعندما نمى الى علم السلطان أن أحد الأمراء يرتشى ، سارع الى اعفائه من عمله ، ونفاه دون أن يتحقق من صحة هذه التهمة ، ذلك لأنه كان يمقت الرشوة والمرتشين أشد المقت ، ويعتقد أنها أصل الفساد ومبعث الظلم والتأخر .

وعندما علم أن موظفا كبيرا كان يزور المراسيم السلطانية لكى يحصل على المال بغير حق أصدر أمره بسمل عينيه (أى فقئهما) .

وعندما رأى الأمير سنجر الجاولى (استادار السلطان الذى أشرنا اليه من قبل) أن ما حصل من ريع أوقاف مارستان قلاوون سنة ٧٣٧ هـ لا يسمح بصرف الصدقات المقررة فى الوقفية

المذكورة وانه لذلك لم يصرفها تكدر وأمر بأن تصرف فى الحال وقال لسنجر ان المارستان كله صدقة .

وعندما خرج بعض أمراء المماليك عن جادة الصـــواب فى سلوكهم بسبب سكرهم أو لعبهم أمر بعـــدم نزولهم من القلعة إلى القاهرة الا باذنه شخصيا .

وعندما عرف بأن مرضى الجذام ، والمصابين بالبرص يعيشون وسط سكان القاهرة ومصر أمر بأن يخصص لهم مصحة خاصة فى اقليم الفيوم ينقلون اليها .

وهكذا كان « الناصر » يحب شعبه ويحرص على أن يحقق له الرخاء والأمن ، ومع ذلك فالمقريزى قد ذكر فى خططه (جـ ٢ ص ١٤٩) انه كان « كثير النفور من العامة شديد البغض لهم » ونحب أن نفسر المقصود هنا بكلمة « العامة » حتى لا يلتبس الأمر على أحد وهو يطالع المقريزى الذى أعطى للناصر حقه من التقدير فى مواضع كثيرة . فالمقصود بالعامة هنا السوقة من الشعب الذين يضايقون الناس فى معاشهم وينغصون عليهم حياتهم ولا يتورعون عن أن يرتكبوا جرائم النهب والسلب والايذاء على اختـــلاف صوره ، هؤلاء كان يبغضهم الناصر أشد البغض وكان يوقع بهم أشد العقوبات متى سنحت الفرصة لذلك .

الناصر فى حياته العامة

الناصر وكبار موظفى دولته

ولقد كان الناصر يحب لموظفى دولته سواء أكانوا من المماليك أم من المصريين أن يؤدوا أعمالهم بالدقة والصدق ، لا يظلمون الشعب ، ولا يستغلون مراكزهم فى الدولة أو صلتهم بالأسرة الحاكمة فى دفع العقاب عمن يستحق العقاب أو التستر على الجرائم ، ولا يجمعون الثروة من غير بابها المشروع . وقد كانت أكره الرذائل اليه استخدام الرشوة للوصول الى وظائف الدولة والى قضاء الحاجات .

والواقع أن استغلال كبار الموظفين لمراكزهم ، وأخذهم الرشوة من الناس لتحقيق مطامعهم ، وأكل أموال الدولة وأموال الناس بالباطل ، والتهرب من دفع ضرائب الحكومة ، كل هذه كانت من المساوىء التى عرفها أجدادنا فى عصر الناصر ، وتورط فيها بعض ضعاف النفوس ، وكان الناصر يحاربها على قدر ما سمحت به ظروف عصره فأصدر أمره بأن ترفع اليه كل يوم أوراق يوضح بها ما حصله الموظفون من الأموال ، وما حمل فى ذلك اليوم من البلاد والجهات ، وما صرف من هذه الأموال ،

والأوجه التى صرفت فيها ، وأمر ألا يصرف شيء ألبتة الا بأمره وعلمه حتى يصل الحق الى أهله .

وكان اذا علم بموظف عام حاد عن الطريق السوى أنزل به أقسى العقاب مهما كان مركزه عنده أو كانت مكانته فى الهيئة الاجتماعية .

فالقضاة مثلا كانوا موضع الاجلال والتعظيم ، تحيط بهم هالة من التبجيل والاهتمام ، ومع ذلك فان هذا لم يمنعه من أن يعزل قاضى القضاة جلال الدين القزوينى عن منصبه وينقله الى بلاد الشام عندما ضج الناس بالشكوى من تصرفات ولده « جمال الدين » الذى كان لا يتورع عن ارتكاب المعاصى ، والذى اتخذ من مركز أبيه سلما الى بلوغ شهواته ، والى جمع الثروة عن طريق الرشوة . ولم يكن أبوه حازما حتى يمنع ولده هذا وأولاده الآخرين عن الأضرار بالرعية ، وانزال الظلم بهم .

والأمير بشتاك لم يمنعه مركزه من أن ينال من السلطان اللوم والتأنيب لأنه يتهرب من دفع المكس على أقمشة استوردها من الخارج .

وقد لمع فى عصر السلطنة الثالثة للناصر اثنان من كبار موظفى الدولة هما « كريم الدين » و « شرف الدين » وقد ارتفع نجمهما ، وسمت مكانتهما لدى الناصر الى درجة عالية ولكن عندما بلغ « الناصر » أنهما قد استغلا منصبهما فى الاضرار بالناس أو بخزانة الدولة أمر بسجنهما ثم بقتلهما .

أما الأول فقد بدأ حياته كاتبا عند الأمير « بيبرس الجاشنكير » فى أيام سلطنة الناصر الثانية عندما كان هذا الأمير هو الممسك بأعنة الدولة . وقد كان مسيحيا ثم أسلم ، وكان هذا أمرا مألوفا فى ذلك الوقت اذ كان الناس يتحولون الى الاسلام لتتفتح أمامهم فرص الرقى فى وظائف الدولة الكبرى .

وعندما قتل السلطان « بيبرس » بأمر السلطان « الناصر » اختفى « كريم الدين » مدة من الزمن ثم ظهر ، وتقدم الى السلطان الناصر فعفا عنه ، وعينه ناظرا للخاصة وهى وظيفة أنشأها الناصر ليشرف شاغلها على أملاك السلطان وأمواله ، وكان ذلك فى أوائل سلطنته الثالثة .

وقد كان « كريم الدين » محبوبا من الناس جميعا ، خيّرا ، خدوما ، كريما ، يغدق الخيرات على الفقراء والأغنياء على السواء ، ويأسر بأفضاله كل من اتصلت أسبابه بأسبابه .

مرض ذات يوم فكان المماليك يحضرون اليه فيغمرهم بفضله ، وعندما شفى زينت القاهرة له وأوقدت الشموع ، وجلست المغنيات والمغنون يطربون الناس ، واجتمع خلق كثيرون لرؤيته فكان يوما مشهودا ، وقدم هو الى المدرسة المنصورية ، وتصدق بمال كثير نثره على الناس فتزاحموا لأخذه ، فمات فى الزحام ستة أنفس ، وزينت الحراريق (المراكب) فى النيل ، وقامت بألعاب مختلفة ، وأقام « كريم الدين » لرجالها مأدبة فاخرة جهز لهم فيها مائة خروف شواء . ولم ينس الأطباء الذين أشرفوا على علاجه فخلع عليهم خلعا سنية كما أفرج عن بعض المساجين .

وقد كان محبوبا من السلطان ، وموضع رعايته ، وقد بلغ من شدة ثقته به أنه أدخله الى حريمه وهذا شيء لم يقع لأحد غيره من موظفى الدولة ، ففى ذات يوم طلبه السلطان لأمر من الأمور ، وكان السلطان فى جناحه الخاص ، فأمره بالدخول عنده وكانت المسألة تتعلق بأشياء تريدها زوجة السلطان ، ومكث « كريم الدين » عند السلطان يتلقى أوامر الزوجة عن طريق احدى وصيفاتها ، وظلت الوصيفة تروح وتجيء مرات عدة حاملة أوامر سيدتها ومعبرة عن رغباتها ، ويظهر أن الأخذ والرد قد طال مما أضجر السلطان فالتفت اليه وقال له :

— يا قاضى ! ما الداعى لهذا التطويل ؟ زوجتى بمثابة ابنتك لا يحول بينك وبينها حجاب ! أدخل اليها وأبصر ما تريده وافعله لها . فدخل « كريم الدين » الى حيث زوجة السلطان وعرف منها كل ما تريده ثم عاد الى حضرة السلطان .

وقد طلب السلطان الى زوجته أن تحيى « كريم الدين » فهو ضيف عندهم وهو فى منزلة أبيها ، فقامت الزوجة وأمرت باعداد الطعام له ، وقام السلطان بنفسه الى كرمة فى الدار وقطف منها عنبا ، وأحضره الى « كريم الدين » ، وهو ينفخ التراب عنه ويقول له : « كل من عنب دارنا » .

وهكذا كانت مكانة « كريم الدين » فى نفس الناصر ، وكما كانت مكانته فى نفوس معظم الناس ، الأمر الذى جعل الأمراء تحسده ، وتسعى بالوقيعة به عند الناصر فاتهموه بأنه يتلف

أموال السلطان بتفريقها بين الناس حتى يقال عنه انه كريم .

ولقد وجدت هذه الوشاية أذنا صاغية لدى الناصر فصدقها ، وحمله على تصديقها ما رآه من كرم « كريم الدين » واسرافه فى هذا الكرم ، وقد وجد السلطان عند الأمراء ونسائهم من الملابس الفاخرة ما كان يستكثره عليهم ، وكلما سأل أحد منهم عن مصدرها قال له انها هدية من « كريم الدين » وقد كان هذا الرد وحده يشعر السلطان بأن مكانته قد صغرت لدى الأمراء لأنه كان لا يعطيهم قط مثل عطاء « كريم الدين » ويجعله يحس بأن مركز « كريم الدين » فى نفوس الخاصة والعامة كاد أن يكون أعلى من مركزه هو لديهم مما جعله يغضب عليه ، ويلزمه الاقامة فى مدفنه بالقرافة (والمدفن على ما جرت به العادة عندنا فى مصر بيت صغير فيه كل وسائل الراحة للاقامة) ، وعرف الناس بذلك فتوافدوا على « كريم الدين » فى المدفن يزورونه ، ويأنســون بحضرته ، وبلغ الناصر ذلك فأمر بنقله الى القدس ثم عاد الى مصر وعينه فى أسوان ، وبعد ذلك بقليل وجد مشنوقا بعمامته أى أنه شنق نفسه . ولكن تعليق الناس على طريقة موته تدل على أنه قد مات مقتولا لا منتحرا ، فقد قالوا انه ما عمل أحد مع أحد مثل ما عمله الناصر مع « كريم الدين » ، لقد أعطاه الدنيا والآخرة ، وهذا يعنى أنه أعطاه الدنيا عند حكمه فى الدولة وأعطاه الآخرة عندما قتله لأن المقتول ظلما فى الجنة .

وأما موظف الدولة الثانى الذى نبه ذكره فى ذلك العصر فهو

شرف الدين وقد كان شابا ، طويل القامة ، حلو التقاطيع ، يعمل فى خدمة الأمراء ، وقد رآه الناصر ذات يوم ، وأعجب به ، وعينه فى وظيفة صغيرة باقليم الجيزة ، ثم تقلب فى عدة وظائف حتى أصبح ناظرا للخاصة ، وقد خدم الناصر سبع سنين وسبعة أشهر انتهت بعدها حياته كما انتهت حياة « كريم الدين » بالسجن ثم القتل ، ولكن شتان بين الرجلين ، فبقدر حب الناس لكريم الدين كان كرههم لشرف الدين الذى يعرف أيضا « بالنشو » ، وبقدر عطف كريم الدين وكرمه كان حقد « النشو » ودناءة نفسه . كلاهما تفانى فى خدمة السلطان ولكنهما سلكا فى سبيل أداء هذه الخدمة طريقين مختلفين : الأول كان يعطى ما لقيصر لقيصر وما للناس للناس ، والثانى كان يعطى قيصر كل شىء ، ويحرم الناس من كل شىء ، ومع ذلك فلم ينفعه قيصر ، ولم يشفع له عنده انه كان ملكيا أكثر من الملك بل سرعان ما أدرك الناصر أنه بأفعاله قد غير قلوب الخاصة والعامة عليه ، وتفرهم منه فلم يتردد فى سجنه وقتله ، ولم تأخذه فيه رحمة ولا شفقة .

لقد كان « شرف الدين » فى الأصل مسيحيا ، جعله الناصر يعتنق الاسلام ، وسماه عبد الوهاب ، ولقبه « شرف الدين » أما اسمه قبل اسلامه فكان « النشو » ، وقد بدأت صـلته الوثيقة بالسلطان عندما اختاره ليكون فى خدمة ابنه « آنوك » ، فأتاح له هذا العمل الاتصال بالسلطان ، والتحدث معه فى شئون الدولة ، وكثيرا ما كان ينتقد ما كان يجرى فى ادارات الحكومة

ويقترح وســائل لتحسين الخدمة حتى أثر كلامه فى السلطان واعتقد أن « النشو » خير من يحافظ على ماله ، ويعنى بشئونه فعهد اليه بوظيفة « ناظر الخاصة » التى كان يشغلها « كريم الدين » من قبل .

وما كاد يتربع « شرف الدين » على دست هذه الوظيفة حتى بدأت مصادراته تعم الجميع ، وشروره تتسرب الى كل قطاع من قطاعات الشعب ، فكرهته العامة ، وضاقت به الخاصة ، وكثرت الشكاية منه ، ولكن الناصر أصم أذنيه عن هــذه الشكاوى ولم يلتفت لها لأن هذا الموظف الكبير قد أحكم تدبيره ، واستولى بخداعه وحذقه على عقل الناصر حتى انه كان ينهر الأمراء ويغلظ لهم كلما لفتوا نظره الى ما يرتكبه « النشو » باسم السلطان من مضايقات فى البلاد .

وتفنن « النشو » فى السيطرة على كل شئون البلاد بوسائل غير مسبوقة فى عصره اذ كان له عجائز يتجسسن له فى البيوت ، ويطلعونه على أسرارها ، وعلى ما يتردد بين جدرانها من تعليقات على سياسة الحكومة ، وكان يتصرف على أساس ما يصل اليه من أقوال هؤلاء العجــائز . كما كان له أيضا عدد من الأشرار يدلونه على كل ما يهمه من شئون الناس ، ثم يسعى هو بطريقته الخاصة الى الحصول على ما يريده منهم ، فلحق بالناس من وراء ذلك بلاء عظيم .

وقد كان يحرص دائما على أن يبدو أمام السلطان فى مظهر

الفقير المعدم حتى يزداد السلطان ثقة فيه ، ولا يسمع لوشاية الواشين فيه مع أنه كان يتخذ من وظيفته سبيلا الى الاثراء .

ولكى يؤمن السلطان بفقره كان يقترض من كبار موظفى الدولة الذين يتصلون عادة بالسلطان ، مبلغا صغيرا من المال بين حين وآخر ليوهمهم أنه لا يملك شيئا ، فعلى سبيل المثال بعث ذات يوم الى رئيس الأطباء يطلب منه مائة درهم بحجة أن ضيفا نزل عنده وليس لديه ما يكرمه به ، ولكى تجوز حيلته على السلطان انتهز فرصة وجود كبير الأطباء هذا عنده ذات يوم ، وشكا للسلطان أمامه من عسره وفقره ، وقد أمن رئيس الأطباء على هذه الدعوى بحكم ما وقع من قبل بينه وبين « النشو » .

وقد كان « الناصر » بطبعه محبا لفعل الخير ، ونفسه مشربة بالعطف على المحتاجين لا يتردد فى معاونتهم مهما كان مركزهم الاجتماعى متى سنحت الفرصة لذلك لكنه كثيرا ما كان يعدل عن ذلك اذا ما وسوس له ذلك الشيطان المسمى بالنشو فيجعله يرجع فيما وعد به ، ففى ذات يوم رسم السلطان بمسامحة الأمراء مما كان عليهم من ديون للخاصة ، ولكن نفس النشو الشريرة لم تطاوعه على تنفيذ رغبة السلطان ، فذهب اليه وعرفه أنه يضيع ماله سدى ، وأن الدواوين تسرق بحجة مسامحة الأمراء فى ديونهم ، وتأثر السلطان بكلامه ، فعدل عما سبق أن قرره وأطلق له يده فى أن يفعل ما يراه صالحا ولا يسامح أحدا من الأمراء ، وتضايق الأمير قوصون — زوج ابنة السلطان — من هذا التصرف ، وحدث السلطان فيه ، ورجاه عدم العدول عن قراره

الأول ، ولكن السلطان رفض التماسه ثم طيب خاطره ووعده بأن يعوضه فيما بعد عما سوف يخسره بسبب هذا القرار .

ولقد كانت هذه الحادثة سببا فى ايمان الناس بأن نفوذ النشو عند السلطان فوق كل نفوذ .

وسعى « شرف الدين » لدى السلطان لتعيين شخص يدعى « ايدكين » واليا على القاهرة وصـــدر قرار السلطان بذلك ، وأصبح ايدكين لا يرفض لشرف الدين طلبا مهما كان فى هـــذا الطلب خروج عن جادة العدالة ، فهو صنيعته وبفضله عين فى هذه الوظيفة . وقد استطاع « النشو » أن يحقق — بفضل هـــذا الوالى — الكثير من أغراضه ، نذكر منها على سبيل المثال أن أحد التجار كان له فى ذمة الدولة مبلغ من المال ، وقد طالب به مرارا عدة ولكن دون جدوى ، فتقدم أخيرا الى « النشـــو » يرجوه أن يعمل على دفع هذا المبلغ اليه فهو فى أمس الحاجة اليه فوعده خيرا ، وأوعز الى والى القاهرة أن ينتهز فرصة شرب هذا التاجر للخمر — وكان سكيرا مدمنا للشراب — ويقبض عليه ويسجنه فى دار الولاية ثم يستدعى بشهود يقررون عليه بأنه مخمور وعلى ذلك يكون مستحقا لتوقيع الحد عليه والتشهير به بين الناس . ونفذ الوالى ما أشار « النشو » وقبض على التاجر وهو فى مجلس شراب وسيق الى السجن فى دار الولاية واستدعى الشهود وهنا أفاق التاجر من سكرته وأخذ يتوسل للافراج عنه ولكن الوالى اشترط لكى يفرج عنه أن يتنازل عن دينه لبيت المال ، ففعل الرجل مكرها صيانة لنفسه من الفضيحة .

وأسرف والى القاهرة هذا فى أعماله السيئة حتى ضج الناس منه وتقدم الأمير « قوصون » الى السلطان يرجوه أن يعزله ولكن السلطان غضب وقال له « كلما عينت شخصا ينفعنى طلبتم الىّ عزله ، واذا كان هذا الشخص من جهتكم أثنيتم عليه فى كل وقت » ، على أن هذا الوالى لم يستمر طويلا بل عـزله السلطان ثم نفاه الى الشام بعد أن تبين له سوء أعماله .

وأمعن — شرف الدين — فى تصرفاته التى جرت عليه غضب الخاصة والعامة على السواء ، فتدخل فى السلع الضرورية للحياة من لحم وفول وأقمشة وكان يشترى منها باسم السلطان كميات كبيرة بأسعار رخيصة ثم يبيعها للناس بأثمان عالية ، وكلما ضج الناس بالشكوى للسلطان استدعى موظفه هذا للوقوف عـلى حقيقة السبب فى تلك الشكوى فيلفق له سببا سرعان ما يقتنع به السلطان ويقره على ما فعل ولا يعنى بالشاكين .

ولعله من الطريف أن نذكر هنا حادثة تذكرنا ببعض الصور التى كانت مألوفة عندنا فى مصر قبل ثورتنا المباركة عندما كان يتدخل نساء العظماء فى شئون الدولة ، ويحاولن التأثير فى سير العمل ، كما أنها تصور لنا أيضا ما كان يلجأ اليه « شرف الدين » من حيل فى سبيل اقناع السلطان فيكذب دعوى الشعب ويصدق دعواه هو . ذلك أن تاجرا من تجار الخشب قد ضاق صـدره بما يرتكبه من ظلم ، وفكر فى طريقة يصل بها الى السلطان لكى يطلعه على هذا الظلم الفادح ، ويلتمس عنده العدل ، ووفق الى الاتصال « بدادة السلطان » ست حدقة التى أوصلته بدورها الى

زوجة السلطان المحبوبة « طغاى » ، وأوضح الرجل للسيدتين أن « النشو » قد فرض عليه شراء كمية من الخشب وحدد لها ثمنا قدره ألفى دينار مع أنها لا تساوى ذلك ، وأنصتت السيدتان للشاكى جيدا ثم حدثتا السلطان فى الأمر والتمسا منه انصاف الرجل ، واستدعى السلطان « النشو » وأنكر عليه ظلمه للناس وتصرفه هذا التصرف الشائن ، وأغلظ له فى القول فخرج من عنده غاضبا وأقسم لينتقمن من هذا التاجر بطريقة توحى الى السلطان بأنه برىء وأنه يرعى الله فى كل أعماله وأن هذا التاجر وأمثاله انما يظلمونه أشد الظلم بشكاياتهم الظالمة ، وهداه شيطانه الرجيم الى أن يبعث الى التاجر الشاكى برجل من قبله يسأله أن يعطيه مبلغا من المال على سبيل العارية المستردة ، واعتذر التاجر بضيق ذات يده ، وعدم استطاعته تدبير هذا المبلغ له لأنه مطالب بتسديد مبلغ كبير من المال لناظر الخاصة (شرف الدين) نظير كمية من الخشب فرضها عليه ، فقال الرجل انه فى حاجة الى الخشب وطلب معاينته ، وأعجب به ، ورغب فى شرائه بربح عظيم ، ولم يتردد التاجر فى قبول هذه الصفقة فى الحال ، وكتبت المبايعة على أن يكون تسديد الثمن فى مدى شهر . وعاد الرجل الى « النشو » وأخبره بكل ما جرى وأعطاه المبايعة التى عقدها مع التاجر .

وأسرع النشو فى الذهاب الى السلطان وقال له انه عندما ذهب لاسترداد الخشب من التاجر وجده قد باعه بفائدة كبيرة فلم يصدقه السلطان ، واستدعى التاجر للقصر ، وقد ظن وهو

فى طريقه اليه أن وساطة السيدات قد أتت ثمارها وانه سوف يفوز على « النشو » فتنكشف مظالمه للسلطان .

ومثل التاجر بين يدى السلطان الذى سأله عن موضوع شكواه ، فانشرح صدر الرجل وقال لقد ظلمنى النشو وأعطانى خشبا بألفى دينار مع أنه لا يساوى هذا المبلغ ، فسأله السلطان وأين هذا الخشب الآن ؟ فأجاب التاجر « لقد بعته بالدين » فقال « النشو » وقد كان حاضرا هذه المقابلة : « قل الحق ، فهذا عقد بيعك معى ، فأسقط فى يدى التاجر واعترف بحقيقة ما تم ، وغضب السلطان عليه وقال له : « ويلك ! تقيم علينا القالة وأنت تبيع بضاعتنا بفائدة » وأمر السلطان « النشو » بضرب التاجر ، وأخذ الألفى دينار منه مع مثلها ، وازدادت مكانة « النشو » عنده وتأكد أن ما يحمل الناس على الشكوى منه انما هو من قبيل الحسد . ثم دخل الى أهل منزله وكشف لهن عن كذب التاجر ، وصدق « النشو » وأغلظ لهن فى القول لاتهامهن اياه بغير حق .

وهكذا نجحت حيلة « النشو » الى أبعد حد ، وخرج من هذا الاتهام الصادق برىء الساحة ، وازدادت ثقة السلطان به فأمعن فى استغلاله لمركزه الا أن الشعب كان له بالمرصاد فهو وحده الذى يعرف حقيقته ولذلك تربص به أحد الفرسان واعترض طريقه ، وضربه ضربة كادت أن تذهب بحياته ، ولكنها أسقطت عمامته وجرحت كتفه وأوقعته على الأرض فحسب . واختفى الفارس فلم يقبض عليه ، وعرف السلطان بالأمر فغضب غضبا شديدا ، وبعث بالأطباء الى ناظر خاصته واستدعى والى

القاهرة وأمره بالبحث عن الجانى مهما كلفه الأمر . وشفى النشو من جراحه ، وطلع الى القلعة حيث خلع عليه السلطان ، وأمر بأن يمشى فى ركابه عشرة من الرجال لحراسته .

ولم يرتدع من هذه الحادثة التى كادت أن تذهب بحياته بل ظل يسرف فى سياسته الخاطئة ويكنز للسلطان الأموال ويستفيد هو من وراء ذلك ولا يعبأ بما ينزل بالناس جميعا من ظلم ولقد كان من نتائج سياسته أن قل الوارد من البضائع لأنه كان يشتريها بأبخس الأثمان ، فأحجم المصدرون فى الخارج عن تصدير البضاعة ، وذهبت أموال التجار لأنه كان يطرح عليهم البضائع بأغلى الأثمان ، وتزايدت طلبات السلطان زيادة كادت أن تترك الخزانة خاوية . وأحس « النشو » بكل ذلك فرأى أن يعدل فى سياسته بأن يترك ظلم العامة الى ظلم الخاصة ، وأخذ يفكر فى ذلك وقد كان من عادته أن يجتمع كل ليلة مع اخوته وصهره ، ومن يثق فيهم للنظر فيما يمكن أن يحدثوه من المظالم ، فيقترح كل واحد منهم طريقة معينة يبتزون بها الأموال ، ثم يفترقون بعد أن يكونوا قد اتفقوا على أمر يعذبون به خلق الله ، وكان آخر ما تفتق عنه ذهنهم اقتراح تقدم به النشو للسلطان ووافق عليه وهو أن يلزم متولى كل اقليم باستخراج التقاوى من أرضه وحملها الى خزائن السلطان حيث تباع بمعرفة الخاصة السلطانية .

وقد انزعج الأمراء من هذا القرار ، وتحدثوا مع السلطان فيه وقال أحد الأمراء : « يا خوند والله ان النشو يضرك أكثر مما ينفعك » .

وتركت هذه الجملة القصيرة فى نفس الناصر أثرا عميقا ، وأحس بأن النشو أصبح مكروها من الجميع ، وكتب الى الأمير « تنكز » صهره ونائبه على الشام يستشيره فى الأمر ويخبره أن « النشو » فقد محبة كل أهل الدولة ولا يتمتع بعطف أحد ولكنه نافع جدا للسلطان ، ورد الأمير تنكز مؤيدا سوء سيرة النشو وختم خطابه بقوله : « ورأى السلطان فيه أعلى » .

وكثرت الأوراق التى كانت تلقى الى السلطان دون أن يعرف كاتبها ، ومن ذلك ورقة جاء فيها :

أمعنت فى الظلم وأكثرته ... زدت يا نشو على العالم
ترى من الظالم فيكم لنا ... فلعنة الله على الظالم

وحانت ساعة الخلاص من كابوس النشو عندما مرض الأمير يلبغا — وكان مقربا من السلطان وله فيه ثقة كبيرة ويتمتع بحبه وتقديره . وقد قلق الناصر لمرضه ، وأقام عنده حتى يطمئن عليه ، وفى خلال حديثهما جاءت سيرة النشو فقال يلبغا : « يا خوند ! قد عظم احسانك لى ، ووجب علىّ نصحك ، والمصلحة تقضى بالقبض على النشو ، فالأمراء جميعا يكرهونه ، ويكرهونك لحبك اياه ، وما من مملوك من مماليكك الا يترقب غفلة منك ليقضى عليك انتقاما منك لأنك تركت هذا الشخص يعبث بمصالح الناس » . وبكى يلبغا ، وبكى الناصر لبكائه ، وقام من عنده وهو مبلبل الفكر ، بعد الذى سمعه من « يلبغا » فأصدر أمره بالقبض على « النشو » وقد تم ذلك فى الثانى من صفر سنة أربعين وسبعمائة (١٣٣٩ م) .

وكان الناصر حتى ذلك الوقت يشك كثيرا فى معظم ما وصل اليه من وشايات فى حق النشو ، وكان يعتقد عن ايمان أنه أمين ، بدليل انه فقير لا مال عنده ، وبعد أن أمر بالقبض عليه التفت الى بعض الأمراء وقال لهم : « كثيرا ما قلتم ان النشو نهب أموال الناس ، وقد حانت الساعة التى يظهر فيها صدق هـذه الأقوال أو كذبها » وقد أثبت تفتيش منازل « النشو » انه كان غنيا غنى فاحشا (سنذكر ثروته بعد قليل) هو وجميع أقاربه الأمر الذى أطرق له السلطان خجلا أمام الأمراء .

وكان للقبض على النشو رنة فرح تردد صداها فى كل النفوس ، فخرجت الناس كأنهم جراد منتشر ، وأغلقت الأسواق ، واجتمع العامة تحت القلعة ومعهم النساء والأطفال ، وأشعلوا الشموع ، ورفعوا على رءوسهم المصاحف ، ونشروا الأعلام ، ودقوا الطبول ، وحضر أرباب الخيال (خيال الظل) وأنواع الملاهى للترفيه عن الناس بألعابهم . وكان العامة يصيحون استبشارا بهذا الخبر السعيد ، والأمراء ينظرون اليهم ويشيرون لهم اشارات التشجيع للمضى فيما هم فيه من سرور . وترجم الشعر عن فرحة الشعب هذه فقال أحد الشعراء :

ان يوم الاثنين يوم سـعيد ... فيه لا شـك للبرية عيـد
أخذ الله فيه فرعون جهـرا ... وغـدا النيـل فى رباه يزيد

وقال شاعر آخر :

فى يوم الاثنين ثانى الشهر من صفر
نادى البشير الى أن أسـمع الفلكا

يا أهـــل مصر نجا موسى ونيـــلكم
طغا وفرعون وهو النشو قد هلكا

ونودى فى القاهرة ومصر يوم الثلاثاء « أن بيعوا ، واشتروا واحمدوا الله على خلاصكم من النشو » . وخرج النشو بصحبة أحد الأمراء لتسليم ما لديه من أموال ، وتكاثرت العامة لرجمه ولكن الجند أبعدوهم عنه ، وقد كان يسير والجنزير الحديد فى عنقه .

وأحصيت أمواله فكانت ١١٥ ألف دينار و ١٥٠ حبة لؤلؤ و ٧٠ فص بلخش (من الأحجار الكريمة) وقطعـــة من زمرد زنتها رطل و ٦٠ حبلا من لؤلؤ كبار زنته ٤٠٠ مثقال و ١٧٠ خاتما من ذهب وفضة لها فصوص مثمنة وكف مريم مرصـــع بجوهر وصليب ذهب مرصع وعدة قطع من القماش المزركش و ٤٠٠ بذلة قماش جديدة و ٨٠ بذلة قماش مستعملة وصناديق فيها قماش سكندرى مما عمل برسم زوجة ملك المغرب (وكانت قد مرت بالاسكندرية فى طريقها الى الحج ومكثت بها مـــدة قصيرة وأكرم السلطان وفادتها) قد اختلسه النشو مع كميات كثيرة من أقمشة الأمراء الذين ماتوا أو الذين قبض عليهم وكميات كبيرة من الأوانى الصينى والبللور والتحف السنية .

وهكذا انتهت حيـــاة « شرف الدين » كما انتهت حيـــاة « كريم الدين » من قبله ، ودفن فى مقابر اليهود بعد أن كفن بكفن لم يتجاوز قيمته أربعة دراهم ، وقد أقيمت الحراسة على قبره خوفا من أن تنبشه العامة وتمثل بجثته انتقاما منه لما ارتكبه من مساوىء .

ترى من المسئول عن هذه الرزايا التى أنزلها ذلك الموظف الكبير بالشعب على اختلاف قطاعاته ؟ الواقع اننا لا نستطيع أن نبرىء الناصر من هذه الآثام فهو مسئول عنها لأنه وثق فى موظفه هذا ثقة عمياء ، وانخدع بحيله ، وأعماه المال الذى كان يجمعه له من الشعب عن أن يرى مساوئه ولكن يخفف من مسئوليته انه لم يخرج فى ذلك عن مألوف عصره فتلك هى شيمة الحكم الاستبدادى الذى كان سائدا حينئذ .

الناصر في حياته العامة

الناصر والتعصب الديني

لقد كان الناصر أبعد ما يكون عن التعصب الديني ، يفهم الاسلام على حقيقته ، فلا ينتصر لمسلم ضد مسيحى لأنه مسلم بل يقيم ميزان العدل بينهما بالقسطاط المستقيم ، ولعل خير ما يترجم عن بعده عن روح التعصب الذميم الذى كان فاشيا فى تلك العصور فى الشرق وفى الغرب علـى السواء ، ما وقع من اقتصاصه من رجل مسلم قتل مسيحيا بغير حق ، وذلك انه قدم الى القاهرة من دمشق رجل من أهل التصوف ، وقد رأى أثناء وجوده شخصا مسلما قد أقبل على نصرانى ، يقبل يده ، ويرجوه فى أمر من الأمور . ولاحظ هذا الصوفى أن النصرانى منصرف عن المسلم فآلمه ذلك أشد الألم ، وتقدم من النصرانى وهو غاضب ، وضربه ضربة كان فيها موته . واجتمع الناس حول القاتل والقتيل أما المسلم الذى أثار هذه المشكلة فقد اختفى ، وقبضت الشرطة على القاتل ، ورفع أمره الى السلطان فأمر بضرب عنقه على باب القلعة جزاء وفاقا لاعتدائه بغير حق على ذلك النصرانى .

ولم يكن الناس جميعا فى تسامح « الناصر » بل وجد من المسيحيين من نسوا أو تناسوا قول السيد المسيح « على الأرض

السلام وفى الناس المحبة » وقوله أيضا « أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم » ، كما وجـد من المسلمين من نسـوا أو تناسـوا قول الله تعالى فى قرآنه الكريم « لا اكراه فى الدين » ونسوا أو تناسوا ما عرف عن الاسلام من السماحة والعدالة وحرية الاعتقاد ، وسلامة الممارسة للشعائر الدينية . والذى يؤسف له حقا ان بعض المتعلمين سواء من المسيحيين أو المسلمين قد ضاق أفقهم العقلى عن ادراك سـماحة الأديان السماوية ورسـالتها الانسانية فكانوا هم مثيرى الثورات الدينية والمؤججين لنيرانها فى نفوس العامة من الجانبين . ولولا تلك الصيحات التى كانت تصدر من رجال الدين ، أو ممن يظنون فى أنفسهم انهم حماة الدين والذائدين عن حوضه ، لما تعكر صفو العيش بين أبنـاء الوطن الواحد .

الناصر في حياته العامة

الناصر والدول الأجنبية

لا شك أن أخبار هذه الثورات الدينية التى قامت فى مصر وما تلاها من اضطهاد للنصارى قد بلغ أسماع الدول المسيحية فى أوربا وأفريقيا . وعز عليها أن يصاب أبناء دينهم بتلك الكوارث التى بالغ فى وصفها لهم المغرضون ، ولكن مكانة الناصر فى الخارج كانت عالية منذ الانتصار العظيم الذى أحرزه على المغول ، والذى كان له صدى قوى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط وأوربا . لذلك لجأت معظم هذه الدول الى اللين فى مخاطبة الناصر فجاء منها أربعة وفود : واحد من بيزنطة ، والثانى من روما ، والثالث من فرنسا ، والرابع من الحبشة .

أما وفد الامبراطورية البيزنطية فجاء يحمل للسلطان هدايا قيمة معها رسالة يرجو الامبراطور فيها معاملة المسيحيين فى سلطنة الناصر بالعطف والرعاية ، وقد أجابه الناصر الى طلبه ، وأبرمت فى نفس الوقت بين الفريقين محالفة دفاعية لصد تيار الأتراك العثمانيين الذين كانوا يهددون امبراطور بيزنطة فى ملكه فى ذلك الوقت .

وأما وفد روما فقد جاء من قبل البابا (يوحنا الثانى) وكان

معه كذلك هدية نفيسة وكتاب من البابا يتضمن رجاء السلطان أن يحسن معاملة النصارى ، وقد أجابه السلطان مطمئنا اياه على رعايته للنصارى فى مملكته . ويلاحظ المقريزى انه لم يفد الى مصر رسل من البابا ، أو بعبارة أدق من الفاتيكان ، منــذ أيام الصالح نجم الدين أيوب آخر سلاطين الأيوبيين .

وأما وفد فرنسا فقد جاء من قبل ملكها (شارل الرابع) ، وقد كان يحمل رسالة ودية تنطوى على رجاء للسلطان أن يشمل المسيحيين المقيمين فى دولته بعين الرعاية والعدل ، وقد رد الناصر على ذلك ردا جميلا وعد فيه بتحقيق ما يطلبه الملك .

وأما وفد الحبشة الذى جاء الى مصر فى المحرم من سنة ست وعشرين وسبعمائة (١٣٢٥ م) فقد كان يحمل كتابا يتضمن ضرورة اعادة ما تخرب من كنائس النصارى ، ومعاملتهم بالاكرام والاحترام ، ثم يهدد السلطان بأن ملك الحبشة سوف يخرب ما عنده من مساجد المسلمين ، وسوف يسد النيل حتى لا يعبر الى مصر ، فسخر « الناصر » منه ورد رسله الى بلادهم يحملون الخيبة والفشل .

ولقد عاودت فرنسا الكرة فبعث ملكها (فيليب السادس) كتابا الى الناصر يختلف فى صيغته عن كتاب سلفه (شارل الرابع) اذ تضمن تهديدا سافرا للسلطان الناصر ان هو لم يعمل على رعاية مصالح المسيحيين فى بلاده ، ويرد الى الصليبيين مدينة بيت المقدس ومدن ساحل الشام التى كانت فى أيديهم ، ولقد كان يحمل رسالة التهديد هذه وفد مكون من عشرين ومائة رجل . ولا نعجب

لتصرف فيليب السادس على هذه الصورة فقد كان من المتحمسين للصليبيين ، المتعصبين لهم ، الراغبين فى اعادة نفوذهم السابق ولكن هيهات .

ولم يعر الناصر هذا التهديد التفاتا ، وكل ما كان له من رد فعل ، انه أهان الرسل وردهم الى فرنسا يجرون أذيال الفشل كما فعل من قبل مع رسل ملك الحبشة .

ولقد كان الناصر حريصا أشد الحرص على أن تكون علاقاته بجميع الدول علاقات محبة ووئام فهو بطبعه يميل الى السلم والى الهدوء ، ولكنه لم يكن ليسكت قط على أية اهانة تلحق بأحد من أفراد رعيته مهما كان مصدرها ، ومهما ترتب على دفعها من نتائج . ففى عام أحد عشر وسبعمائة (١٣١١ م) قدم البريد بأن الفرنجة فى جزيرة « خيوس » احدى جزر بحر الأرخبيل — وكانت معروفة عند العرب باسم جزيرة المصطكى لشهرتها بذلك الصمغ الذى كان يجلب منها — قد أسروا بعض رعايا السلطان ، وان ملك « سيس » (عاصمة أرمينيا) قد بعث بمبلغ ستين ألف دينار لكى يفتدى هؤلاء الرعايا لكى يزداد بذلك قربا من السلطان الناصر ولكنه للأسف لم يتمكن من افتدائهم ، ففى الحال أصدر السلطان أمره الى والى الاسكندرية والى والى دمياط بالتحوط على تجار الفرنج الموجودين هناك ، واعتقالهم جميعا ، والتحفظ على جميع أموالهم ، ولم يفرج السلطان عنهم الا بعد أن حضر اليه أحد التجار الجنويين (أى من أهالى مدينة جنوه) وكان اسمه « سكران » وكانت له بالسلطان الناصر علاقة

قديمة ، وتعهد للسلطان باحضار الرعايا المصريين وكل من كان يقيم الى مصر ، وقد قبل السلطان وساطته ومكّنه من السفر ، وكلل مسعى هذا التاجر بالنجاح .

والواقع أن اسم « الناصر » كان يبعث على الهيبة والاحترام فى كل مكان ، ومن أبلغ الدلالة على ذلك ما وقع لركب العراق وهو فى طريقه الى مكة للحج فى عام واحد وعشرين وسبعمائة عندما مرّ بعـرب البحرين ، وخرج عليه ألف فارس يريدون الاستيلاء عليه ، ولكن رجال الركب رجوا الفرسان أن يرحموهم ويكتفوا بأخذ مبلغ من المال من أمير الركب فقبل الفرسان ذلك واتفقوا على أن يأخذوا من الأمير ثلاثة آلاف دينار نظير خفارتهم لهم عبر الصحراء ، ولكن عندما علموا من رجال الركب أنهم انما جاءوا من العراق بأمر الملك الناصر صاحب مصر وبناء على كتابه لهم بالسير الى الحجاز أعاد الفرسان المال اليهم وقالوا لهم : « لأجل الملك الناصر نخفركم بغير شىء » ومكنوهم من السير ، وعلم السلطان بهذه الواقعة فسر سرورا عظيما وبالغ فى الانعام على العربان .

وهكذا نرى أن الناصر قد تمتع بثقـة الملوك والأمراء فى الشرق وفى الغرب فسعوا اليه لحل مشاكلهم ، واستعانوا بنفوذه ، وثرائه العظيم للتغلب على ما كان يصادف حكمهم من صـعاب أو يعترضه من عقبات ، ومن هنا كان البلاط السلطانى بالقلعة محط رحال سفراء الدول المختلفة الذين قدموا يحملون هدايا ملوكهم وأمرائهم كما يحملون رسائل الود والمحبة التى تؤكد

صداقتهم للناصر ، وتؤكد اعتزازهم بهذه الصداقة ، ومن هؤلاء الرسل من كان يطمع فيما وراء الصداقة من علاقة أوثق وصلات أشد كالرغبة فى مصاهرة السلطان والانتماء اليه وضرب النقود باسمه فى بلادهم أو رفع الأعلام التى تحمل اسمه فوق رءوسهم .

وهكذا قلما كان يمر عام منذ تولى سلطنته الثالثة دون أن يزداد نفوذ الناصر الأدبى والسياسى أو يفد على البلاد أمير أو سفير أجنبى يقدم الهدايا ويظهر الولاء فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد انه فى عام عشرة وسبعمائة بعد الهجرة حضر الى مصر رسل « سيس » تحمل كتابا تهنىء السلطان بالعودة الى ملكه ، وكان على الكتاب هدية سنية منها طشت من ذهب ، وأبريق من بللور مرصع بالجواهر . وفى العام التالى أقيمت الخطبة للسلطان فى طرابلس الغرب ، كما حضر أيضا ملك النوبة لتجديد الولاء للسلطان ، وجاء رسل اليمن يحملون هدية رأى السلطان أن يوزعها على أمراء دولته الكبار والصغار على السواء .

وفى عام ثمانية عشر وسبعمائة بعد الهجرة (١٣١٨ م) قدمت الى البلاد رسل من دويلة صغيرة هى دويلة « بنى قرمان » ، وهى من الدويلات التى قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى وكانوا يحملون معهم دراهم قد ضربت فى بلادهم باسم السلطان الناصر ، كما كانوا يحملون أيضا رسالة تشير الى أنهم يخطبون للسلطان على منابرهم .

واحياء الخلافة العباسية فى مصر قد زاد من نفوذها الدولى فقد بعث السلطان محمد بن طغلق أمير مملكة الهندستان الى

الخليفة العباسى بمصر فى أيام السلطنة الثالثة للناصر يطلب منه أن يمنحه تفويضا يجعل حكمه شرعيا فى بلاده حتى يستطيع بذلك أن يقضى على الفتن الداخلية التى كانت تقوم ضده بين حين وآخر . وقد خرج « الناصر » بنفسه لاستقبال رسول السلطان الهندى ، وأحسن لقاءه وأكرم وفادته ، وطلب الى الخليفة العباسى أن يصدر التفويض المطلوب وبعث به مع رسول خاص .

* * *

ترى كيف كان يستقبل هؤلاء السفراء الأجانب عندما كانوا يأتون الى بلادنا فى تلك العصور ؟ لقد أجاب القلقشندى على هذا السؤال اجابة رسم فيها بالقلم صورة طريفة لهذا الاستقبال لعله من المفيد أن نثبتها هنا مختصرة ، يقول هذا المؤرخ « وقد جرت العادة انه اذا وصل رسول من ملك الى أطراف المملكة ، كاتب نائب تلك الجهة السلطان ، وعرّفه بوفوده ، واستأذنه فى اشخاصه اليه ، فتبرز المراسيم السلطانية بحضوره ، فيحضر ، فاذا وقع الشعور بحضوره فان كان مرسله ذا مكانة عظيمة من الملوك .. خرج بعض أكابر الأمراء للقائه ، وأنزل بقصور السلطان .. وان كان غير ذلك تلقاه « المهمندار » ، واستأذن عليه « الدوادار » وأنزله دار الضيافة أو ببعض الأماكن على قدر مرتبته ، ثم يرتقب يوم موكب فيجلس السلطان بايوانه ، وتحضر أعيان المملكة الذين شأنهم الحضور من أرباب السيوف والأقلام ، ويحضر ذلك الرسول وصحبته الكتاب الوارد معه ، فيقبل الأرض بين يدى السلطان ، ويتناول الدوادار الكتاب

فيمسحه بوجه الرسول ، ثم يدفعه الى السلطان فيفضه ، ويدفعه الى كاتب السر فيقرأه على السلطان فيأمر به بأمره » .

وهكذا نرى كيف تغلغل نفوذ « الناصر » الأدبى والسياسى فى دول الشرق الأدنى والأوسط ، وكيف سمت مكانته فى المحيط الدولى الى درجـــة عظيمة . ولقد كان للصفات التى حباه الله بها من بعد نظر ، وحسن ادراك لطبائع الناس ، وايثار للسلم وجنوح له ما دام لا ينقص ذلك من هيبته أو يطعن فى مكانته — كان لهذه الصفات مجتمعة أثر كبير فيما وصلت اليه البلاد فى عهده من علو الشأن فسعت الدول المخالفة الى خطب ودها ، وحرصت على تحسين علاقتها بها ، وتركوا اسم الناصر يتردد على منابر المساجد فى شرق العالم الاسلامى وفى غربه ، فى شماله وفى جنوبه .

وفى الحق لقد نهج الناصر فى سبيل نشر هذا النفوذ سياسة لا تختلف كثيرا عن السياسة التى تسير على نهجها معظم الدول القوية فى عصرنا الحاضر اذ كان كريما غاية الكرم ، سخيا غاية السخاء مع الدول المختلفة حتى لو كانت فعلا داخلة فى طاعته وتحت نفوذه ، وكان يغدق على رجالها ونسائها المال والهـــدايا الثمينة من الأقمشة المصرية الغالية والجواهر النفيسة ما يطلق لسانهم بالدعاء والثناء على أريحيته . ولعل خير ما يترجم عن هذه السياسة ما وقع ذات يوم بينه وبين كبير من موظفى دولته عندما اعترض هذا الموظف الكبير على هذه السياسة بقوله « لقد أغنى الله السلطان عن هؤلاء فانهم فى طاعته . عن أن يبعث لهم بهـــذا

المال » . فقال له السلطان : « اسكت ، والله لو علمت الذى أعلمه ما قلت هذا ، اعلم يا قاضى ان المال الذى أسيّره اليه لا يوازى قدر ثمن الروايا وكلف الشعابيين الذين يذهبون معى فى الصيد ، وأكون قد وفرت نفسى وعسكرى » .

ويضيف المقريزى الذى ننقل عنه هذا الخبر قائلا : « ولم يعهد فى أيام ملك قبله ما عهد فى أيامه من مسالمة الأيام له ، وعدم حركة الاعتداء برا وبحرا ، وخضوع جميع الملوك له ، ومهادنتهم اياه » .

الناصر والتعمير

انفرد الناصر بين سلاطين المماليك بطول مدة حكمه ، فقد استمرت أيام سلطنته الثالثة وحدها اثنتين وثلاثين سنة تقريبا ، كما امتاز هو عن معظم هؤلاء السلاطين بحب عميق للبلد الذى ولد تحت سمائه ، وترعرع فى أحضانه ، ذلك الحب الذى انعكس بأجلى صوره فيما قام به من تعمير البلاد ، وقد سار على نهجه الناس فى عصره ، « وكأنما نودى فى الناس ألا يبقى أحد حتى يعمر ، وذلك ان الناس على دين ملكهم » كما يقول المقريزى فى سلوكه .

والواقع أنه منذ قدم الناصر من الكرك فى سلطنته الثالثة الى أن مات وهو فى حركة تعمير متواصلة للبلاد ، لا يكاد ينتهى من مشروع حتى يبدأ مشروعا جديدا ، وقد كانت كلها مشروعات حيوية ، عظيمة الفائدة للبلاد ، قصد بها أول ما قصد منفعة الناس عامة ومنفعة الفلاحين خاصة فهم سواد الشعب . ولئن صح لنا أن نعبر ذلك بتعبيراتنا الحديثة لقلنا ونحن مطمئنون الى ما نقول — انه انما كان يهدف الى زيادة الدخل القومى للبلاد .

والمنشآت التى يمكن أن يقال انها أقيمت لمصلحته الخاصة لا تكاد تتعدى ثلاثة هى : القاعات السبع التى بناها لأجل جواريه داخل القلعة فى المكان الذى يشغله اليوم قصر الجوهرة .

والقاعات السبع التى أنشأها خارج قلعة الجبل ، فى المنطقة المعروفة اليوم بقلعة الكبش قرب مسجد ابن طولون ، وقد خصصها لبناته لينزلن فيها للفرجة على مواكب السلطان فى اتجاهها الى الميدان الكبير . والآبار العشرة التى أمر بحفرها وجعل عمق كل منها نحو أربعين ذراعا (أى ما يقرب من عشرين مترا) وأمر بتركيب السواقى عليها حتى يرتفع الماء من النيل الى القناطر ويجرى عليها الى القلعة حتى تزيد بذلك كمية المياه فى داخل القلعة ، وهذا المشروع الأخير لم تقتصر فائدته على شخص الناصر وأسرته لأن القلعة كانت يومئذ مقر الحكم وكانت فيها دواوين الدولة وقصور الأمـــراء .

أما المنشآت العامة فكثيرة يكاد يخطئها العد ، ولذلك سنختار منها ما نعتقد انه أولى بالذكر من غيره .

ولقد كان من أثر حماسته للتعمير والاصلاح أن ارتقت القاهرة حتى سادت فى المنزلة معظم عواصم العـــالم حينئذ ان لم تفق عليها ، وامتدت الترع والجسور فى معظم أراضى البلاد ، ووصل الماء الى أماكن ما كان يصل اليها من قبل .

ولقد كانت هواية الناصر للصيد من العوامل التى ســاعدت على توسيع دائرة التعمير اذ كان يركب من أجل هذه الهواية الى شتى أنحاء البلاد سواء فى أعاليها أو فى أسافلها ، فأتاح له ذلك فرصة تفقد أحوال البلاد بنفسه ، والنظر فى جسورها وترعها ، وقناطرها بحيث انه — على حد قول المؤرخين — لم يدع فى أيامه موضعا منها حتى عمل به ما يحتاج اليه

ولقد اتجه فى تعميره الى العاصمة كما اتجه الى الريف ، وحظيت الأولى بكثير من العمائر والبساتين التى انتشرت فى جوانبها المختلفة فجعلت منها عاصمة جميلة كأحدث وأجمل ما تكون العواصم .

وحظى الريف بالترع والجسور الكثيرة ، والطرق المائية المتعددة مما زاد فى رقعة الأراضى الصالحة للزراعة ، وبالتالى كثرت الغلات والخيرات ، وسهل الانتقال من مكان الى مكان ، وراجت التجارة ، وظهرت مدن جديدة لم تكن موجودة من قبل .

ومن أهم منشآته فى مدينة القاهرة الميدان العظيم ، والقصر الأبلق ، والايوان ومسجد القلعة ، وحوش الغنم والميدان الناصرى ، وبستان باب اللوق ، وقناطر السباع .

أما الميدان العظيم فقد أنشأه تحت قلعة الجبل بعد جلوسه على العرش فى سلطنته الثالثة بأربع سنوات ، وقد وزع العمل فيه على الأمراء فصارت جمالهم تنقل الطين اليه حتى امتلأ ، وحفر فيه الآبار وركبت عليها السواقى ، وغرس فيه النخيل والأشجار المختلفة ، وأحاطه بسور عظيم من الحجر ، كما بنى خارجه حوض ماء للسبيل ، وكان يلعب فيه الكرة مع الأمراء ، ولا يزال هذا الميدان موجودا تحت اسم « قره ميدان » أو الميدان الأسود .

وأما القصر الأبلق فقد أنشأه فوق الميدان السالف الذكر ، وقد حرص على أن يجعله من أعظم أبنية عصره ولا عجب فقد كان طبيعيا — بعد أن ارتفعت مكانة مصر فى عهده الى تلك المنزلة السامية التى عرفناها من الصفحات السابقة — أن يهتم ببناء

هذا القصر اهتماما عظيما ويستدعى له من دمشق مهرة البنـــائين والمزخرفين ليساهموا مع مهرة الصناع فى مصر على ابداعه وقد كانت واجهته مكونة من أشرطة عريضة متوازية لونها أســود وأصفر على التوالى ، وهذا ناتج من استعمال نوعين مختلفين من الحجر لكل نوع منهما لون واحــد من اللونين السالفى الذكر (مدماك أسود ومدماك أصــفر) وتسميته بالقصر الأبلق انما جاءت من هذه الظاهرة التى لعبت دورا هاما فى العمارة الاسلامية حتى كادت تصبح علما عليها وقد ظهر لأول مرة فى العمـــارة الاسلامية فى قصر الظاهر بيبرس بدمشق أما فى مصر فهى تصادفنا لأول مرة فى واجهة مسجد الظاهر بيبرس القائم حتى الآن فى ميدان الظاهر بالقاهرة ، ومن أبواب القصر امتدت دهاليز الى الداخل مفروشة بالرخام ومغطاة بأبسطة جميلة ، أما الجدران من الداخل فقد كانت تزدان بالرخام وبالصدف وبالألوان الجميلة ، وكانت السقوف كلها مذهبة ، مموهة باللازورد ، وكانت النوافذ تسدها شبابيك من الحديد جميلة الصنع ، وكانت هناك طاقات تخترق الجدران ومغطاة بالزجاج المختلف الألوان . أما أرضية القصر فقد فرشت كلها بالرخام المنقول من شتى أقطار الأرض . ويشرف القصر على بساتين وساحات آية فى الروعة والجمال . وقد كان السلطان يجلس على تخت الملك المنصوب بصدر الايوان الرئيسى فى هذا القصر يستقبل الوفود فى سائر أيام الأسبوع ما عدا يومى الاثنين والخميس فقد كان يجلس فيهما فى الايوان.

وهذا الايوان كان موجودا بالفعل قبل « الناصر » اذ أنشأه

والده السلطان قلاوون ، وجده بعد الملك الأشرف خليــل ، وبعد أن استقر الناصر فى سلطنته الثالثة بنحو عشرين عاما رأى أن يعيد بناءه ويزيد فيه . فأنشأ به قبة جليلة ، وأقام فيه عمــدا عظيمة حملت اليه من بعض معابد الصعيد ، ونصب فى صدره سرير الملك وقد كان من العاج والآبنوس وأثثه بأفخر الأثاث من البسط الفاخرة والستائر الرائعة ، ورتب له من الخدم والحشم بحيث أصبح يبهر أنظار الزائرين من الأجانب ، ويأخذ عليهم أنفاسهم عندما يشاهدونه لأول مرة . وقد جعل أمامه رحبــة فسيحة مستطيلة تزيد من جلاله ، وتعظم من شأنه ، وله باب مسبوك من الحــديد بصناعة بديعة . وكان موضعه فى المكان الذى يشغله اليوم مسجد محمد على بالقلعة .

وأما المسجد فقد كان من الطبيعى أن ينشئه الى جانب القصر والايوان ، وهو فى الحقيقة لم ينشئه انشاء ولكنه هدم مسجدا صغيرا وبنى مكانه مسجدا كبيرا أدخل فيه بعض الأبنية الأخرى المجاورة لكى يجعله واسع الأطراف ، يتناسب فى اتساعه وعظمته مع عظمة الدولة على عهده ، ومن هنا جاء آية فى الابداع : أرضه مفروشة بالرخام ، وسقفه محلى بالألوان المذهبة ، وفى صدره قبة عالية ، وبه مقصورة تحيط بالأروقة ، وبها شبابيك الحديد المحكمة الصنع ، وله مئذنتان تعتبران من أروع المآذن فى مصر ، لهما مظهر غريب يميزهما عن باقى المآذن المصرية ، وقد كسيتا من أعلى بألواح القاشانى .

وعندما تم بناء المسجد جلس « الناصر » فيه ، واســتدعى

جميع مؤذنى القاهرة ومصر ، وجميع القراء والخطباء ، وعرضوا بين يديه ، واستمع الى أذانهم ، وخطابتهم ، وقراءتهم ، فاختار منهم عشرين مؤذنا رتبهم فيه ، وقرر فيه درس فقه ، وقارئا فى المصحف وجعل عليه أوقافا تكفيه وتفيض عن حاجته .

وأما « حوش الغنم » الذى أنشأه للعناية بتربية الأغنام والأبقار والأوز ، فقد كان فى القلعة ، فى بقعة كانت فى الأصل محجرا تقطع منه الحجارة اللازمة للبناء ، وأصبح غورا عظيما ، فأمر بازالة التراب منه ، وكلف الأمراء بالعمل فى ذلك مع مماليكهم ورجالهم ، وكان يستحث الأمراء على الانتهاء من هذا العمل فى أسرع وقت ، وكان هؤلاء بدورهم يستحثون العامة لكى يفرغوا منه ، واستمر العمل ستة وثلاثين يوما حتى انتهى ، وأجريت اليه المياه ، وأقيمت به الأغنام والأبقار ، وبنيت فيه بيوت الأوز .

* * *

ولنترك القلعة الى القاهرة حتى نرى ما أحدثه « الناصر » فيها من أوجه التعمير ولعل أهم ما يذكى له هنا هو الميدان الكبير الواقع على النيل ، والذى كان يعرف بالميدان الناصرى نسبة اليه .

واذا أردنا أن نحدد موضع هذا الميدان الآن على وجه التقريب وجدنا انه كان يشغل الموضع الذى تقوم فيه اليوم منطقة « جاردن ستى » ، وكان يحده من الشمال شارع رستم ، ومن الشرق شارع القصر العينى ، ومن الجنوب شارع الوالدة باشا ،

ومن الغرب شارع القصر العالى . وقد خصص للناصر هـذا الميدان لسباق الخيل التى عرفنا مدى عنايته بها من قبل .

وقناطر السباع من المنشآت التى سبقت فى وجودها عهد « الناصر » فقد شيدها من قبل الظاهر بيبرس فوق الخليج بين مصر والقاهرة وجعل عليها سباعا حجرية ترمز اليه ، فقد كان « السبع » شعار هذا السلطان أو رنكه كما يقول مؤرخو العصور الوسطى . وقد كانت عالية مرتفعة فلما أنشأ « الناصر » الميدان الناصرى سالف الذكر ، وتردد اليه كثيرا صار لا يمر اليه من قلعة الجبل دون أن يركب قناطر السباع هذه ، فتضرر من علوها ، وقال للأمراء ان هذه القنطرة حين أمر عليها يتألم ظهرى من علوها ويقال انه أشاع ذلك والقصد انما هو كراهته النظر الى أثر أحد من الملوك قبله ، وبغضه أن يذكر لأحد غيره شيء يعرف به ، وهو عندما يمر بها يرى السباع التى هى رنك الملك الظاهر فأحب أن يزيلها ويعيد بناءها لتبقى القنطرة منسوبة اليه ومعروفة به كما كان يفعل دائما فى محو آثار من تقدمه وتخليد ذكره ومعرفة الآثار به ونسبتها له فاستدعى والى القاهرة والمهندس وأمر بهدم قناطر السباع وعمارتها أوسع مما كانت عليه بعشرة أذرع وأقصر من ارتفاعها الأول ، وتم ذلك سنة خمس وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٤ م) فى أحسن قالب ، ولم يضع سباع الحجر عليها وكان الأمير الطنبغا الماردانى قد مرض ونزل الى الميدان الناصرى فأقام به ، ونزل اليه السلطان مرارا فبلغ المـاردانى ما يتحدث به العامة من أن السلطان لم يخرب قناطر السباع

ويعيد بناءها الا حتى تبقى باسمه ، وانه رسم بكسر سباع الحجر ورميها فى البحر ، واتفق أن شفى الطنبغا عقب الفـراغ من بناء القنطرة وركب الى القلعة وسر السلطان بلقائه ، وجاء ذكر القنطرة فى حديثهما معا وسأله السلطان عما اذا كانت أعجبته فأجـابه « والله يا خوند لم يعمل مثلها ولكنها ما كملت » فقال السلطان: كيف ؟ فأجابه « السباع التى كانت عليها لم توضع مكانها ، والناس يتحدثون أن السلطان له غرض فى ازالتها لكونها رنك سلطان غيره » فامتعض السلطان لذلك وأمر فى الحـال باعادة السباع الى ما كانت عليه ، وقد تم ذلك بالفعل .

ولعل ما يدعو الى العجب أن تثار هـذه الأشاعة حـول السلطان على الرغم من أن محبته للاصلاح والتعمير واقباله عليهما كانت من الأمور التى لا ينكرها انسان فى عصره . ولكن لم يخل عصر من العصور من أشخاص يسيئون الظن بأعمـال غيرهم ، ويتصيدون الأسباب لاظهار أنهم من المطلعين على بواطن الأمور وينسجون من خيالهم قصصا يفسرون بها أعمال الناس حسب هواهم . وفى ظنى أن الاشاعة التى شاعت عن الناصر عندما أراد توسيع قناطر السباع وتخفيض ارتفاعها هى من هذا القبيل ، والا لو صحت لكان جديرا بالناصر أن يهدم كل آثار من تقدمه من السلاطين وهى كثيرة أو على الأقل كان يمحـو أسماءهم ورنوكهم من هذه الآثار ويحاول أن ينسبها لنفسه وأمامه على سبيل المثال « الباب المدرج » بالقلعة الذى كان ولا يزال يحمل رنك صلاح الدين واللوحة التأسيسية التى تشير اليه والى وزيره

قراقوش أما كان الأجدر أن يبدأ به فيهدمه أو يعدل فيه ثم يثبت اسمه عليه ؟؟

وبجوار قناطر السباع أنشأ « الناصر » « ميدان المهار » أى المهر وهو ولد الفرس وقد كان الدافع الى انشائه أن يجعل جميع خيوله به ، ولقد نقل اليه الطين ، وزرع فيه النخل ، ولعب فيه الكرة مع الأمراء ، ورتب فيه الحجـرة (أى أنثى الخيـل) للنتاج ، وكان يتردد عليه كثيرا ، وقد احتفظ عنده بسجل كان يقيد فيه تاريخ كل فرس يقتنيه ، فيثبت فيه اسم صاحبه الأصلى ، وتاريخ مولده ، وتاريخ شرائه ، وتاريخ حمله وترقب الوقت الذى تلد فيه .

* * *

وعند باب اللوق أنشأ السلطان بستانا عظيما ، أحضر له سائر أصناف الزراعة ، كما استقدم له من بلاد الشام الخولة ، والمطعمين الذين يحذقون فن تطعيم الأشجار ، ويقول المقريزى ان المصريين قد تعلموا فن تطعيم الأشجار منذ انشاء هذا البستان ، وانهم اعتنوا بهذا الفن بعد ذلك عناية كبيرة .

* * *

وقد علم الناصر أن النيل قد قوى اندفاعه على ناحية بولاق ، وأصبح خطره على القاهرة عظيما ، فأمر باحضار المهندسـين لمشاورتهم فى ذلك ، ثم خرج معهم الى النيل لمعاينة الموضع على الطبيعة ، واستقر الرأى على أن ينشأ فى الجزيرة الوسطى خليج يدخل اليه الماء ، ويعمل جسر وسط النيل يكون بمثابة سد يمتد

من جزيرة الروضة الى الجزيرة الوسطى ، فاذا جاء وقت الفيضان ، وارتفع النيل ، جرى الماء الى الخليج المحفور فى الجزيرة الوسطى ، وحال السد المقترح عمله دون اندفاع الماء الى بولاق وبالتالى حال دون تهديد القاهرة بالغرق ، وتحول الماء الى ناحية الخليج وناحية امبابة .

وبدىء فى حفر الخليج وعمل السد ، وقطعت الأحجار وألقيت فى النيل ، وكان السلطان حريصا على اتمام هذا المشروع فى أسرع وقت ، فكان ينزل بنفسه الى مكان العمل ، ويستنهض همم العمال ، ويستحثهم على السرعة ، حتى تم العمل فى مدة شهر .

وقد نجح هذا المشروع نجاحا عظيما ، ونجت القاهرة من خطر محقق كان يتهددها كل عام من الفيضان ، وفرح الناس ، واطمأنوا على حياتهم ، وكان أعظمهم فرحا هو السلطان الذى اهتم بالمشروع ، ولم يبخل عليه بالمال أو الجهد .

* * *

ولكن الناصر لم يقتصر فى اصلاحاته على العاصمة — كما ذكرنا — بل اتجه أيضا الى الريف ومنحه من عنايته نصيبا وفيرا لا يكاد يقل عن النصيب الذى أعطاه للعاصمة ان لم يزد عليه ، فلقد أمر بحفر خليج يمتد من القاهرة الى مدينة « سرياقوس » ، وقسم العمل فيه بين الأمراء ، وعين لكل أمير عدة أقصاب يحفرها .

واخترق هذا الخليج فى امتداده بعض أحياء القاهرة ، وأقيمت

عليه القناطر الكثيرة ، ونستطيع على هدى وصف المؤرخين أن نحدد بعض المواضع التى يجرى فيها هذا الخليج فى شىء قريب من الدقة [1] . ونكتفى هنا بأن نذكر على سبيل المثال القنطرة التى كانت قائمة عند نقطة التقاء شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بشارع طلعت حرب (سليمان باشا سابقا) ، والقنطرة التى كانت قائمة بالقرب من محطة كوبرى الليمون الحالية بجوار محطة مصر (بميدان رمسيس) .

وقد ترتب على انشاء هذا الخليج الذى عرف باسم « الخليج الناصرى » أن عمرت جهات مختلفة فى مصر والقاهرة ، وقامت على جانبيه الدور والقصور ، والمساجد والأسواق والبساتين ، وانقلبت أراضى كانت تلالا الى بقاع مسكونة لا ترى فيها قدر ذراع الا وفيه بناء على حد وصف المقريزى .

ولم ينتشر العمار حول الخليج فحسب ، بل امتد الى أحياء أخرى من المدينة ، فالصحراء الممتدة بين قلعة الجبل وتربة الملك الظاهر برقوق قد مستها عصا « الناصر » السحرية فانقلبت الى مدينة عظيمة ، كما اتصلت العمائر من باب زويلة (بوابة المتولى) الى قنطرة السد (وقد كانت فى حى السيدة زينب) .

---

(١) للمرحوم محمد رمزى بك فضل كبير فى تحديد معالم القاهرة التاريخية على هدى وصف المؤرخين القدامى ، وتعليقاته القيمة فى كتاب «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» للمؤرخ ابن تغرى بردى طبعة دار الكتب المصرية خير مرشد فى هذا الصدد .

أما خارج القاهرة فقد ركبت على هـذا الخليج السواقى العديدة التى سهلت وصول الماء الى أراضى كانت ميتة فأحيتها ، وأصبح من الميسور زراعتها .

كما سارت فيه المراكب بين القاهرة وسرياقوس تحمل خيرات الريف الى المدينة كما تحمل صناعات المدينة الى الريف .

ولكن ما الحكمة فى مد هذا الخليج الى ناحية سرياقوس ؟؟ الواقع ان هذه البقعة قد أحبَّها الناصر حبا جما ، وأنشأ فيها بالفعل دارا للصوفية « خانقاه » كانت من أجل الدور ، وقد صارت بمرور الزمن مدينة عظيمة تحمل اليوم اسم « الخانكاه » وهو كما نرى مستمد من اسم الخانقاه .

وقد عمر الناصر بجوارها القصور وأنشأ البساتين التى حملت الأشجار المختلفة من دمشق وغيرها من بلاد الشام فنمت فيها فواكه الشام .

وقد كان فيها مائة خلوة لمائة صوفى يتفرغون فيها للعبادة وقد حرص السلطان على أن يوفر لهم ما هم فى حاجة اليه ، وكل ما يعاون على تفرغهم للعبادة ، فكان يصرف لكل صوفى فى اليوم رطلا من اللحم الضأن تطبخ فى طعام شهى ، ومن الخبز أربعة أرطال . وكان يصرف لكل منهم كل شهر رطلا من الحلوى ، ورطلين من الزيتون ، ورطلين من الصابون ، ويصرف لكل منهم سنويا ثمن كسوة ، وفى شهر رمضان ، وفى مواسم رجب وشعبان وعاشوراء ، والعيدين كان يوسع عليهم ، وكلما ظهـرت فاكهة جديدة يصرف لكل منهم مبلغ من المال لشرائها .

وقد أقام الناصر الى جانب الخانقاه مسـجدا عظيما تقام فيه الجمعة ، كما شيد بناء برسم ضيافة الوافدين الى هذا المكان ملحقا به حمام فيه الحلاقون والمدلكون ، وفيه مطبخ تعد فيه الأطعمة المطلوبة .

وقد استغرق بناء الخانقاه وملحقاتها أربعين يوما ، ومد عند افتتاحها سماط عظيم حضره القضاة ومشايخ الصوفية .

وكما عنى السلطان بناحية سرياقوس ، فقد عنى أيضا بنواحى الجيزة عناية كبيرة ، حتى انه عمل فى كل بلد جسرا وقنطرة ، وساهم فى العمل الأمراء ورجالهم ، وبنيت القناطر من حجارة أخذت من الهرم الصغير وغيره من بعض الجرانيت المتهدمة .

وقد ترتب على ذلك أن تحسنت أحوال الرى فى تلك المنطقة التى كانت هى الأخرى تتمتع بعناية « الناصر » وكان لها فى نفسه مكانة ملحوظة ، وكثيرا ما كان يخرج اليهم للنزهة أو للصيد . وطبيعى أن تنعكس هذه العناية على سكان هذه المنطقة فيزداد خيرهم وزراعة أراضى شاسعة لم تكن مزروعة من قبل ، وتعمير أراضى كانت خرابا وقد منحت هذه الأراضى المستصلحة الى بعض الأمراء الذين أوقفوها على كثير من جهات البر والخير . ويشيد المقريزى بهذا العمل الجليل ، ويعقد مقارنة بين ما كان يعمله الناصر وأمراء دولته ، وبين ما كان يعمله غيرهم من السلاطين والأمراء ممن كانوا يستولون عـلى أحسن البـلاد لأنفسهم فيأخذونها ويوقفونها على ذويهم ، ويأتى نظار الوقف من بعدهم فيخربونها بعد سنين . ويخرج المقريزى من هذه المقارنة الى أن السلطان اذا

كانت له معرفة بشئون الاصلاح ، تحققت له أهدافه وجمع من المال مالا يحتاج معه الى فرض الضرائب الباهظة التى تثقل كاهل الناس .

* * *

ولقد كان نصيب منطقة الشرقية من اصلاحات الناصر عظيما ، فقد حفر فيها الترع ، وأقام فيها القناطر ، وأنشأ الجسور ، فانقلبت الأراضى البور التى كان لا ينتفع بها أحد الى أراضى زراعية فزاد خراجها زيادة كبيرة ، وعمّ الخير الوفير على سكانها .

بقى من أعمال الناصر العمرانية عملان جليلان ، أحدهما أتمه فكان من ورائه خير عميم للبلاد جميعا من أقصاها الى أقصاها ، والآخر فكر فيه ولكنه عندما همّ باخراج فكرته الى حيز التنفيذ ، وناقش أمراء دولته فيه ، أقنعه أحدهم بالعدول عنه لتعذر تحقيقه فعدل عنه .

أما المشروع الأول فهو فى الحقيقة لم يبتكره لأنه كان موجودا من قبله ، ولكنه أهمل فضاعت الفائدة المرجوة منه ، ذلك هو خليج الاسكندرية .

وقد حضر نائب الاسكندرية وحسّن للسلطان حفر الخليج أو على الأصح تطهيره حتى يستمر الماء فيه طول العام ولا يتعطل جريانه فى معظم أيام السنة .

وقد لاحظ « الناصر » أن عدم جريان الماء فى هذا الخليج طوال العام ينتج عنه متاعب كثيرة لأهالى الاسكندرية اذ ينقطع

عنهم مورد الماء العذب الذى منه يشربون ، وقد كانوا يضطرون الى خزنه فى صهاريج تحت الأرض ، ولا تزال من هذه الصهاريج أمثلة موجودة حتى اليوم بالاسكندرية من أشهرها « صهريج البنية » يمكن الانسان أن يزوره ان أراد ذلك .

ولقد نجم أيضا عن اهمال هذا الخليج أن حرمت كثير من الأراضى من الماء الأمر الذى ترتب عليه انها خربت وأصبحت لا يستفاد منها . ولذلك وافق « الناصر » على اقتراح نائبه بالاسكندرية وأصدر أوامره بتطهير هذا الخليج ، وتعميقه ، وتوسيعه ، أى انه قد أعاد حفره من جديد .

وقد قسم العمل فى هذا الخليج بين الأمراء والولاة ، فأخرج كل منهم رجاله للعمل ، وحفروا ما حدد لهم ، وقد عمل فيه نحوا من الأربعين ألف رجل . وقد جعل عمقه نحوا من ست قصبات أى ما يقرب من واحد وعشرين مترا ، وجعل عرضه نحوا من ثمانى قصبات أى ما يقرب من ثمان وعشرين مترا .

ولقد ترتب على اعادة الحياة لهذا الخليج أن أنشأ الناس عليه سواقى كثيرة بلغت عدتها نحو ستمائة ساقية كانت ترفع المياه الى الحقول ، فزادت الأراضى المزروعة على مائة ألف فدان . واستجدت بسببه نحوا من أربعين قرية ، كما أنشئت عليه مدينة جديدة كانت فيما مضى تسمى « الناصرية » نسبة الى السلطان الناصر أما الآن فتعرف باسم نكلا العنب ، وهى احدى مركز المحمودية بمديرية البحيرة .

وينبغى أن لا ننسى أن خليج الاسكندرية هذا لا يزال

موجودا بيننا حتى الآن فقد تغير اسمه فى العصر الحديث منــذ عهد محمد على الذى أطلق عليه اسما جديدا هو « ترعة المحمودية » نسبة الى السلطان العثمانى « محمود الثانى » الذى كان متربعا على عرش تركيا فى ذلك الوقت .

* * *

أما المشروع الثانى الذى لم ير النور فقد رأى الناصر أن يجرى النيل تحت قلعة الجبل بأن يشق له طريقا من ناحية حلوان .

وقد بعث بالفعل المهندسين لمعاينة الأماكن التى تصلح لحفر هذا الخليج فيها ، وبالفعل قاموا بمعاينة الأرض من حلوان حتى الجبل الأحمر المطل على القاهرة وقاسوا هــذه المسافة لمعرفة ما يتطلبه هذا المشروع من تكاليف ، وقدروا العمل فى ردم الأجزاء المنخفضة حتى ترتفع ، وحفر الأجزاء العالية التى سيجرى فيها الماء حتى القلعة . وعادوا الى السلطان يحمــلون تخطيطاتهم ، ورفعوا اليه تقريرا نتيجة المعاينة التى قاموا بها . واطلع الناصر على هذه الأوراق ثم رأى أن يخرج بنفسه مع هؤلاء المهندسين وأن يعاين معهم المكان وتقاس الأرض بين يديه ، وخــرج السلطان من معاينته هذه مقتنعا بامكانية تنفيذ المشروع وبما يمكن أن يأتى به من فوائد . ولكنه أراد أن يستشير الأمراء قبل الاقدام على التنفيذ ، فاجتمع بهم ، وشرح لهم المشروع فوافقوا جميعا عليه ، ولم يعارضه الا واحد هو ناظر الجيش ولعله أدرك جسامة المصاريف وضآلة الفائدة هو عدم ظهور ثمرته الا بعــد زمن طويل ، ولعله من الطريف أن نلخص هنا الحديث التى دار بينه

وبين السلطان فى هذا الصدد : لقد سأل أحدهم السلطان قائلا : « بمن يحفر السلطان هذا الخليج » فأجابه السلطان : «بالعسكر» فرد عليه « والله لو اجتمع عسكر آخر فوق العسكر السلطانى ، وأقاموا سنين عدة يعملون ما قدروا على اتمام هذا العمل ، فانه يحتاج الى ثلاث خزائن من المال والى جهد بشرى كبير ثم هل يصح فى النهاية ويؤتى ثماره أو لا ؟ . وختم حديثه بأنه يرجو ألا يسمع السلطان لكل أحد ويصدق كل ما يقال له ، ويتعب الناس ، ويستجلب دعاءهم عليه .

واقتنع السلطان برأى ناظر الجيش وعدل عن تنفيذ هـذا المشروع . ولعلها المرة الأولى التى يعدل فيها السلطان عن تنفيذ مشروع آمن به ، فلقد كان موفقا فى جميع مشروعاته يقترح المشروع فيزهده فى تنفيذه — فى بعض الأحيان — بعض المحيطين به من مهندسين أو سواهم ، ويصعبونه عليه قائلين « ان الذين جاءوا من قبلنا لو علموا أن هذا المشروع يصح لفعلوه » ولكنه كان يصم أذنيه عن أقوالهم ولا يلتفت اليها ، ويفعل ما بدا له من مشروعات فتحقق أغراضها على ما يجب .

والواقع أن « الناصر » كان مشيعا يحب التعمير ، ولشـد ما كان يغتبط اذا ما سأله بعض الجنود أن يصلح شيئا فى القرية التى يعيش فيها مثل انشاء جسر أو تسهيل رى أو غير ذلك من الاصلاحات العمرانية التى ترفع من شأن هذه القرية وتزيد من دخلها ، وكان يسارع فى اجابة هذا الطلب من غير توقف ، ويأمر بصرف المال اللازم للمشروع المطلوب من غير ملل أو تردد .

وكثيرا ما كان يلقى الاعتراض على صرف المال فيقول ذلك القول الذى يفصح عن ادراكه العميق لمسئولية الحاكم ، ولوظيفة المال العام اذ يقول : « فلم اذن نجمع المال فى بيت مال المسلمين ؟ وما هى فائدته ان لم تكن لتحقيق مثل هذه الأغراض ؟ » . ولقد كانت منزلة هذا الجندى الذى اقترح الاصلاح تسمو فى نظره وينشرح خاطره لأنه وجد بين جنوده من يحب الاصلاح مثله .

ولكم كان يحزنه أن يسمع بتعذر وصول الماء الى قرية من القرى ، فلا يترك فرصة تمر دون أن يسأل المسئول عن هـذه القرية كلما وقع عليه بصره عن أحوال قريته وشئونها الزراعية . ولا يكتفى بهذا السؤال بل كان هو دائم التفكير فى تدبير طريقة لرى أراضى تلك القرية ، ولا يزال يبحث ويدقق فى ذلك حتى يتحقق غرضه بكل وسيلة ممكنة ، يفعل كل ذلك من تلقاء نفسه ودون أن يتقدم اليه أحد بشكوى أو برغبة أو يلتمس عونا منه أو من المسئول عن القرية . وكثيرا ما كان بعـض الأمراء من حاشيته يعترضـون على سياسته هذه ويقولون له ان أحـدا لم يسأله المعاونة فى رى أراضى تلك القرية فيجيبهم ذلك الجواب الذى يترجم بصدق واخلاص عن مدى حبه العميق لبلاده : « هذه قريتى ، وأنا الملزوم بها والمسئول عنها » .

ولقد كان يسعده دائما أن يرى أمراءه ومماليكه ورجال دولته ينسجون على منواله فى التعمير والاصلاح ، ومن هنا أصبحت « مودة العصر » فى الحقيقة هى التشييد ولشد ما كان يثلج صدره أن يعلم أن أحدا قد أنشأ عمارة فكان ينتهز الفرصة لكى

يشكره أمام الناس بعنايته بالتعمير ، ثم يسعى سرا الى مساعدته بالمال والآلات حتى يتم العمل الذى بدأه فى غير ضيق أو عنف .

* * *

وبعد فليس هناك شك فى أن هذه المنشآت المختلفة التى شيدها « الناصر » أو حفرها ، أو جددها وأعاد بناءها قد عادت بفوائد جمة على الشعب بأكمله ، ولقد كان السلطان حريصا أشد الحرص على أن تؤتى هذه الأعمال ثمارها ، وتحقق الغرض منها ، فأفرد لها ديوانا خاصا يشرف على الانشاء والتعمير .

ولكن ألم تلحق هذه المنشآت فى الوقت نفسه الضرر ببعض أفراد الأمة ، ألم ينتج عنها لهم خسارة فى الأموال وفى الأنفس ؟ ألم تخرب بسببها أملاك خاصة كان يستفيد بها أصحابها ؟ ألم تهدم بسببها دور كان يسكنها أشخاصا أرغموا على تركها لتنفيذ هذه الأعمال بعضها أو كلها ؟ ألم يدفع أجدادنا فى عصر الناصر ، فى بعض الأحيان ، أرواحهم كما دفعوا أموالهم ثمنا لها ؟.

لقد أجاب مؤرخو العصور الوسطى فى وضوح لا لبس فيه على هذه الأسئلة بالايجاب فعند عمل « حوش الغنم » بالقلعة كان السلطان يستحث الأمراء على الانتهاء من العمل فى أسرع وقت وكان هؤلاء بدورهم يستحثون العامة بالضرب ، وقد وقع عليهم ظلم بيّن اذ كانوا يعملون ليلا ونهارا من غير راحة ، وكان الوقت صيفا فهلك تحت حرارة الشمس عدد منهم ، وكان من يعجز عن الاستمرار فى العمل يلقى بنفسه على الأرض فيرمى أصحابه عليه التراب فيموت لوقته . .

وذكروا لنا أيضا عند كلامهم على الخليج الذى أنشىء فى الجزيرة الوسطى ، والجسر الذى عمل فى وسط النيل ليكون بمثابة سد يمتد من جزيرة الروضة الى الجزيرة الوسطى لكى يحمى القاهرة من الغرق — انه أصدر أمره بتسخير الناس فى ذلك العمل فكانوا يؤخذون قسرا من المساجد والأسواق والطرقات مما اضطر بعضهم أن يلزموا مساكنهم خوفا من السخرة .

كما ذكر هؤلاء المؤرخون أيضا انه بسبب حفر الخليج الناصرى قد هدمت أملاك كثيرة .

والواقع أن ذلك يضعنا وجها لوجه أمام مشكلتين هما مشكلة السخرة ومشكلة نزع الملكية . أما المشكلة الأولى فقديمة جدا ، ذات صلة وثيقة بمشكلة الرق التى سبق أن تحدثنا عنها فى القسم الثانى من هذا الكتاب .

فالسخرة وجدت منذ أن وجد هناك قوى وضعيف ؛ قوى يملك السلطة ، وضعيف لا يملك الا الخضوع ، على أن أهم ما يمكن أن يفرق بين السخرة والرق ان العامل كان يؤجر على العمل الذى يكلف به فى حالة السخرة سواء أكان هذا الأجر مجزيا أم غير مجز . أما فى الرق فلا أجر على العمل لأن العامل ملك لسيده .

ولعل أول مظهر للسخرة يصادفنا فى تاريخ بلادنا هو اشتراك آلاف العمال والصناع فى بناء الأهرامات والمعابد فى العصور الفرعونية .

ولقد استوقفت هذه الظاهرة علماء آثار تلك العصور ، وراحوا يقلبون الفكر فيها ، ويتساءلون ترى هل سيق هؤلاء العمال والصناع قسرا الى العمل ؟ أم سعوا هم اليه رغبة فى الحصول على لقمة العيش ؟ أم كان سعيهم للعمل فيه بدافع من عقيدتهم الدينية ، ووحى من وجدانهم رغبة منهم فى الحصول على الجزاء فى العالم الآخر ؟

الواقع انه لم تصل الينا من أقوال هؤلاء المسخرين — على قدر ما وسعه علمى — ما يحمل الجواب على هذه الأسئلة ، ومن هنا جاء اختلاف علماء الآثار الفرعونية فى تفسير هذه الظاهرة ، فمنهم من قال انهم كانوا مسخرين ،ومنهم من نفى السخرة عنهم وقال أنها لا تتفق قط مع الدرجة العالية من الاتقان التى وصلوا اليها فى عملهم ، ومنهم من قال أنه الوازع الدينى — وقد أقيمت هذه المنشآت لملوكهم وهم فى نظرهم الآلهة المعبودة — وحده كان كفيلا بقيامهم بهذا العمل عن طيب خاطر واخراجه على تلك الصورة الرائعة من الاتقان .

وتمضى الانسانية فى طريقها المرسوم ، وتنتهى العصور القديمة بأديانها ، ويرتقى العقل البشرى فى العصور الوسطى ، ويشرق على العالم نور الاسلام ، وتصل أشعته الى مصر ، ويدخل فى الدين الجديد أغلبية الشعب ، واذا مشكلة السخرة تبرز من جديد . ولا يتسع المجال لكى تنقضى جميع الحوادث التى تبرز فيها ، ويكفينا أن نشير الى ما وقع فى أيام صلاح الدين الأيوبى

عندما كان وزيره « قراقوش » يأخذ الناس قسرا ويلزمهم بالعمل ثم يدفع لهم أجرهم . وما كان فى أيام « الناصر » عندما كان يساق الناس للعمل تحت حرارة الشمس المحرقة فى حرارة الصيف ويؤخذون من أبواب المساجد عند خروجهم بعد أداء صلاة الصبح .

وتمضى الانسانية فى طريقها جولة أخرى ، وتنتهى العصور الوسطى ، ويقفز العقل البشرى فى سلم الرقى قفزات واسعة فى العصور الحديثة ، ومع ذلك فالسخرة لم تختف بل نراها فى أبشع صورها فى حفر قناة السويس ، فالمسخِر هنا أجنبى ، والمستفيد من السخرة غريب عن بلادنا والضحية هم اجدادنا .

وبعد ، فالسخرة قد عرفها الانسان فى جميع عصوره الماضية ، ولم يتخل عنها فى حياته الحاضرة ، وسوف تظل موجودة ايضا فى حياته المستقبله . واذا كان ملوك الفراعنه قد استخدموها فى سبيل مآربهم الشخصية فشيدوا عن طريقها الاهرامات والمعابد . واستغلها سلاطين العصور الوسطى تارة فى سبيل التاج وطورا فى سبيل منفعة الشعب ، وتستغلها كثير من الحكومات الحاضرة فى الصالح العام الذى يعود على المجموع بالخير فتجند القوى البشرية فى سبيل تنفيذ مشروعات عامة يعود خيرها على الجميع . على أن أهم ما يميز التكاليف فى عصرنا الحاضر ان الحكومات تجزل العطاء ، وتوفر الضمانات الكافية لمن تلزمهم بالعمل فى المشروعات العامة .

واذا عدنا الى « الناصر » لنجلس منه مجلس القاضى حتى نحكم له او عليه بصدد تسخيره الناس فى عمل « حوش الغنم » بالقلعة وتركهم يموتون من الاعياء ومن الحر ، وأخذه النـــاس رغم أنوفهم فى دفع خطر الفيضانات العالية عن القاهرة — لوجدنا أنه لم يخرج من حيث المبدأ على منطق عصره أو العصور السابقة عليه ، ولم يشذ عن العصور اللاحقـــة له الا فى مدى العنـــاية بالمسخرين فقد كانت هذه العناية قليلة أو معدومة بينما هى فى عصرنا الحاضر موفورة . على أننا ، انصافا للحق ، نحب أن نقرر أنه لم يلجأ الى السخرة الا عند الرغبة فى الاسراع فى تنفيـــذ المشروع ، واذا نحن طوينا صفحة الزمن ، وتخيلنا الناصر يعيش فى عصرنا الحاضر يفكر تفكيرنا ، ويستسيغ منطقنا ، ويسلك سلوكنا فى الحياة أكنا ننعى عليه التجاهه الى تسخير طائفة من الناس للقيام بعمل يعود بالخير العميم على المجموع ؟ ألسنا فى عصرنا الحاضر نتدخل فى توجيه الناس الى ما فيه صالح الأمة وصالح الشعب ونعوضهم عن هذا التكليف ؟

وأما نزع الملكية من أجل المشروعات العامة فهو من غير شك يلحق الضرر ببعض أفراد الشعب ، ويكبدهم من الخسائر ما قد ينوء به كاهلهم ، ومن هنا كانت الدولة ، فى عصرنا الحديث تعوض هؤلاء الناس عن خسائرهم ، وهذا بالفعل ما كان يفعله « الناصر » منذ ستة قرون ، فعلى الرغم من أنه كان حاكما ، يفعـــل ما يشاء دون رقابة الا من ضميره ، ويتصرف فى أفراد الأمـــة ، وفى

أموال الدولة على الوجه الذى يمليه عليه هواه الا أنه كان عادلا ، لا يرضى أن يقع الظلم على أفراد رعيته ، فعندما أمر بنزع ملكية الأملاك اللازمة لشق الخليج الناصرى ، قرر أن يصرف لأرباب هذه الممتلكات ثمن ما خرب منها ، ويعوض منهم من هدمت داره ، أو أخذت أنقاضها .

الناصر والتقدم الاقتصادى

يقوم التقدم الاقتصادى أساسا على تنمية موارد الثروة فى البلاد ، وتنمية هذه الموارد انما تأتى من توجيه العناية الى الزراعة، والى الصناعة ، والى التجارة سواء منها ما كان فى داخل البلاد أو كان بينها وبين الدول الأخرى .

وقد عنى « الناصر » بهذه النواحى عناية فائقة كان من أثرها أن تقدمت البلاد فى عهده تقدما عظيما ، وعمّ الرخاء جميع قطاعات الشعب .

أما الزراعة فلن نقف عندها طويلا لأن أعمال الناصر التى أشرنا اليها فى الفصل السابق معظمها كان يهدف الى تمكين الناس من زراعة الأرض ، واستثمار هذا المورد الطبيعى الذى وهبه الله للبلاد ، فالقنوات التى شقت فى طول البلاد وعرضها ، والخلجان التى عمقت أو حفرت ، والأراضى التى نقل اليها الطين لتكون بساتين ، كل ذلك كان من شأنه أن تتقدم الزراعة تقدما عظيما ، وتكثر الحاصلات كثرة فاضت فى بعض الأحيان عن حاجة الأمة فصدرت الى الخارج لمعاونة أهل الحجاز أو أهل الشام .

ولسنا فى حاجة هنا الى أن نذكر أنواع الفواكه والأزهار والخضروات وغير هذه من الحاصلات الزراعية فهى بعينها التى

نراها اليوم ، ولكنها زادت الآن عن ذى قبل ، اذ ظهرت أنواع جديدة لم يعرفها أجدادنا من قبل خلال تلك القرون الستة التى تفصلنا عن عصر الناصر .

واهتمام الناصر بالثروة الحيوانية لم يكن أقل من اهتمامه بالزراعة ، فالصلة بينهما وثيقة ويكفى أن نتذكر ما أشرنا اليه فى الفصل السابق عند الكلام على « حوش الغنم » .

أما الصناعة فقد كانت موضع الرعاية من الحكومة والشعب على السواء ، وقد تقدمت فى العصر الذى نتحدث عنه تقدما يشهد به ما وصل الينا من أمثلة مختلفة مصنوعة من مواد متباينة من قماش ونحاس وزجاج وخزف وخشب مما تفخر بحيازته المتاحف الاسلامية فى بلادنا وفى خارج بلادنا فى أوربا وأمريكا وفى اسطنبول ودمشق وبغداد .

ولا نحب أن نتحدث عن هذه الأمثلة — وهى كثيرة — فى شىء من الاختصار ، لأن هذا الاختصار من شأنه أن يسىء الى هذا التراث الفنى العظيم فلا يفهم على حقيقته ، ولا تتجلى أهميته، ولا تبرز مكانته السامية فى تاريخ الفن الاسلامى خاصة والفن الانسانى عامة ، كما أننا لا نستطيع أن نتحدث عنها بالتفصيل لأن هذا التفصيل فيه خروج عن طبيعة هـذا الكتاب ، لذلك آثرنا أن نفرد لهذه التحف الكثيرة ولجميع الآثار الفنية الباقية من عصر الناصر كتابا قائما بذاته ، نتحدث فيه عن الفن العربى فى عصر الناصر من شتى زواياه ، (ونرجو أن يمتد بنا العمـر

لننتهى منه ونقدمه فى الصـورة التى تليق بذلك الكنز الفنى العظيم) .

ولا يفوتنا هنا أن نشير الى صناعتين كانتا تعتمـدان كل الاعتماد على الزراعة هى صناعة السكر وصـناعة المنسوجات الكتانية .

أما صناعة السكر فقد تقـدمت تقدما واضـحا فى عصر « الناصر » ، وكثر انتاجها كثرة تشهد به تلك الكميات الهائلة من السكر التى كانت تستخدم فى الحفلات العامة والحفـلات الخاصة التى كانت تقام فى ذلك العصر وكثيرا ما هى .

وأما صناعة المنسوجات الكتانية فقد ساهمت الحكومة فى سبيل النهوض بها مساهمة تتجلى فى عنايتها « بدور الطراز » أو بعبارة أوضح بمصانع النسيج التى تديرها الحكومة . ولقد وصل الينا وصف شيق لأحد هذه المصانع فى الاسكندرية عرفنا منه طريقة العمل ، ونوع الأنوال التى كانت مستعملة حينئذ فى عمل تلك المنسوجات التى سحرت الأوربيين بجمالها فبذلوا فى سبيل الحصول عليها الأموال الطائلة .

* * *

أما فى التجارة الداخلية فقد كانت عين الحكومة فى عصر « الناصر » ساهرة عليها ، فكان المحتسب يطوف الأسواق مع نوابه ليلا ونهارا لكى يراقب التجار فى أعمالهم ، ويعاقب من يحاول الغش منهم سواء فى نوع السلعة التى يبيعها أو فى الوزن أو فى الكيل .

وقد كانت هناك أسواق مختلفة لكل سلعة سوق خاص بها ، ولا تزال آثار ذلك حتى اليوم نشاهدها فى جهة « الغورية » فى سوق « الفحامين » وسوق « الخيمية » وسوق « العطارين » وغيرها . وقد كانت هذه الأسواق عامرة بما فيها من شتى السلع سواء ما كان منها مستوردا من الخارج أو كان من انتاج البلاد .

واذا كانت الاسكندرية ، ودمياط ، ورشيد ، وعيذاب ، وقوص من أهم البلاد فى مصر التى راجت فيها التجارة التى تعتمد على الحاصلات المستوردة بحكم موقعها كما سنرى فيما بعد فان الفسطاط (مصر القديمة الحالية) كانت مركزا ممتازا من الناحية التجارية ، فقد كان قربها من النيل ، وكثرة المراكب التى تصل اليها محملة بالبضائع المحلية عاملا هاما فى ازدياد الحركة التجارية بها وفى انخفاض أسعار السلع فيها عن القاهرة كما يقول المقريزى .

* * *

ولم تكن التجارة الخارجية لمصر فى عصر « الناصر » أقل أهمية من التجارة الداخلية ، اذ كان موقع مصر الجغرافى عاملا هاما من عوامل تدفق السلع التجارية اليها من الأقطار المختلفة . فتجارة السودان وتجارة النوبة كانت تحمل فى النيـــل حتى الجنادل ، ثم تنقل على ظهور الجمال الى أسوان التى كانت مركزا هاما فى ذلك الوقت من مراكز التجارة .

وكانت منتجات الشرق ترد من الصين والهند واليمن عن طريق البحر الأحمر حتى مدينة عيذاب ثم تفرغ المراكب حمولتها فى

هذا الميناء ، وتحمل منه على ظهور الابل الى مدينة قوص — وقد كانت فى ذلك الوقت عاصمة مصر العليا — ومن هذه المدينـة تنقل فى النيل الى القاهرة ، ومن القاهرة تواصل سيرها خلال فرع رشيد وخليج الاسكندرية (ترعة المحمودية) حتى ميناء تلك المدينة ومنه تصدر الى أوربا .

أما التجارة التى ترد من أوربا فكانت تأتى عن طريق دمياط أو رشيد أو الاسكندرية وتسلك نفس الطريق السابق حتى قوص ثم عيذاب وفى البحر الأحمر تسير بالمراكب حتى موانى اليمن والهند والصين .

ولقد كان النشاط التجارى بين مصر وأوربا عظيما للغاية ، وكانت الجمهوريات الايطالية ، البندقية وجنوه وبيزا ، لها أكبر نصيب فى هذه التجارة الأمر الذى ترتب عليه تعيين قناصل لها بالموانى الهامة فى مصر ، فى دمياط ورشيد والاسكندرية ، وكان هؤلاء القناصل مسئولين عن مواطنيهم من التجار أمام أولى الأمر فى البلاد ويتكلمون باسمهم فى المهام المختلفة .

ويلاحظ أن هذا النشاط قد اعترضه فترة خمول فى أوائل حياة الناصر أيام كان أخوه خليل هو السلطان فى البلاد ، اذ كان استيلاء خليل على مدينة « عكا » آخر حصن للصليبيين فى الشام فى سنة تسعين وستمائة (١٢٩١ م) رد فعل قوى لدى الأوربيين فصمموا على الانتقام من مصر . ولما لم يفلحوا فى استعمال القوة العسكرية لجأوا الى السلاح الاقتصادى فأخذت البابوية تعمل على اثارة الأوربيين وتحريضهم ضد المصريين لكى يشهروا عليهم

ذلك السلاح الذى يمكنهم من اذلال مصر واضعافها ، سلاح الامتناع عن الاتجار معهم .

ولكن هذا التحريض لم يجد من التجار الأوربيين قبولا لأن الجانب المادى كان أقوى فى النفوس من الاستجابة الى تحريض لا يقوم — فى نظر التجار — على أساس من المصلحة العامة أو المصلحة الخاصة . لذلك نجد سفراء « البندقية » يسعون لدى « الناصر » لكى يجدد لهم الامتيازات التى سبق لوالده أن منحها لهم ، وكان ذلك ولما يمض على سقوط « عكا » أكثر من عشر سنوات ، ومرارة الهـزيمة لا تزال قوية فى قلوب الأوربيين . ويوافق « الناصر » على ذلك وعلى تعيين سـفير للبندقية فى الاسكندرية كما يقول « هايد » فى كتابه تاريخ التجـارة .

ويحاول أحد المبشرين الأسبان فى سنة (١٣٠٦ م) أن يجدد الدعوة لمقاطعة مصر ، فيقترح على التجار الأوربيين أن يمتنعوا عن السفر الى الاسكندرية لمدة ست سنوات وأن يمتنعوا عن شراء البهار من مصر ففى ذلك اضعاف لاقتصاديات مصر واقفـار لخزانتها .

وبعد ذلك بعامين أى فى سنة (١٣٠٨ م) نجد البابا « كلمنت الخامس » يصدر منشورات مختلفة يقول فيها ان تصدير البضائع الى أراضى السلطان يعرض التجار الذين يقومون بذلك الى الحرمان من بركات الكنيسة بل والى مصادرة أموالهم كما يقول

« ڤيبت » فى الجزء الرابع من تاريخ الأمة المصرية الذى أصدره « هانوتو » .

وقد كان لهذه المنشورات أثرها فى مدينة البندقية فأصدر مجلس السناتو بها — وهو أكبر هيئة تشريعية فيها — أمرا يمنع تصدير البضائع الى ممتلكات السلطان . فثارت ثائرة التجار وأخذوا يسعون جهدهم للتخفيف من هذه القيود ، ورأى البابوات ازاء استياء التجار الأوربيين وعدم رضائهم عن هذه التصرفات أن يخففوا من غلوائهم فيبيحوا الاتجار مع مصر فى جميع البضائع الأوربية التى تحتاجها تلك البلاد (القصدير — النحاس — الجوخ الخ) فيما عدا الخشب والحديد لاحتمال استخدامهما فى تجهيز عساكر السلطان .

والواقع أن سياسة تحريم الاتجار مع مصر لم تلق قبولا من الأوربيين عامة بدليل أن ملك أرجونة فى أسبانيا قد بعث الى « الناصر » رسله رجاء توطيد عرى الصداقة ، وأواصر التبادل الاقتصادى بينهما ، وقد تبودلت بينهما رسائل تشف عن روح المحبة ، وتبين الرغبة الشديدة فى انماء التبادل التجارى بينهما ، ولا تزال أصول هذه الخطابات بالأسبانية وبالعربية محفوظة الى اليوم .

ولقد اتجهت مصر فى عصر « الناصر » كما تتجه فى وقتنا الحاضر الى تنمية علاقاتها التجارية مع الدول الأفريقية البعيدة عنها ، فاذا كانت صلاتها بالسودان قوية بحكم الجوار فان صلاتها بالأقاليم النائية الواقعة فى الجهات الجنوبية الغربية منها

فى أفريقية يدل على مدى اتساع تجارتها . فلقد كانت صـلاتها التجارية وثيقة مع بلاد التكرور التى كانت تتكون حينئذ من خمسة أقاليم رئيسية أهمها اقليم مالى ، واقليم غانة ، واقليم تكرور .

ولقد استقبل « الناصر » فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٣ م) « منسا موسى » سلطان بلاد التكرور استقبالا رائعا تجلت فيه حفاوة الناصر بضيفه الكريم ، وتبودلت الهدايا بينهما. ولعله من الطريف أن نذكر هنا أن هذا السلطان كان يأنف من تسميته باسم « سـلطان تكرور » لأن « تكرور » لم تكن الا اقليما واحدا من أقاليم مملكته ، وقد كان يفضل — كما يقول القلقشندى — أن يقال له « صاحب مالى » لأن « مالى » كانت أكبر أقاليمه .

وقد كان التجار المصريون يترددون على تلك البلاد ليشتروا منتجاتها رغم بعد الشقة بينها وبين مصر ، وكانوا يلقون فى حلهم وترحالهم كل أسباب الراحة والطمأنينة . كما أن تجار تلك البلاد كانوا يفدون الى مصر فيلقون فيها كل معاملة طيبة وكرم عظيم .

بداية النهاية

كانت وفاة « آنوك » ابن الناصر بداية النهاية لهذا السلطان العظيم ، فلقد كان يحبه من أعماق قلبه حبا لم يحبه لأحد من أبنائه وبناته على كثرتهم ، لذلك كان موته ضربة قصمت ظهره ، فعاش الشهور الثمانية التى قدر له أن يعيشها بعده حزينا ، منقبض الصدر ، برما بالحياة ، غير مقبل عليها كأنما كان يعتقد فى أعماق نفسه أنه المسئول بتصرفاته عن موت هذا الابن وهو بعد فى ميعة صباه وربيع حياته .

ولشد ما كان يزداد غمه كلما وقعت عينيه على زوجته المحبوبة « طغاى » — والدة آنوك — ورآها كاسفة البـال ، كسيرة الخاطر ، دامعة العينين .

وفى ذات يوم فى مستهل شهر ذى الحجة من عام واحد وأربعين وسبعمائة (١٣٤٠ م) ، ألمت بالسلطان وعكة مصحوبة باسهال مما اضطره الى أن يلزم فراشه خمسـة أيام متوالية ، أخـذ يستعرض فيها — وهو بين يدى المرض ، ممددا فى سريره — ما انقضى من أيام عمره ، وراح يراجع فهرس هذه الحياة التى حفلت بكثير من الحوادث والأعمال ، وأحس أنه فى أيامه الأخيرة

---

(١) انظر ص ٢٨٤ وما بعدها .

قد بالغ فى الحذر من الناس ، وأسرف فى ذلك اسرافا شديدا جعله يفقد الثقة حتى فى أقرب المقربين اليه ، وأعزهم عليه ، وأحبهم الى قلبه . فلقد تذكر فى تلك اللحظات ذلك الوقت الذى رأى أن يجعل فيه انوك وليا لعهده ، وأصدر بالفعل الأوامر لموظفى دولته لاتخاذ العدة لذلك ، وأخذ هؤلاء الموظفون فى الاستعداد لهذا الحفل ، بل وتحدد فعلا يوم الاحتفال بتنصيب آنوك ولاية العهد ، ولكن ما ابتلى به الناصر من شك فى سلطنته الثالثة ، بعد التجارب المريرة التى مرت به ، جعلت حبه العظيم لهذا الابن يهتز قليلا فى نفسه أو بعبارة أخرى جعلت اسرافه فى الحـذر حينئذ يحجب هذا الحب عن ناظريه ، ودفع الشك الى رأسه فأصدر أمره بالعدول عن تنصيبه وليا للعهد والاكتفاء بتأميره أى جعله أمـيرا فقط . والآن وهو يتقلب على فراش المرض أخذ يتحسر على ما صدر منه ، ويتصور أن الموت قد يفاجئه فى أية ساعة فلا يملك له دفعا ، ولعله تذكر فى تلك الساعة أن الحسنات قد يذهبن السيئات فأصدر أمره بالافراج عن المسجونين، وتصدق على الفقراء والمحتاجين بمال جزيل .

واشتد المرض على السلطان ، وتزايدت مرات الاسهال تزايدا ينذر بالخطر ، فصدرت الأوامر بمنع دخول أحد عليه الا الذين يمرضونه ، وذاع الخبر بين الشعب ، فانشغل النـاس لمرض « الناصر » وبدت عليهم علائم الحزن والقلق ، وأخذوا يدعون الله له بالشفاء العاجل .

وكأنما استجاب الله لهذا الدعاء الصادر من قلوب أحبت

الناصر فى اخلاص ، فتماثل السلطان للشفاء ، ونودى فى مصر والقاهرة بزوال الخطر عنه ، وأخذت العاصمة تتزين ابتهاجا بهذا الخبر ، وأقام الأمراء الولائم والأفراح اغتباطا بشفاء السلطان ، وجاء أرباب الملاهى الى القلعة يعرضون ألعابهم وأقيم عرض عسكرى عظيم ، وجاء عربان الشرقية بخيولهم وجمالهم التى تحمل الهوادج ، ولعبوا بالرماح تحت القلعة ، وفى المساء أطلقت الألعاب النارية ، وجلس السلطان يتفرج عليها ، ونزل الخدم الى المدينة يجمعون الخبز من المخابز لتوزيعه على الفقـراء ، كما صدرت الأوامر بعمل ألف قميص للتصدق بها على المحتاجين .

وفى ليلة العيد أى فى التاسع من شهر ذى الحجة ، هبت على البلاد ريح عاصفة ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا أتلف الزينات ، وألقى ببعضها على الأرض ، وكأنما كان ذلك ارهاصا من الطبيعة بما سوف يقع بعد قليل فى البلاد .

واشرق صباح العيد — وكان يوم أحد — واجتمع الأمراء لدى السلطان استعدادا لخروجه لصلاة العيد ، ولم تكن صحة السلطان على ما يرام ، واختلفت الآراء هل يشهد صلاة العيد أو يبقى فى القصر حرصا على صحته ، وكان من رأى الأميرين قوصون وبشتاك — وهما أقوى الأمراء حينئذ وكلاهما متزوج بابنة من بنات السلطان — أن يتحامل السلطان على نفسه وينزل للصلاة حتى لا ينزعج الشعب عليه ، وقد وافق الحاضرون على هذا الرأى ، واستدعى قاضى القضاة ، وطلب اليه ان يوجز فى خطبة العيد ما أمكن مراعاة لحالة السلطان الصحية .

ونزل « الناصر » الى الميدان لصلاة العيد ، وما كاد يؤديها ويجلس للاستماع الى الخطبة حتى تحرك عليه المرض ، ولم يستطع البقاء ، فقام لساعته ، وركب الى القصر حيث استلقى على فراشه ، وتتركه نحن بين يدى الأطباء لنرى ما كان من أمر المماليك ، أمراءهم وجنودهم .

* * *

الواقع ان هذه المدة القصيرة التى اشتد فيها المرض على السلطان كانت من أخطر الأيام فى حياته وحياة البلاد ، حينما كان يصارع الموت ، كان امراؤه يتصارعون على من يفوز بالسلطنة بعده ، اذ أحس الأمراء بقرب نهاية « الناصر » ، وتنبأوا بما سوف يقع بعد موته من الفوضى والاضطراب ، فاخذوا يستعدون لذلك ، ويعملون على انزال اولادهم وحريمهم، واموالهم من القلعة الى القاهرة بعدا بهم عن مواطن الاضطراب ، وأقبلوا على تخزين الماء والمؤن فى بيوتهم استعدادا للأيام العصيبة التى لابد انها مقبلة بعد قليل ، والتى تغلق فيها عادة الأسواق والحوانيت فاخذوا يشترون الأزيار والدنان ليحفظوا فيها الماء ، ويشترون البقسماط والرقاق والدقيق والقمح والشعير ليعيشوا عليها وقت الشدة والى ان تنكشف الغمة وتستقر الحالة فى البلاد . وبدأ بالفعل صغار المماليك يهجمون على المخابز والطواحين والحوانيت لنهب ما تصل اليه أيديهم مما اضطر بعض التجار الى اغلاق حوانيتهم ايثارا للسلامة .

وبدأ الجفاء يظهر بوضوح بين الأميرين بشتك وقوصون ،

ولم تستطع رابطة المصاهرة التى تشدهما الى السلطان لتمنع من هذا النفور أو على الأقل لتخفف من حـدته ، فأخذ كل منهما يحترز على نفسه ، ويبث العيون على غريمه حتى لا يأخذه على غرة . ولعله من المناسب هنا أن تتعرف على كل منهما قبل أن نمضى فى حديثنا .

اما « بشتاك » فقد بدأ حياته بائعا متجولا فى البلاد — على حد قول قوصون عنه — ثم انفتح أمامه باب الحظ حتى صار من الأمراء وقد امتاز بقامة مديدة وبياض فى البشرة ولحيـة خفيفة ، وكان الى هذا الجمال الخلقى رشيق الحركة أنيقا فى ملبسه ، حتى لقد اشتهر بعمامته الجميلة التى كان يقلدها الناس ، كريما زائد البذخ ولقـد أخـذ عليه أمران : الأول انه كان زير نساء لم تسلم منه امرأة القتها المقادير فى طريقه قبيحة كانت أو مليحة ، لم تمنعه مكانته من الامساك بنساء الفلاحين — كما يصفه المقريزى ، والثانى انه كان زائد التيه يعرف العربية ولكنه لا يحب أن يتكلم بها ، كان عنده « ترجمان » يترجم عنه ما يريد.

قربه النـاصر اليه ، وأعلى مكانته ، ولكنه لما تفاقم أمره واستفحل ، ثقل عليه وأراد الفتك به فلم يستطع ، ولكن بشتاك كان جريئا فى تحدى السلطان اذ دخل عليه ذات يوم فى نفر قليل من مماليكه وقال له : « لقد علمت انك تريد امساكى فها أنا قد جئت اليك برقبتى » ، ودهش السلطان لهذه الجرأة وتمالك نفسه وطيب خاطره وأنكر أنه أراد امساكه .

وظل يزداد نفوذا فى بلاط السلطان وفى البلاد حتى أنه عند القبض على تنكز لم يجد الناصر أمامه من هو أقوى من بشتاك للسفر الى دمشق للقبض عليه ومصادرة أملاكه ، وقد قام بهـذه المهمة على أحسن وجه . وقد كانت زيارته لدمشـق فى هـذه المناسبة باعثا له على التفكير فى الهجرة اليها والعيش بها . ولكن القدر لم يمهله لتحقيق هذه الرغبة كما سنرى بعد قليل .

أما قوصون فقد كان هو الآخر بائعا متجولا ، وقد حباه الله هو الآخر بجمال الخلقة اذ كان أبيض البشرة ، مديد القامة حلو التقاطيع ، وقد ابتاعه « الناصر » من نفسه عندما رآه ذات يوم يبيع العصى للخدم الذين يعملون فى الاسطبلات السلطانية ، وقد ضمه الى مماليكه ، وأخذ يترقى حتى وصل الى أعلى المراتب ، وعند ذلك رأى أن يسافر الى وطنه الأصلى لكى يحضر أهله واقاربه ليقاسمونه ما وصل اليه من نعمة ، وبالفعل نراه يعود بهم الى مصر ويسعى الى تعيينهم فى الوظائف المختلفـة ، كما يسعى لتأمير بعضهم ، ولقد تزوج السلطان بأخته ، كما تزوج هو بابنة السلطان .

ولقد كان التنافس بين هذين الأميرين شديدا ، وكان السلطان يحرص دائما على ان يسوى بينهما فى كل شىء ، اذا منح احدهما منحة منح الآخر مثلها .

وعندما مرض السلطان مرضه الأخير ، واقتربت نهايتـه على ما تراءى للأمراء ، أسفر كل أمـير من هذين الأميرين عما فى قلبه من عداء وحسد لعديله ، ودخل بشتاك ذات يوم الى

السلطان وهو راقد فى فراش المرض ، وأخبره أن قوصون قد جهز مماليكه للقضاء عليه ، وأيقن « الناصر » عندئذ ان العداء قد اشتد بين صهريه ، فأمر باستدعائهما اليه ، وحاول أن يصلح بينهما ، وأخذا يتعاتبان أمامه ، ويذكر كل منهما لصاحبه ما ارتكبه فى حقه من اساءة ، واشتد النقاش بينهما كما اشتد الألم على السلطان الذى غاب عن رشده خلال هذه المناقشة الحامية ، فقاما من عنده دون ان يتحقق الصفاء بينهما .

وأفاق السلطان من اغمائه ، وسأل عن الأميرين واستدعاهما اليه ورجا كل منهما ان يصفو لصاحبه ، وحاول ان يزيل ما علق بنفسيهما من جفاء . ووفق هذه المرة فتصالحا أمامه ، واقترح الأمراء الحاضرون ومن بينهم بشتاك وقوصون أن يعهد السلطان الى أحد أبنائه بالملك بعده ، فاستجاب الى رغبتهم لأنه أحس بأن شعلة حياته قد قاربت على الانطفاء ، واقترح أن يخلفه على العرش ولده « أبو بكر » ولكن بشتاك عارض فى ذلك واقترح على السلطان ان يختار ولده « احمد » فرفض السلطان فى غضب وحذر الأمراء من الأمير « احمد » لأنه — فى نظره — لم يكن يصلح للعرش . وسكت بشتاك ولم يعارض . واستقر رأى الجميع على جعل أبى بكر وليا للعهد ، وقد استدعاه السلطان وأوصاه أن يستمع الى نصح الأمراء ، ويعمل بتوجيههم ، كما أوصى الأمراء به خيرا ، وعين بشتاك وقوصون وصيين عليه ، وعهد اليهما بتدبير شئون ابنه أبى بكر وشئون الدولة معه .

وفــاة النـاصــر

اشتد المرض على الناصر محمد بعد أن ظل يكافحه أحد عشر يوما ، وأخيرا كتب للموت الانتصار ففاضت روح محمد فى أول ليـلة الخميس الحادى والعشرين من شهر ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة (١٣٤٠ م) وكان له من العمر سبع وخمسون سنة وأحد عشر شهرا وخمسة أيام .

وما كاد الخبر يذاع حتى اضطربت الأمور ، واشتد النزاع بين الأميرين بشتاك وقوصون ، ونسى « بشتاك » وصية السلطان أو تناساها فلم يوافق على انتخاب الأمير أبو بكر سلطانا بعد والده وأصر على اختيار الأمير « أحمد » ، وأغلب الظن أن هذا الاصرار انما مرده الى التشابه الغريب بين أخلاق بشتاك وأخلاق « أحمد » فكلاهما مسرف فى اشباع شهواته ، واضطر الأمير « قوصون » أمام هذه الفتنة التى توشك أن يندلع لهيبها — أن يخرج الى الساحة وينادى بأعلى صوته على الأمير « بشتاك » ، وتدور بينهما مناقشة طريفة يكشف كل منهما فيها لزميله عن أصـله وفصله ، فيقول قوصون « ان كلانا لا يصلح للجلوس على العرش ، فالنـاس جميعا يعرفون أننا كنا الى يوم قريب باعة متجولين ، والأولى أن ننفذ مشيئة السلطان فى اجـلاس الأمير أبى بكر على العرش ، أما اذا رأيت غـير ذلك فاننى لن

أعارضك قط ، وسوف أوافق على كل ما تراه أنت دون تردد ، ولو شئت أن تقيم فى كل يوم سلطانا جديدا ما تأخرت عن الموافقة على ذلك » وكأنما فتحت كلمات قوصون هذه عينى بشتاك على نفسه وأخجلته من معارضته لرغبة السلطان الراحل ، ولعله أدرك فى تلك اللحظة أن أحدا من الأمراء لن يقف الى جواره اذا هو أصر على اختيار الأمير أحمد للسلطنة فهذا الأمير لم يكن متمتعا برضاء معظم الأمراء عنه ، لذلك سلم بشتاك بانتخاب أبى بكر ، وتقدم من قوصون ودخلا معا الى حيث كان السلطان ممددا فى فراشه بعد أن فارق الحياة ، وقبلا قدميه ثم نزل المنادى ينادى فى الناس بوفاة الناصر محمد وسلطنة ابنه « أبى بكر » وأخذ بعد ذلك فى الاستعداد لدفن السلطان الراحل واستقبال السلطان الجـديد .

وصدرت الأوامر بغلق الحوانيت فى شارع بين القصرين ، وطرد الناس من هناك ، وحمل السلطان الراحل فى محفة أخرج بها من القلعة ، ومروا به من وراء الأسوار الى باب النصر وكان يسير مع النعش بعض الأمراء من بينهم الأمـير « بشتاك » . وشقوا به الطريق من باب النصر الى قبة قلاوون ، وكان أمامه بعض الحراس تضىء عليهم مسرجية توقد من زيت حار ، وخلف النعش فانوس ، وحمل الى داخل القبة ، وغسّل بها وحنّط وكفّن بمياه وحنوط وأقمشة استحضرت من مارستان قلاوون ثم دفن مع أبيه تحت تلك القبة العظيمة التى سبق أن أشرنا اليها .

فلنشد الرحال اليها ، لنقف بين يديها مترحمين على هـذا

العظيم ، مستحضرين فى الذهن حياته الحافلة . ثم نشاهد تلك القبة التى تعد أروع المدافن الاسلامية فى مصر ومن أروعها فى العالم العربى .

وبعد فان كثيرين منا يمرون بهذه القبة دون أن يدركوا أن تحتها يرقد عظيم من عظماء العرب ، ملأ الدنيا ، وشغل العالم ، ورفع شأن العروبة منذ ستمائة عام ، ودون أن يفطنوا الى ما تنطوى عليه من جمال فنى رائع .

ترى ألا يستحق منا هذا العظيم أن نذهب الى قبره مرة واحدة كل عام ، نستذكر فيها أمجاده وأعماله ، ونستمد من هذه الذكرى زادا يعيننا على المضى فى طريق المجد . ويجب أن يتعرف الجيل الجديد بهذه الشخصية العربية التى يؤسفنا أن نقول انه ليس لها فى كتب التاريخ التى بين أيدى أبنائنا الا بضعة سطور لا تغنى ولا تشبع ولا تكاد تترك فى النفس أثرا ؟

وهل لا تستحق هذه القبة الرائعة التى يرقد تحتها هذا العظيم أن نتأمل فى جمالها الفنى ؟ ان العناية بتاريخ الفن وما شيده أجدادنا من آثار من شأنها أن تصفى الذوق ، وترهف الحس ، وتذكى فى النفس حب الجمال . وتصفية الذوق ، وارهاف الحس ، هى أمور لا غنى عنها لأى أمة تريد أن تتبوأ مكانا كريما بين الأمم الراقية .

وبعد فهذا علم من أعلام العرب سطر فى تاريخنا القومى — كما رأينا — صفحات كثيرة حافلة بأعمال جليلة ، وله فى

عاصمتنا العظيمة — القاهرة — آثار كثيرة ، بعضها لا يزال قائما كما كان يوم انشائه ، تحدثنا صخوره عما شهدته من حياة اجتماعية راقية بالقياس الى عصرها لا الى عصرنا الحالى وله فى متاحفنا الاسلامية تحفا عدة تفصح بأشكالها وزخارفها وألوانها بما كان فى عصره من حياة فنية ناضجة وما امتاز به زمنه من ذوق راق .

وشخصية كهذه جديرة بأن يعرفها الجيل الحاضر من العرب معرفة عميقة ، لا سيما فى هذه الآونة التى نفتقر فيها الى أن نزداد ثقة بأنفسنا عن طريق ثقتنا بماضينا ، ونحس احساسا عميقا بجلال هذا الماضى ، ووفرة حظه من المجد ، ونحاول أن نجلو عن قوميتنا ما ران عليها من صدأ الضعف ، والاستكانة عبر العصور ، وأن نبرز ما كان لنا من سؤدد ، فنستمد من هذا الماضى المشرق قوة تعيننا على المضى قدما فى بناء مستقبلنا الجديد ، وفى استعادة مكانتنا السامية التى كانت لنا بين الدول .

مراجع البحث

والآن وقد فرغنا من استعراض حياة الناصر محمد بن قلاوون ، أحب ، قبل أن أضع القلم أن اعترف بين يدى القراء بأننى أدين بالشيء الكثير لكل من كتبوا قبلى فى موضوع المماليك عامة وفى تاريخ هذا السلطان خاصة .

ولست أريد أن أثقل على القارىء بثبت طويل اسرد فيه أسماء هؤلاء ، وأسماء مؤلفاتهم جميعا ، ولذلك رأيت أن أكتفى بالاشارة الى من كانوا ، فى نظرى ، ابرز أولئك الباحثين ، وأجدرهم بالتنويه، ثم أعقب على ذلك بذكر مؤلفاتهم .

فمن المؤرخين القدامى اذكر ابن عبد الظاهر ، والقلقشندى ، والمقريزى ، وابن تغرى‌بردى . ومن المؤرخين المحدثين من الأجانب اذكر : هايد ، لين بول ، ماير ، وموير ، وڤييت ، وتسترشتين .

ومن المؤرخين العرب أذكر الزملاء الأجلاء الأساتذة الدكاترة : محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العرينى ، محمد جمال الدين سرور ، ثم المرحوم محمد رمزى بك .

أما أهم الكتب التى استفدت منها من أبحاث هؤلاء فهى :

ابن عبد الظاهر (محيى الدين)

١ ــ تشريف الايام والعصور فى سيرة الملك المنصور

حققه الدكتور مراد كامل وراجعه الأستاذ محمد على النجار ونشرته وزارة الثقافة والارشاد القومى ــ القاهرة سنة ١٩٦١ (الشركة العربية للطباعة والنشر)

القلقشندى (أبو العباس احمد) ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م

٢ ــ صبح الأعشى فى صناعة الانشا ــ مطبوعات دار الكتب المصرية ــ القاهرة

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م

٣ ــ كتاب الخطط والآثار فى مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من الأخبار • طبعة النيل – القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ •

٤ ــ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك
نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة من ١٩٣٤ الى ١٩٤٢ •

ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو المحاسن) ت ٨٧٤ هـ / ١٢٥٤ م

٥ ــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية ــ القاهرة

Heyd, (W.)

6.—Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age, Leipzig, 1925.

Lane-Poole,(S.)

7.—A History of Egypt in the Middle Ages. London, 1912.

Mayer, (L.A.)

8.—Mamluk Costume, Geneva, 1952.

Muir (W. E.)

9.—The Mamluke or Slave Dynasty of Egypt, London, 1896.

Wiet (G.)

10.—Histoire de la Nation Egyptienne, Tom. IV. Edition Hanotaux.

Zettrerstéen, (K.V.)

11.—Beitrage zur Geschichte der Mamluken-Sultane.

محمد مصطفى زيادة

١٢ ـ التعليقات القيمة على كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك سالف الذكر (رقم ٤) . وقد ظهر الجزء الأول منه بأقسامه الثلاثة بين ١٩٣٤ ـ ١٩٣٩ . والجزء الثانى بأقسامه الثلاثة وقد ظهر بين ١٩٤١ و ١٩٤٢ م

السيد الباز العرينى

١٣ ـ الفارس المماوكى ـ المجلد الخامس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة سنة ١٩٥٦.

١٤ ـ الاقطاع الحربى زمن سلاطين المماليك مطبعة نهضة مصر بالقاهرة سنة ١٩٥٦

محمد جمال الدين سرور

١٥ ـ دولة بنى قلاوون فى مصر دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٤٧

المرحوم محمد رمزى بك

١٦ ـ التعليقات القيمة على كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة سالف الذكر (رقم ٥)

١٧ ـ قاموس الامكنة والبقاع نشر دار الكتب المصرية بالقاهرة .

فهرست

صفحة

صفحة

القسم الثالث

الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الأولى

القسم الرابع

الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية

القسم الخامس

الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثالثة

الناصر فى حياته العامة

صفحة

أعلام العرب
الكتاب القادم

أحمد زكى

الملقب بشيخ العروبة

بقلم

أنور الجندى

يصدر فى ٧ مايو ١٩٦٤

